إيزابيل ألليندي

مدينة البهائم

ترجمة: رفعت عطفة



إيزابيل ألليندي

مدينة البهائم

رواية

ترجمة : رفعت عطفة

مدينة البهائم

• إيزابيل ألليندي
• مدينة البهائم
• ترجمة رفعت عطفة
• جميع الحقوق محفوظة © Copyright
• الطبعة الأولى 2003
• موافقة وزارة الإعلام رقم 74032
• الناشـــــــــــر : ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053
• الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر
• الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
• التـــــــــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ص.ب 30249

العنوان الأصلي للكتاب:
La ciudad de las Bestias

إلى ألخِاندرا، أندريا ونيكول،
الذين طلبوا منّي هذه القصّة

1

الكابوس

استيقظ ألِكسانِدر كُولْدْ فجراً مذعوراً من كابوس. حلم بأنّ طائراً أسودَ هائلاً يرتطم بالنافذة محدثاً دويَّ بلور محطّم، يدخل البيتَ ويحمل أمَّهُ. كان في حلمه يُراقب عاجِزاً كيف أنَّ النسرَ العملاقَ يرفعُ بمخالبه الصفراء ليزا كُولْدْ من ثيابها، يخرجُ من النافذة المكسورة ذاتها ويضيع في سماء مشحونة بالسحب السوداء المتلبِّدة. أيقظه صوتُ العاصفةِ والريحِ، التي تسوط الأشجارَ، وصوتُ المطرِ على السطح، والبرقِ والرعد. أشعل النورَ بإحساس من يمضي في سفينة في مهبّ الريح وضمَّ إليه جسم الكلب الكبير الذي كان ينام بجانبه. قدَّر أن المحيط الهادي يهدر على بعد فراسخَ قليلة من بيته ويطفحُ بأمواجه العاتية فوق الكورنيش. مكثَ يُصغي إلى العاصفة ويُفَكِّرُ بالطائر الأسود وبأمّهِ على أمل أن يهدأ قرع الطبل الذي يشعر به في صدره. كان ما يزال واقعاً في شباك صور الحلم السيِّئ.

نظر الفتى إلى الساعة: إنّها السادسةُ والنصف، ساعةُ الاستيقاظ. في الخارج لا يكاد يَبين الخيط الأبيض من الأسود. قرَّر أن ذلك اليوم يومَ شؤم، يوماً من تلك الأيام التي يُفضّل المرءُ ألاّ يُغادِرَ فيها الفراشَ، لأنّ كلّ شيء يأتي وخيماً. فمنذ أن مرضت أمُّهُ صارت هناك أيام كثيرة كهذه، وصار جوّ البيت أحياناً ثقيلاً كما في قاع البحر. راحته الوحيدة في مثل تلك الأيام كانت في الهروبِ،

الخروجِ والجري على الشاطئ مع بونتشو حتى تنقطع أنفاسه. لكنّها كانت تمطر، تمطر منذ أسبوع، إنّه طوفان حقيقيّ، ثمّ إنّ أيّلاً كان قد عضّ الكلب ولا يريد أن يتحرّك. كان ألِكس واثقاً من أنّه يملكُ أغبى كلبٍ في التاريخ، كلب الحقلِ الوحيد الذي يزن أربعين كيلو غراماً وعضّه أيل. خلال عمر بونتشو البالغ أربع سنوات هاجمته الراكونات وقطُ الجيران، والآن أيلٌ، هذا دون أن نعدّ المناسبات التي نفخت فيها الظرابين عليه واضطر أن يغسله بعصير البندورة ليخفّفَ من الرائحة. غادرَ ألِكسُ الفراشَ دون أن يزعج بونتشو وارتدى ملابسه وهو يرتعد برداً، فالتدفئة المركزية تبدأ العمل في السادسة، لكنّها لم تبلغ حدّ أن تدفئ غرفته، الأخيرة في الممر.

كان ألِكس ساعةَ الإفطار عَكِرَ المزاج وليس عنده من الهمة ما يجعله يحتفل بجهد والده في صنع البسكويت. لم يكن جون كُولْدْ طاهياً جيّداً تماماً: كان يعرف فقط صناعة البسكويت والذي يخرج وكأنّه عجّة مكسيكية(*) من المطاط. كان أبناؤه يلقون بها في أفواههم كي لا يُزعجوه، لكنّهم يستغلون أيّة غفلة منه ليقذفوا بها في القمامة. عبثاً حاولوا أن يُدرّبوا بونتشو على أكلها، صحيح أنّ الكلب كان غبيّاً، لكن ليس كثيراً.

ـ متى ستتحسّن أمي ـ سألت نيكول، محاولةً أن تغرز شوكتها في البسكويت المطاطي.

ـ اسكتي يا غبيّة! ـ ردّ ألِكس، ضجراً من سماعه أخته الصغرى تُردِّدُ السؤال ذاته مرّات عدّة في الأسبوع.

ـ أمّنا ستموت! ـ علّقت أندريا.

ـ كذّابة! لن تموت! ـ صاحت نيكول.

ـ أنتما تافهتان ولا تعرفان ما تقولان! ـ هتف ألِكس.

ـ كفى، أيّها الصغار، اهدؤوا، ستتحسّن أمّكم... ـ قاطعهم جون كُولْدْ دون قناعة.

(*) Panqueque نوع من المعجنات المصنوعة من الطحين و السكّر.

شعر أَلِكسْ بالغضب من والده وأختيه وبونتشو، من الحياة بعامة، بل ومن أمّه أيضاً لأنّها مرضت. خرج من المطبخ بخطوات كبيرة، مستعداً لأن يغادرَ دون فطور، لكنّه تعثَّر بالكلب في الممر وسقط على وجهه.

ـ أبعد عن طريقي، أيّها الأبله ـ صاح به فلعق بونتشو وجهه محدثاً صوتاً وملأ نظارته باللعاب.

حقّاً، إنّه يومٌ من تلك الأيام المشؤومة تماماً. بعد دقائق اكتشف أبوه أنّ عجلة الشاحنة الصغيرة مثقوبة واضطرّ لمساعدته على تغييرها، لكنّ الصغار الثلاثة أضاعوا على كلّ حال دقائق ثمينة ووصلوا إلى الصّف متأخرين. ونظراً لإسراع أَلِكس في الخروج بقيٍ عنده واجب الرياضيات مما خرَّبَ علاقته بالمعلم. كان يعتبره رجلاً صغيراً يثير الشفقة قرّر أن يدمّر حياته. وللطامة الكبرى أنّه نسي أيضاً الناي وكان عنده في ذلك المساء تدريب مع فرقة المدرسة، فقد كان العازف المنفرد ولا يمكنه أن يتغيَّب.

كان النايُ السببَ الذي جعل أَلِكسْ يخرج أثناء استراحة الظهيرة ليذهب إلى البيت. كانت العاصفة قد انتهت، لكنّ البحر ما يزال هائجاً ولم يستطع أن يختصر الطريق عبر الشاطئ، لأنّ الأمواجَ راحت تنفجر من فوق الكورنيش وتغمر الشارع. أخذ الطريق الطويلة جرياً، لأنّه لم يكن يملك إلاّ أربعين دقيقة.

في الأسابيع الأخيرة ومنذ أن مرضت أمّه صارت تأتي امرأة للقيام بأعمال النظافة، لكنّها أخبرتهم في ذلك اليوم أنّها لن تأتي بسبب العاصفة. في جميع الأحوال لم تكن لتفيد كثيراً، فالبيتُ وسخ بل وكان التلف يظهر عليه حتى من الخارج، كأنّ العقارَ حزين. بدأت مظاهر الهجران بالحديقة وراحت تمتدّ إلى الغرف حتى آخر ركن فيها.

كان أَلِكسْ يشعر بأنّ أسرته تتفكّك. أخته أندريا، التي كانت دائماً مختلفة قليلاً عن بقية الطفلات، كانت تمضي الآن متنكّرة

وتضيع لساعات في عالم أوهامها، حيث الساحرات يترصدن في المرايا وكائنات غير أرضية تسبحُ في الحساء. كان يظنّ أنّها لم تعد في عمر يسمح لها بذلك، ففي الثانية عشرة يجب أن تهتمّ بالفتيان أو بثقبِ أذنيها. ومن ناحيتها كانت نيكول، صغرى أفراد الأسرة، تجمع حديقة حيوان وكأنّها تريد أن تُعوِّضَ عن الاهتمام الذي لم يكن باستطاعة أمّها أن تمنحه لها. كانت تُطعم عدداً من الراكونات والظرابين التي تجوب البيت، وتبنّت ست قطط صغيرة يتيمة، تُحافظ عليها مخَبّأةً في المرآب، وأنقذت حياةَ طائر بشع مكسور الجناحِ، وتحفظُ حنشاً بطول مترٍ في صندوقٍ. لو أنّ أمَّها صادفت الحنشَ لماتت في مكانها رعباً، رغمّ أنّ هذا لم يكن محتملَ الحدوث، لأنّه حين لا تكون ليزا كُولْد في المشفى فإنّها تقضي يومها في الفراش.

وباستثناء بسكويت أبيه وبعض شطائر التونة بالمايونيز، خاصة التي كانت تصنعها أندريا لم يكن هناك ما تطهوه الأسرة منذ شهور. في البراد لا يوجدُ غير عصير البرتقال والحليب والمثلجات. ففي المساء يطلبون بالهاتف بيتزا أو مأكولات صينية. في البداية حدث هذا بما يشبه الاحتفال، لأنّ كلّ واحد كان يأكل ما يحلو له، خاصّة السكّر، وفي أيّة ساعة، لكنَّ الجميع كانوا يتوقون لوجبة الأيامِ العادية الصحية. استطاع أَلِكْسْ أن يقدّر كم كان حضور أمّه هائلاً وكم يثُقل عليه الآن غيابها. صار يشتاق إلى ضحكتها السهلة، حنانها وصرامتها. كانت أكثر صرامة ومكراً من أبيه: من المحال خداعها، لأنّ لها عيناً ثالثة ترى بها ما لا يُرى. ما عاد يُسْمَعُ صوتُها، وهي تُدندن بالإيطالية، ما عاد هناك موسيقى ولا أزهار ولا تلك الرائحة الخاصة بالبسكويت الخارج توّاً من الفرن ولا لوحات. سابقاً كانت أمّه تتدبّر أمرها كي تعمل عدّة ساعات في مشغلها، تحافظ على البيت بلا عيب وتنتظر أبناءها بالبسكويت، لكنَّها الآن لا تكاد تنهضُ لحظةً، تدور في الغرف مشوَّشةً كأنّها لا تعرف ما حولها، هزيلةً، غائرةَ العينين تحيط بهما الظلال. لوحاتُها

التي كانت تبدو سابقاً كأنّها انفجارات لونية حقيقية تمكث الآن منسيةً على حواملها والألوان الزيتية تجفّ في مواسيرها. تبدو كأنّها انكمشت، فهي تكاد تكون شبحاً صامتاً.

لم يعد عند ألِكس من يطلب منه أن يحكّ له ظهره أو يرفع معنوياته حين يستيقظ وهو يشعر بنفسه حشرةً، إذ لم يكن أبوه يحب الدلال. كانا يخرجان معاً ليتسلّقا الجبال، لكنّهما لا يتكلّمان إلا قليلاً. ثمّ إنّ جون كولْدْ قد تغيّر مثل جميع من في الأسرة. لم يعد الرجل الرزين الذي كان سابقاً، صار يثور مراراً ليس على أولاده وحسب بل وعلى زوجته أيضاً، يؤنّب أحياناً ليزا التي لا تأكل كفايةً أو لا تتناول دواءها، لكنّه سرعان ما يندمُ ويعتذر منها متضايقاً من تهوّره. كانت هذه المشاهد تصيب ألِكس بالارتعاش، لأنّه لا يتحمّل أن يرى أمّه خائرة القوى وأباه تملأ عينيه الدموع.

عندما وصل ظهيرة ذلك اليوم إلى البيت استغرب رؤية شاحنة أبيه الصغيرة، فهو في مثل تلك الساعة يعمل في العيادة. دخل من باب المطبخ، كما هي العادةُ دائماً، بلا مفتاح، بهدف أن يأكل شيئاً، ليأخذ نايَهُ ويخرج مسرعاً عائداً إلى المدرسة. ألقى نظرة حوله فلم يرَ غير بقايا بيتزا ليلة البارحة المتيبسةَ. توجه إلى البرّاد مستسلماً للجوع باحثاً عن كأسٍ من الحليب. سمع في تلك اللحظة النحيب. ظنه في البداية صياحَ قطط نيكول في المرآب، لكنّه سرعان ما لاحظ أنّ مصدر الجلبة غرفة أبويه. اقترب بشكلٍ شبه آلّي دون رغبة بالتجسس، ودفع البابَ نصف المفتوح بنعومة. صعقه ما رأى.

كانت أمّه حافيةً في قميص نومها تجلسُ على كرسيّ صغير، تبكي ووجهها بين يديها، وأبوه يقف خلفها ممسكاً بموسى حلاقة قديم يعود إلى جدِّهِ، وخصلات من شعر أسود طويل تغطي الأرضَ وكتفي أمّه الهشّين، بينما تلمع جمجمَتُها مثل مرمرٍ تحت النور الشاحب المتسرِّب من النافذة.

مكثَ الفتى لثوان متجمّداً خوفاً، لا يفهم المشهد، لا يُدرك معنى وجود الشعر على الأرض، ورأسِ أمه المحلوق أو تلك الموسى في

يدِ أبيه وهي تلمع على بعد ميليمترات قليلة من عنق أمّه المائل. حين تمكّن من استعادة وعيه صعدت صرخة رهيبة من قدميه وهزّت كيانه موجة من الجنون. ارتمى فوق جون كولد وأطاح به بدفعة واحدة على الأرض. رسمت الموسى قوساً في الهواء، مرّت ملامسةً جبينَهُ وانغرزت في الأرض. بدأت أمّه تناديه وتشدّه من ثيابه لتفصله عنه، بينما هو يكرر ضرباته الهوجاء، وهو لا يدري أين تقع.

ـ حسن يا بُني، اهدأْ، لم يحدث شيء ـ كانت ليزا كُولْدْ تتوسّل إليه وهي تمسك به بقواها النادرة، بينما أبوه يحمي رأسه بذراعيه.

أخيراً نفذ صوتُ أمّه إلى عقله، وتلاشى غضبُهُ في لحظة، مفسحاً الطريق للارتباك والرعب مما فعل. نهض وتراجع مترنحاً، ثمّ جرى وأغلق على نفسه غرفته. جرّ مكتبه، أوصد الباب، وسدّ أذنيه كيلا يسمع والديه يناديانه. بقي برهة طويلة مستنداً إلى الجدار، مغمضَ العينين، محاولاً أن يتحكم بإعصار المشاعر التي كانت تهزّه حتى العظم. وعلى الفور راح يخرب بنظام كلّ ما في الغرفة. انتزع الملصقات عن الجدران ومزّقها واحداً فواحداً، أخذ مضرب البيسبول وانهال على اللوحات وأشرطة الفيديو، سحقَ مجموعته من السيارات القديمة وطائرات الحرب العالمية الأولى، مزّق صفحات كتبه، نزع محتوى فراشه ووسائده بسكين الجيش السويسري، قصّ بالمقص ملابسه ورفس بقدميه المصباح حتى صار شظايا. قام بالتحطيم دون عجلة، بمنهجية وصمت، كمن يقوم بمهمة أساسية، ولم يتوقّف إلاّ عندما خارت قواه ولم يبقَ ما يحطّمه. غطّى الريشُ وحشوُ الفراشِ والزجاج والأوراق والخرق وقطع الدمى الأرضَ. واستلقى منهكاً من تلك الانفعالات والجهد وسط ذلك الطوفان، منكمشاً مثل محارة، رأسه بين ركبتيه وبكى حتى غرق في النوم.

استيقظ ألِكساندر كولْدْ بعد ساعاتٍ على أصوات أختيه وتأخرّ لحظاتٍ حتى تذكّر ما حدث. أراد أن يُشعِل النور، لكنّ المصباح كان

محطّماً. اقترب من الباب متلمسا. تعثّر وأطلق لعنةً آنَ شَعَرَ أنّ يده وقعت على قطعة زجاج. لم يتذكّر أنّه حرّك المكتبَ فاضطرّ إلى أن يُزيحه بكلّ قواه كي يفتح البابَ. أضاء نور الممر ميدانَ المعركة، الذي صارت إليه غرفته، ووجهَي أختيه المذهولين في العتبة.

ـ هل كنت تعيد ترتيب غرفتك يا ألِكس؟ ـ هزئت أندريا بينما غطّت نيكول وجهها كي تكبت ضحكتها.

صفق ألِكس البابَ في وجهيهما وجلس على الأرضِ يفكر، شادّاً على جرحِ يده بأصابعه. بدا له الموتُ نزفاً مغرياً، فهو على الأقلّ سيتخلّص من مواجهة أبويه بعد ما فعله، لكنّه سرعان ما غيّر رأيه. قرّر أنّ عليه أن يُعَقّم الجرح قبل أن يلتهب. لكنه بدأ يؤلمه، لا بدّ أنّه جرح عميق، ويمكن أن يسبّب له الكزاز... خرج بخطوات متردّدة، متلمساً طريقَه، لأنه لا يكاد يرى، فقد ضاعت نظارته أثناء الكارثة، وكانت عيناه منتفختين من البكاء. أطلّ على المطبخ، حيث بقيّة الأسرة، بمن فيهم أمّه ومنديل من القطن يلف رأسها ويضفي عليها مظهر لاجئة.

ـ آسف... ـ دمدم ألِكْس ونظره معلق بالأرض.

كبتت ليزا صيحة حين رأت القميص ملطخاً بدم ابنها، لكن حين أومأ إليها زوجُها بنظرته أخذت الصغيرتين من ذراعيهما ومضت بهما دون أن تقول كلمة. اقترب جون كولْدْ من ألِكْس ليعتني بيده المجروحة.

ـ لا أدري ما الذي جرى لي يا أبي... ـ همس الفتى دون أن يجروْ على أن يرفع نظره.

ـ أنا أيضاً خائف يا بُني.

ـ هل ستموتُ أمّي؟ ـ سأل ألِكْس بصوتٍ واهِنٍ.

ـ لا أدري يا ألِكسانْدر. ضع يدك تحت دفق الماء البارد ـ أمره أبوه.

غسل جون كولْدْ الدمَ، فحصَ الجرحَ وقرّر أن يخدّره كي يخرج

منه شظايا الزجاج ويخيط الجرح عدّة غرزات. تحمّل ألِكْس، الذي كان مشهد الدم يُنهكُه، هذه المرّة المعالجة دون أن تصدر عنه أيّة حركة، ممتنّاً لأنّ في الأسرة طبيباً. وضع له مرهماً معقماً وضمّد له يده.

ـ في جميع الأحوال كان شعر أمّي سيسقط، أليس صحيحاً؟ ـ سأل الفتى.

ـ بلى بسبب المعالجة الكيميائية. قصّه أفضل من رؤيته يسقط خصلاتٍ. هذا هو الأمر الأقل أهمية يا بُني، فهو سيعود لينمو. اجلسْ. يجب أن نتكلّم.

ـ عفواً، يا أبي... سأعمل كي أصلح كلّ الذي حطّمته.

ـ حسناً، أعتقد أنّكَ كنت بحاجة كي تفرّج عن نفسك. دعنا من الكلام عن هذا، فهناك أشياء أخرى أهمّ عليَّ أن أقولَها لك. يجب أن آخذ ليزا إلى مشفى في تكساس، حيث سيخضعونها لعلاجٍ طويلٍ ومعقّد. إنّه المكان الوحيد الذي يمكن أن يفعلوا فيه هذا.

ـ وهل ستشفى بهذا؟ ـ سأل الفتى متلهفاً.

ـ هذا ما آمل به يا ألِكساندر. طبعاً سأذهب معها. سيكون علينا أن نُغلق هذا البيت لفترة من الزمن.

ـ وماذا سيحّل بي وبأختيَّ؟

ـ ستذهب أندريا ونيكول لتعيشا مع الجدّة كلارا. وأنت ستذهب إلى أمّي ـ وضّح له الأبُ.

ـ كات! أنا لا أريد أن أذهب إليها يا أبي! لماذا لا أستطيع أن أذهب مع أُختَيَّ؟ على الأقل الجدّة كلارا تُجيد الطهي...

ـ ثلاثة أولاد شيء كثير على حماتي.

ـ عمري خمسة عشر عاماً يا أبي، وهو عمر كافٍ أكثر من اللازم كي تسألني عن رأيي. ليس من العدل أن ترسلني إلى كات كما لو كنت طرداً. دائماً يحدثُ الشيء ذاته، أنت تتخذ القرارات وعليّ أن أقبلها. لم أعد طفلاً! ـ وضّح ألِكس حانقاً.

ـ تتصرّف أحياناً مثل طفل ـ ردّ جون كولْدْ مشيراً إلى الجرح في يده.

ـ كان حادثاً يمكن أن يحدث لأيّ شخص. سأتصرّف بشكلٍ جيّد عند كارلا، أعدك بذلك.

ـ أعرف أنّ نواياك جيّدة يا بني، لكنّك تفقد صوابك أحياناً.

ـ قلتُ لك إنّني كنت سأدفع ثمن ما كسّرته! ـ صاح ألِكساندر ضارباً بقبضته على الطاولة.

ـ أرأيت كيف تفقد سيطرتك على نفسك؟ على كلّ حال، لا علاقة لهذا بتحطيم غرفتك يا ألِكساندر، فقد سويّ الأمر مع حماتي وأمّي من قبل. عليكم أنتم الثلاثة أن تذهبوا إلى الجدتين، لا يوجد حل آخر. أنت ستسافر إلى نيويورك خلال يومين ـ قال أبوه.

ـ وحدي؟

ـ وحدك. أخاف أن يكون عليك من الآن فصاعداً أن تقوم بأشياء كثيرة وحدك. خذ معك جواز سفرك، لأنّني أعتقد أنّك ستقوم بمغامرة مع أمّي.

ـ أين؟

ـ في الأمازون...

ـ الأمازون؟ ـ صاح ألِكْسْ مذعوراً ـ رأيتُ فيلماً وثائقياً حول الأمازون، إنّه مكان مليء بالبعوض والتماسيح(*) واللصوص. هناك كلّ أنواع الأمراض بما فيها الجذام!

ـ أعتقد أنّ أمّي تعرف ما تفعل ولن تحملك إلى مكان فيه خطر على حياتك يا ألِكساندر.

ـ كانتْ قادرةً على أن تدفعني إلى نهر موبوء بأسماك البيرانا ياأبي. مع جدّة مثل جدّتي لستُ بحاجةٍ لأعداء جددـ دمدم الفتى.

(*) Caiman هو التمساح الأمريكي، ولكنّنا سنقتصر على كلمة تمساح تفادياً للتكرار.

ـ آسف، لكن عليك يا بُني، في جميع الأحوال، أن تذهب.

ـ والمدرسة؟ نحن في فترة الامتحانات. ثمّ إنّني لا أستطيع أن أترك الأوركسترا بين ليلة وضحاها...

ـ عليك أن تكون مرناً يا ألِكساندر، فأسرتنا تمرّ في أزمة. هل تعرف الرموز الصينية لكتابة أزمة؟ خطر+ فرصة. ربّما قدمت لك خطورة مرضِ ليزا فرصةً رائعة. اذهب ووضّب أشياءك.

ـ ماذا سأوضّب؟ ليس عندي الكثير لأوضبه ـ تمتم ألِكس وهو ما يزال منزعجاً من والده.

ـ إذن عليك أن تأخذ القليل. والآن هيا اذهب وقبّل أمّك، فهي متأثّرة جدّاً بما يجري. إنّه أقسى على ليزا من أيّ منّا، يا ألِكساندر. علينا أن نكون أقوياء مثلها ـ قال جون كولْدْ بحزن.

حتى شهرين خليا كان ألِكس سعيداً. لم يكن عنده قط فضول كبير ليسبر أبعد من حدود حياته الآمنة، وكان يظنُّ بأنّ كلّ شيء سيخرج جيّداً إذا لم يرتكب حماقات. كان عنده مشاريع بسيطة لمستقبله، يفكّر بأن يُصبِح موسيقياً شهيراً كجدّه جوزيف كولْدْ، يتزوّج من سيسيليا بورنز، إذا قبلت به، ينجب ولدين ويعيش قرب الجبال. وكان راضياً عن حياته، فهو كطالب ورياضيّ جيّد، وإن لم يكن ممتازاً، كان ودوداً ولا يحشر نفسه في مشاكل خطيرة. يعتبر نفسه شخصاً طبيعياً، على الأقل بالمقارنة مع مسوخ الطبيعة الموجودة في هذا العالم، كما هو حال أولئك الفتية الذين دخلوا بالرشاشات إلى مدرسة في كولورادو وقتلوا رفاقهم. لم يكن عليه أن يذهب بعيداً، ففي مدرسته ذاتها كان يوجد عناصر بغيضة. لا، هو لم يكن من هؤلاء؛ الحقيقة أنّ كلّ ما يريده هو العودة إلى حياة ما قبل أشهر خلت، حين كانت أمّه في عافيتها. لم يكن يريد الذهاب مع كاتِ كولْدْ إلى الأمازون. فهذه الجدة كانت تُسبّبُ له بعض الخوف.

بعد يومين ودّع ألِكس المكان الذي جرت فيه سنوات حياته الخمس عشرة. حمل معه صورةَ أمّه وهي تقف عند باب البيت وقبّعة

تُغطّي رأسها المحلوق، وهي تبتسم وتقول له وداعاً بيدها، بينما الدموع تجري على خدّيها. كانت تبدو صغيرة جدّاً، هشّةً وجميلة رغم كلّ شيء. صعد الفتى إلى الطائرة وهو يفكّر بها وباحتمال فقدانها المرعب. لا! لا يمكن أن أضع نفسي في هذه الحالة، عليّ أن أفكّر إيجابياً، ستشفى أمّي، همس مرّةً وأخرى خلال الرحلة الطويلة.

2

الجدّة غريبة الأطوار

كان ألِكساندر كولد في مطارِ نيويورك وسطِ حشدٍ مستعجلِ يمرّ بجانبه جارّاً حقائب وطروداً، يتدافع ويتعثّر. كانوا يبدون آليين، نصفهم يحملون هواتفهم الخليوية ملتصقة بآذانهم، يتكلمون مع الهواء كأنّهم معتوهون. كان وحيداً مع حقيبة الظهر وورقة نقديّة مجعّدة في يده، وثلاث أوراق أخرى مطوية وموضوعة في حذائه. كان والده قد نصحه بالحذر لأنّ الأمور في تلك المدينة الهائلة لم تكن كما في البلدة الصغيرة على شاطئ كاليفورنيا، حيث كانوا يعيشون ولا يحدث أيّ شيء، ونشأ أولاد كولد وهم يلعبون مع أطفال آخرين في الشارع، يعرفون الجميع ويدخلون إلى بيوت الجيران كما يدخلون إلى بيوتهم.

كان الفتى قد سافر ستّ ساعات، عابراً القارة من أقصاها إلى أقصاها، جالساً بجانب رجل بدين كثير التعرّق يطفح شحمه عن المقعد ويقلّص مكانه إلى النصف. وفي كلّ برهة ينحني الرجل بصعوبة، يمدّ يده إلى كيس مؤونة ويشرع بمضغ بعض الأشياء اللذيذة دون أن يسمح له بالنوم أو برؤية الفيلم بسلام. كان ألِكس في غاية التعب، يعدّ الساعات المتبقية على نهاية ذلك العذاب إلى أن هبطوا أخيراً واستطاع أن يمطّ ساقيه. نزل من الطائرة مرتاحاً يبحث عن جدّته بنظره، لكنّه لم يرها في الباب، كما كان يتوقّع.

ساعة مرّت وكات كولْدْ لم تصل، وبدأ ألِكس يشعر بالضيق

جدّياً. نادى عليها بمكبر الصوت مرّتين دون أن يلقى جواباً، والآن عليه أن يُبدّل الورقةَ النقدية بعملة معدنية كي يستخدم الهاتف. هنّأ نفسه على ذاكرته الجيّدة. استطاع أن يتذكّر رقمها دون تردّد، تماماً كما يتذكّر عنوانها، دون أن يكون قد ذهب إلى هناك قط، من مجرّد البطاقات التي كانت تكتبها له من حين إلى آخر. رنّ هاتف جدّته دون جدوى، بينما راح يجهد عقله كي يرفع أحدٌ السماعة. ماذا أفعل الآن؟ تمتم مرتبكاً. خطر له أن يهتف إلى والده من على هذا البعد ليطلب منه تعليمات، لكنّ هذا يمكن أن يكلفه كلّ ما معه من نقودٍ معدنية. ثم إنّه لم يبغِ أن يتصرّف مثل تافهٍ. إذ ماذا يستطيع أنْ يفعل له أبوه من على كلّ هذا البعد؟ لا، قرّر، لا يمكنه أن يفقد صوابه لمجرّد أنّ جدّته تأخرت قليلاً؛ فربّما حاصرتها زحمة السير، أو أنّها تجول في المطار بحثاً عنه وعَبَرَ الواحد منهما بالآخر دون أن يراه.

أمضى نصف ساعة أخرى، شعر خلالها بحنق كبير على كات كُولْدْ، حتى أنّها لو مثلت أمامه لشتمها. تذكّر المزاح الثقيل الذي كانت تمازحه به طوال سنوات، مثل علبة الشوكولا المحشوة بصلصة حارة، والتي أرسلتها إليه في عيد ميلاده. ما من جدّة طبيعية يمكن أن تجهد نفسها بنزع محتوى كلّ حبّة بحقنةٍ وتستبدله بالفلفل الكاوي، وتلف الشوكولا بالورق المفضّض وتعيد ترتيبه في العلبة لمجرّد أن تسخر من أحفادها.

كما تذكّر الحكايات المرعبة التي كانت ترعبهم بها حين تأتي لزيارتهم وكيف تصرّ على أن تفعل ذلك والأنوار مطفأة. لم يعد لتلك الحكايات الآن أثر كبير، لكنّها في طفولتهم أوشكت أن تميتهم من الخوف. أختاه ما تزالان تعانيان من كوابيس مصاصي الدماء والموتى المنبعثين، الهاربين من قبورهم، التي كانت تستحضرها تلك الجدّة اللعينة في الظلمة. ومع ذلك لا يستطيع أن يُنكِرَ أنّهم كانوا مولَعين بتلك الحكايات الوحشية. كما أنّهم لم يكونوا يتعبون من سماعها تحكي لهم عن الأخطار، الحقيقية أو الخيالية، التي

واجهتها خلال أسفارها في العالم. الخطر المفضّل عندهم كان عن ثعبان بطول ثمانية أمتار في ماليزيا، ابتلع آلة تصويرها. «مؤسف أنّه لم يبتلعك يا جدّتي!» علّق ألِكس في أوّل مرّة سمع فيها الحكاية، لكنّها لم تنزعج. هذه المرأة نفسها علّمته السباحة في أقلّ من خمس دقائق، وذلك حين دفعت به إلى المسبح وهو في الرابعة من عمره. خرج سابحاً من الطرف الآخر من يأسه الخالص، لكنّه كان من الممكن أن يغرق. كانت ليزا كولْدْ على حقّ حين تتوتّر عندما تذهب حماتها لزيارتهم. فقد كان عليها أن تُضاعف يقظتّها كي تُحافِظ على صحّة الأطفال.

بعد ساعة ونصف من الانتظار في المطار لم يعد ألِكس يعرف ما يفعل. تصوّرَ كم ستستمتع كات كولْدْ حين تراه بهذا الضيق وقرَّر ألاّ يرضي رغبتها؛ عليه أن يتصرّف كرجل. ارتدى سترته، سوّى حقيبة الظهر على كتفيه جيّداً وخرج إلى الشارع.

كاد التناقض بين التدفئة المركزية، الضوضاء والنور الأبيض داخل البناء وبرد وصمت وظلمة الليل في الخارج، أن يُطيح به. لم يكن يعرف أنّ شتاء نيويورك مزعج إلى ذلك الحدّ. كان هناك رائحة بنزين، وثلج وسخ على الرصيف، وريح صرصر تصفعه على وجهه كأنّها إبر. انتبه إلى أنّ تأثّره بوداع أسرته أنساه القفاز والقبعة، اللذين لم يملك فرصة لاستخدامهما في كاليفورنيا وكان يخبّئهما في صندوق في المرآب، مع بقية أدوات التزلّج. شعر بجرح يده اليسرى ينبض، ولم يكن قد أزعجه حتى تلك اللحظة، وقدّر أنّ عليه أن يغيّر الضمادَ ما إن يصل إلى بيت جدّته. لم يكن يعرف كم تبعد شقّتها أو كم يكلّف الوصول إليها في سيارة أجرة. كان بحاجة إلى خريطة للمدينة، ولم يعرف من أين يحصل عليها. سار باتجاه موقف الباصات مجمّد الأذنين ويداه في جيبيه.

ـ مرحبا! هل أنت وحدك؟ ـ اقتربت منه فتاة.

كانت الفتاة تحمل على كتفها كيساً من الخيش، وقبعة هابطة حتى حاجبيها وأظافرها مطلية بالأزرق وحلقة فضية تخترق أنفها.

مكث ألِكسْ ينظر إليها مندهشاً، فهي تكاد تكون بجمال حبيبته السرية، سيسيليا بورنز، على الرغم من بنطلونها الممزّق، وجزمتها العسكرية ومظهرها الأقرب إلى القذارة والجوع. كانت ترتدي سترة قصيرة من الجلد الاصطناعي البرتقالي كدثار وحيد، لا يكاد يصل إلى خصرها، ولا تضع قفازاً. دمدم ألِكسْ بجواب مبهم. كان والده قد حذّره ألاّ يتكلّم مع الغرباء، لكنّ لا يمكن أن تمثّل تلك الفتاةُ أيَّ خطر، فهي لا تكاد تكبره بأكثر من عامين، وكانت ناحلة وقصيرة مثل أمّه. الحقيقة أنّ ألِكس شعر بجانبها أنّه قويّ.

- إلى أين تذهب؟ - ألحّت المجهولة مُشْعِلةً سيجارة.

- إلى بيت جدّتي، إنّها تعيش في الشارع 14 من الجادة العريضة الثانية. هل تعرفين كيف يمكنني أن أصل إلى هناك؟ - استفسر ألِكس.

- طبعاً، فأنا ذاهبة إلى الجهة ذاتها. يمكننا أن نأخذ الباص. أنا مورغانا - عرّفت الشابة بنفسها.

- لم أسمع قط بهذا الاسم - علّق ألِكسْ.

- أنا اخترته بنفسي. فالغبية أمّي سمّتني اسماً دهمائياً مثلها. وأنتَ ما اسمك؟ - سألت وهي تنفثُ الدخانَ من منخريها.

- ألِكساندر كولْدْ، ويدعونني ألِكس - ردّ مستاءً قليلاً من سماعه لها وهي تتلفّظ بتلك الألفاظ عن أسرتها.

انتظرا في الشارع، وهما يحركان أرجلهما في الثلج كي يُدفّئا أقدامهما، عشر دقائق استغلتها مورغانا كي تقدّم ملخصاً مكثفاً عن حياتها: منذ سنوات لم تذهب إلى المدرسة - فهي للتافهين - وهربت من بيتها لأنّها لم تعد تتحمّل زوجة أبيها، الذي كان خنزيراً مقزّزاً.

- سأنضمّ إلى فرقة روك، هذا هو حلمي - أضافت - الشيء الوحيد الذي أحتاجه هو قيثارة كهربائية. ما هذه العلبة التي تربطها إلى حقيبة ظهرك؟

ـ ناي.

ـ كهربائي؟

ـ لا، بل يعمل على البطارية. ـ سخر ألِكسْ.

وصل الباص تماماً في اللحظة التي راحت فيها آذانهما تتحوّل إلى قطع من الثلج وصعدا إليه. دفع الفتى ثمن تذكرته وتلقى الباقي بينما راحت مورغانا تبحث في جيب سترتها البرتقالية، ثم في الجيب الآخر.

ـ محفظة نقودي! أظنهم سرقوها مني... ـ تلعثمت.

ـ آسف يا صغيرة. عليك أن تنزلي ـ أمرها السائق.

ـ ليس ذنبي أنّهم سرقوني! ـ صاحت بصوت عالٍ تقريباً أمام ألِكسْ المرتبك، الذي شعر بالرعب من لفت الانتباه.

ـ أيضاً ليس ذنبي. اذهبي إلى الشرطة ـ ردّ السائق بجفاف.

فتحت الشابة كيس خيشها وأفرغت محتواه في ممر المركبة: ثياب، أدوات زينة، بطاطا مقلية، عدّة علب وصرر مختلفة الأحجام وحذاء عالي الكعب، يبدو لشخص آخر، لأنّه كان من الصعب تصورّها به. فتّشت كلّ قطعة من الثياب ببطءٍ مدهش، مقلّبة الثياب، فاتحة العلبَ والصرر واحدة بواحدة، نافضة الثياب الداخلية على مرأى من الجميع. حرف ألِكس نظره وهو في كلّ مرّة أكثر قلقاً. لم يكن يريد أن يُفكّر الناس بأنه كان يسير مع تلك الفتاة.

ـ لا أستطيع أن أبقى الليل بطوله منتظراً يا صغيرة. عليك أن تنزلي. كرَّر السائقُ بصوت ينطوي على نبرة تهديدٍ هذه المرّة.

تجاهلته مورغانا، وقد خلعت سترتها البرتقالية وراحت تفتش البطانة، بينما راح ركاب الباص الآخرون يحتجون على التأخر في الانطلاق.

ـ أدِنّي شيئاً! ـ طلبت أخيرا متوجّهة إلى ألِكس.

شعر الفتى بالثلج يذوب على أذنيه اللتين عرف أنّهما راحتا تحمرّان، كما يحدث له في اللحظات الحرجة. كانتا صليبه: فهما تخونانه دائماً، خاصّة أمام سيسيليا بورنز، الفتاة التي كان يُحبّها منذ كانا في روضة الأطفال دون أيّ أمل بأن تتجاوب معه. وخلص ألِكس إلى أنّه لم يكن هناك مسوّغ كي تمعن سيسيليا النظر فيه ما دام باستطاعتها أن تختار بين أفضل رياضيي المدرسة. لم يكن يتميّزُ بشيء. فمواهبه الوحيدة تقوم على تسلّق الجبال وعزف الناي، لكن ما من فتاة في رأسها عقل يمكن أن تهتمّ بالجبال أو النايات. كان محكوماً بأن يحبها بصمتٍ بقيّةَ عمره، اللهم إلاّ إذا حدثت معجزة.

ـ أدِنّي ثمن التذكرة ـ كرّرت مورغانا.

في الظروف العادية لم يكن يهمّ ألِكس أن يضيع نقوده، لكنه لم يكن في تلك اللحظة في وضعٍ يسمح له بأنّ يتصرّف بسخاء وكرم. إنما قرّر من جهة أخرى، أنّه ما من رجل يمكنه أن يتخلّى عن امرأة في مثل تلك الحالة. كان ما معه يكفيه تماماً لمساعدتها دون أن يلجأ إلى الأوراق النقدية المطوية في جزمته. دفع ثمن التذكرة الثانية. رمته مورغانا بقبلة ساخرة من رؤوس أصابعها، وأخرجت لسانها للسائق، الذي كان ينظر إليها منزعجاً. جمعت أشياءها بسرعة ولحقت بألِكس إلى الصف الأخير من السيارة، حيث جلسا معاً.

ـ أنقذتني. ما إن أتمكن من جمع النقود حتى أدفعها لك ـ أكّدت له.

لم يجب ألِكس. كان عنده مبدأ: إذا أنت أدنت شخصاً مالاً ولم تعد لتراه، فهو مال أحسِن إنفاقه. كانت مورغانا تثير عنده إحساساً من الإعجاب والرفض، فهي مختلفة تماماً عن أيّ من فتيات بلدته، حتى عن أكثرهن جرأة. ولكي يتفادى النظرَ إليها فاغرَ الفم مثل أبله فإنّه أمضى معظمَ الرحلة الطويلة صامتاً ونظره معلق بزجاج النافذة الداكن، حيث تنعكس صورة مورغانا ووجهه الناحل ذاته بنظارته الدائرية وشعره الداكن كشعر أمّه. متى سيستطيع أن يحلق ذقنه؟ فهو

لم يكبر مثل عددٍ من أصدقائه، ولم تنبت لحيته بعد، وهو واحد من أقصر فتية الصفّ. سيسيليا نفسها كانت أطول منه. فضيلته الوحيدة كانت، بخلاف مراهقين آخرين في مدرسته، هي أنّ بشرته سليمة، لأنّه ما إن يظهر فيها طفح حتى يُبادر والده لحقنه بالكورتيزون. وكانت أمّه تؤكّد له أن عليه ألاّ ينشغل، فبعضهم يطول مبكراً وبعضهم يطول متأخراً وفي أسرة كولْدْ جميعُ الرِجالِ طوّال، لكنّه كان يعرف أن الوراثة الجينية اعتباطية ويمكن أن تطغى جينات أسرة أمه. كانت ليزا كولْدْ قصيرة القامة وتبدو من الخلف طفلة في الرابعة عشرة من عمرها، خاصة بعد أن حوّلها المرضُ إلى هيكلٍ عظميّ. حين فكّر بذلك شعر بصدره يُطبق وبالهواء ينقطع عنه، كما لو أنّ قبضة عملاقة أمسكت به من عنقه.

كانت مورغانا قد خلعت سترتها الجلدية البرتقالية، التي ترتدي تحتها بلوزة مطرزة سوداء قصيرة تتكشّف عن بطنٍ عارٍ وطوقٍ من الجلد مطعمٍ بالمعدن، يشبه طوق كلب شرس.

ـ أموت على سيجارة ـ قالت.

أشار ألِكس إلى إعلان يمنع التدخين في الباص، أما هي فألقت نظرة حولها. لم يكن هناك من يعيرها انتباهاً، فهناك عدة مقاعد خالية والمسافرون الآخرون يقرؤون أو يغفون حولها. حين تأكّدت أنّ أحداً لا ينظر إليهما أدخلت يدها في حقيبتها وأخرجت من صدرها كيساً صغيراً قذراً. لكزته بخفة نافضةً الكيس أمام أنفه.

ـ حشيش ـ همست.

رفض ألِكس كولْدْ بحركة من رأسه. لم يكن يعتبر نفسه نقيّاً، ولا بشكلٍ من الأشكال، فقد جرّب الماريغوانا والكحول أحياناً، مثل جميع رفاقه في الثانوية تقريباً، لكنه لا يستطيع أن يفهم ما فيها من جاذبية، غير أنّها ممنوعة. لم يكن يحبّ أن يفقد السيطرة على نفسه. فهو في تسلّقه الجبال تملكته عظمة متعة التحكّم بجسده وعقله. كان يعود مع والده من تلك الرحلات منهكاً، متألماً وجائعاً، لكنّه سعيد تماماً ومفعم بالحيوية والاعتزاز لأنّه انتصر مرّة أخرى على

مخاوفه ومعوقات الجبل. كان يشعر بنفسه نشيطاً، قويّاً يكاد لا يُهزم، ووالده في تلك المناسبات يربت على كتفه ربتة صداقة كنوع من المكافأة على مأثرته، لكنّه لا يقول له شيئاً كيلا يغذّي غروره. لم يكن جون كولْدْ من أنصار التملّق، والحصول منه على كلمة مديح كان مكلفاً جدّاً، لكنّ ابنه لم يكن ينتظر سماعه منه وتكفيه تلك الربتة الرجولية.

تعلّم ألِكس من تقليد والده أن يقوم بواجباته على أحسن وجه ممكن، دون أن يتباهى بشيء، لكنّه كان يتفاخر في سرّه بثلاث فضائل يعتبرها خاصّة به: جرأته على تسلّق الجبال، وموهبته في العزف على الناي، وصفاء تفكيره. لكن يصعب عليه الاعتراف بنواقصه، رغم أنّه ينتبه إلى وجود اثنتين منها على الأقل، عليه أن يحسّنها، تماماً كما لفتت أمّه انتباهَهُ في أكثر من مناسبة: ريبيته، التي تجعله يشكّ بكلِّ شيءٍ تقريباً، ومزاجه السيِّئ الذي يجعله ينفجر في وقت لا يخطر على بال. كان هذا شيئاً جديداً قليلاً، لأنّه قبل أشهر فقط كان واثقاً من نفسه وحسن المزاج. كانت أمّه تؤكّد أنّ هذا من طبيعة العمر وسيذهب عنه، لكنّه لم يكن يمتلك ثقة أمّه تماماً. في جميع الأحوال لم يشدّه عرضُ مورغانا. ففي المناسبات التي جرَّب فيها المخدرات لم يشعر بأنّه يطير إلى الجنّة، كما كان يقول بعضُ أصدقائه، بل يشعر برأسه يمتلئ بالدخان وبساقيه مثل الصوف. بالنسبة إليه لم يكن هناك من محرِّض مثل التأرجح من حبل في الجوّ على ارتفاع مئة متر، وهو يعرف تماماً الخطوة التالية التي عليه القيام بها. لا، المخدرات ولا السيجارة لم توجد له، لأنّه يحتاج إلى رئتين سليمتين للتسلق وعزف الناي. لم يستطع أن يتفادى ابتسامةً قصيرة حين تذكّر طريقة جدّته كات في اقتلاع إغواء التبغ عنده من جذوره. كان في الحادية عشرة من عمره وعلى الرغم من أنّ والده ألقى عليه موعظته عن سرطان الرئة وعواقِب النيكوتين الأخرى، إلاّ أنّه اعتاد أن يُدخّن خلسة مع أصدقائه خلف قاعة الجمباز. وجاءت كات كولْدْ لتقضي معهم عيد الميلاد ولم تتأخّر بأنفها الشبيه بأنف كلبٍ بوليسي من اكتشاف الرائحة، على

الرغم من العلكة وماء الكولونيا اللذين حاول أن يخفي بهما الرائحة.

ـ أتدخّن وأنت بهذه السن الصغيرة يا ألِكساندر؟ ـ سألته بمزاج حسن جدّاً. حاول أن يُنكرَ لكنّها لم تمنحه الوقت ـ رافقني، تعال نقوم بمشوار ـ قالت.

صعد الصبيُّ السيارة، وضع حزام الأمان، شدّه جيّداً وتمتم بين أسنانه بتعويذة للحظ الحسن، لأنّ جدّته إرهابية خلف المقود. وبذريعة أنّ أحداً لا يمتلك سيارة في نيويورك، فقد كانت تقودُ السيارة كما لو أنّهم يلاحقونها. قادته بين قفزٍ وكبحٍ حتى السوبر ماركت، حيث اشترت أربعةً من سيجار التبغ الأسود الكبيرة، ثمّ أخذته إلى شارع هادئ وركنت السيارة بعيداً عن النظرات الوقحة وشرعت بإشعال سيجار لكلٍّ واحدٍ منهما. دخّنا ودخّنا وأبواب ونوافذ السيارة مغلقة حتى حال الدخان دون الرؤية عبر النوافذ. شعر ألِكس برأسه يدور وبمعدته تتقلّبُ. فجأة ما عاد يستطيع أكثر، ففتح الباب وارتمى في الشارع مثل كيسٍ، مريضاً حتى في روحه. انتظرت جدّته مبتسمة حتى انتهى من تفريغ معدته دون أن تقدّم نفسها لإسناد جبينه ومواساته، كما كانت ستفعل أمّه، ثمّ أشعلت سيجاراً آخر وأعطته له.

ـ هيّا يا ألِكساندر، برهن لي على أنّك رجل ودخّن واحداً آخرَ ـ تحدّته، وهي في غاية الطرافة.

اضطرّ الفتى إلى ملازمة الفراش في اليومين التاليين، وقد صار أخضر مثل ضبّ مقتنعاً بأنّ الغثيان وألم الرأس سيميتانه. ظنّ أبوه بأنّه أصيب بفيروس، لكنّ أمّه شكّت على الفور بحماتها، دون أن تتجرّأ على اتهامها بتسميم حفيدها مباشرة. مذاك وعادة التدخين، التي لاقت نجاحاً كبيراً عند بعض أصدقائه، صارت تقلب أحشاءه.

ـ هذا الحشيش من أفضل الأنواع ـ ألحّت مورغانا مشيرة إلى محتوى الكيس الصغير ـ أيضاً عندي هذه، إن كنتَ تُفضّل ـ أضافت وهي تعرض عليه حبتين بيضاوين في راحة يدها.

عاد ألِكس ليمعن النظر في نافذة الباص، دون أن يجيبها. كان

يعرف من التجربة أنه من الأفضل السكوت أو تغيير الموضوع. أيّ شيءٍ سيقوله سيكون له وقع تافهٍ وستفكّر الفتاة بأنّه أحمق أو أنّه يحملُ أفكاراً دينيةً أصولية. هزّت مورغانا كتفيها وخبّأت كنوزَها بانتظار فرصة أكثر ملاءمة. كانا قد وصلا محطّة الباصات في وسط المدينة وعليهما أن يهبطا.

لم تكن حركة السير ولا حركة الناس في الشارع قد خفّت في تلك الساعة، وعلى الرغم من أنّ المكاتب والمتاجر مغلقة، إلاّ أن هناك بارات ومسارح ومقاهٍ ومطاعم مفتوحة. كان ألِكس يعبر بالناس لا يميّز وجوههم، بل أجسادهم المنحنية والملفوفة بمعاطف داكنة وهم يسيرون بسرعة. رأى بعض الكتل المرمية على الأرض بجانب سياج الرصيف المعدني، حيث تخرج أعمدة من البخار. أدرك أنّها أجساد مشردين ينامون متقوقعين بجانب فتحات تدفئة المباني، مصدر الحرارة الوحيد في الليل الشتوي.

كانت أنوار النيون وأضواء السيارات تضفي على الشوارع المبللة والوسخة مظهراً غير واقعي. في الزوايا تلال من الأكياس السوداء، بعضها ممزّق وانتثرت قمامته. متسوّلة ملفوفة بمعطف بالٍ تنكش في الأكياس بعصا بينما تنشد ابتهالات أبدية بلغة مبتدعة. اضطرّ ألِكس أن يقفز جانباً ليتفادى جرذاً بذيل معضوض ودام، كان في منتصف الرصيف ولم يتحرّك عند عبورهما. أصوات أبواق السيارات وولولة سيارة إسعاف تجرح الهواء. مرّ بهما رجل شابّ، فارع الطول، غير أنيق وهو يصيح بأنّ العالم سينتهي ووضع في يده ورقة مجعّدة تظهر فيها فتاة شقراء غليظة الشفتين، نصف عارية تعرض التدليك. تعثّر به شخص على زلاجات يضع في أذنيه سماعات، وقذف به إلى الجدار. صاح به المعتدي «انظر أين تسير، أيها الأبله!».

شعر ألِكساندر بجرح يده ينبض من جديد. فكّر أنّه غارق في كابوس من الخيال العلمي، في مدينة هي مقبرة هائلة، فولاذ، زجاج، تلوث ووحشة. انتابته موجة من الحنين إلى المكان القريب

من البحر الذي قضى فيه حياته، إلى تلك البلدة الهادئة والمضجرة التي كثيراً ما أراد أن يهرب منها وتبدو له الآن رائعة. قطعت مورغانا عليه أفكاره المحزنة.

ـ أنا أتضوَّر جوعاً. هل باستطاعتنا أن نأكلَ شيئاً؟ ـ اقترحت.

ـ تأخّر الوقت وعليّ أن أصل إلى بيت جدّتي ـ اعتذرَ.

ـ على رسلك يا رجل. سأحملك إلى بيت جدّتك. إنّنا قريبان، لكن من المفيد لنا أن نلقي بشيء في جوفينا ـ أصّرت.

وسحبته من ذراعه، دون أن تفسح له مجالاً للرفض، إلى داخل محل صاخب تفوح منه رائحة البيرة والقهوة العفنة والمقالي. خلف طاولة البار المصنوعة من الفورميكا عاملان آسيويان يقدّمان بعض الأطباق التي تقطر دهناً. جلست مورغانا على كرسيّ بار أمام طاولة العرض وشرعت تدرس الطبق اليومي المكتوب بالطباشير على لوح معلّق على الجدار. أدرك ألِكس أنّه سيكون عليه أن يدفع ثمن الطعام، فتوّجه إلى الحمّام لإخراج الأوراق النقدية التي يخبئّها في جزمته. كانت جدران المراحيض مليئة بالكلمات البذيئة والرسوم الفاحشة، وعلى الأرض أوراق مجعدة وأغمار من الماء الذي يتسرب من القساطل الصدئة. دخل إلى غرفة مرحاض، أغلق الباب بالمزلاج، ترك الحقيبة على الأرض واضطر للجلوس على كرسي المرحاض، على الرغم من تقززه، كي يخلع جزمته، المهمة غير السهلة في تلك المساحة الصغيرة وبيدٍ مضمّدة كيده. وفكّر بالجراثيم وبالأمراض التي لا حصر لها التي يمكن أن تنتقل إليه في مرحاض عام، كما كان يقول أبوه. ولكن عليه أن يعتني برأسماله الصغير.

عدّ نقوده متنهداً، هو لن يأكل ويأمل أن ترضى مورغانا بطبق رخيص، فهي لا تبدو ممن يأكلون كثيراً. وهو ما لم يصبح بمنجاةٍ في شقّة كات كولدْ فإنّ هذه الأوراق النقدية الثلاث المطوية والمعاد طيّها هي كلّ ما يملكه في هذا العالم، وتمثّل الفارق بين النجاة والموت جوعاً وبرداً في الشارع، مثل المتسولين الذين رآهم قبل لحظات. إذا لم يهتدِ إلى عنوان جدّته سيكون باستطاعته دائماً أن

يعودَ إلى المطار ليقضي ليلته في زاوية من زواياه ويطير عائداً في اليوم التالي إلى بيته، وهذا هو مبرِّر وجود بطاقة العودة معه. انتعل جزمته من جديد، خبّأ النقود في أحد جيوب حقيبته وخرج من المرحاض، لم يكن في الحمام أحد غيره. حين عبر أمام المغسلة وضع حقيبة ظهره على الأرض، سوّى ضماد يده اليسرى، غسل يده اليمنى بالصابون بعناية، رشق ما يكفي من الماء على وجهه كي يزيل التعب ثمّ نشّف بالورق؛ وحين انحنى ليأخذ حقيبة الظهر انتبه مذعوراً إلى أنها اختفت.

خرج مثل الريح من الحمّام وقلبه يخفق بعنف. وقعت السرقة في أقلّ من دقيقة، لا يمكن للصّ أن يكون بعيداً، وإذا ما أسرع يمكنه أن يُدركه قبل أن يضيع في حشد الشارع. كلّ شيء في المحلّ كان على حاله، المستخدمان نفسهما يتصبّبان عرقاً خلف طاولة العرض، الزبائن اللامبالون ذاتهم، الطعام الذي يقطر دهناً ذاته، قعقعة الصحون ذاتها، وموسيقى الروك بأعلى صوتها. لم ينتبه أحد إلى اضطرابه، لم يلتفت أحد لينظر إليه حين صرخ بأنّهم سرقوه. الفرق الوحيد هو أنّ مورغانا لم تعد جالسة أمام طاولة العرض، حيث تركها. لم يبق لها أي أثر.

تكهّن ألِكس خلال لحظة بمن لحق به خلسةً، من الذي انتظر على الجانب الآخر من باب الحمّام مقدِّراً فرصته، من الذي أخذ حقيبة ظهره بلمح البصر. ضرب براحته على جبينه. كيف أمكن أن يكون بتلك البراءة! لقد خدعته مورغانا كما لو أنّه طفل، سلبته من كلّ شيء باستثناء الثياب التي يرتديها. أضاع نقوده، بطاقة العودة بالطائرة، بل وحتى نايه الرائع. الشيء الوحيد الذي تبقى له هو جواز السفر، الذي يحمله مصادفةً في جيب السترة. قام بجهدٍ كبير ليصارع رغبته في البكاء مثل طفل صغير.

3

رجل الغابة الكريه

«من عنده فم يصل إلى روما» تلك كانت إحدى مسلمات كات كولْدْ. كان عملها يجبرها على السفر إلى مناطق بعيدة، حيث لا بدّ أنّها طبّقت هذا القول مرّاتٍ كثيرةً. وكان ألِكس أقرب إلى الخجل، يُكلفه إيقاف شخص مجهول ليتحقّق من شيء الكثير من الجهد، لكن ما من حلّ آخر. ما إن تمكّن من الهدوء والقدرة على استعادة الكلام حتى اقترب من رجلٍ يمضغ همبرغر وسأله كيف يستطيع الوصول إلى الشارع 14 الجادة العريضة الثانية. هزّ الرجل كتفيه ولم يجبه. احمرّ الفتى وقد شعر بالإهانة. تردّد لدقائق ثم حام حول أحد العامِلَيْن خلف طاولة العرض. أشار الرجل بسكين في يده إلى جهة مبهمة وأعطاه بعض الإرشادات صارخاً فوق ضوضاء المطعم، وبنبرة مطبقة بحيث أنّه لم يفهم كلمة واحدة. قرّر أن ذلك شيء منطقيّ: عليه أن يتأكّد من الجهة التي تقع فيها الجادة العريضة الثانية، ويعدّ الشوارع المتقاطعة معها، شيء بسيط جدّاً، لكنه لم يبد له بهذه البساطة حين تأكّد أنّه في الشارع الثاني والأربعين من الجادة العريضة الثامنة وقدّر كم عليه أن يقطع في هذا البرد الجليدي. شكر تدرّبه على تسلق الجبال، فإذا كان يستطيع أن يقضي ستّ ساعات وهو يتسلق مثل ذبابة على الصخور، فإنّ باستطاعته أن يسير الآن بعض الفراسخ القليلة في أرض منبسطة. رفع سحاب سترته، أدخل رأسه بين كتفيه، وضع يديه في جيبيه وراح يمشي.

حين وصل الفتى إلى شارع جدّته كان الوقتُ قد تجاوز منتصف الليل وبدأت تثلج. بدا له الحيّ قديماً ووسخاً وقبيحاً، ما من شجرة في أيّ مكان ومنذ برهة لم يعد يرى أحداً. فكّر أنّ شخصاً يائساً مثله هو الذي يستطيع أن يمشي في مثل تلك الساعة في شوارع نيويورك الخطيرة، وهو لم ينجُ من أن يصبح ضحية اعتداء سرقة إلاّ لأنّه ما من لصّ عنده الهمّة للخروج في ذلك البرد. كان البناء رمادياً بين أبراج أخرى كثيرة مماثلة، ومحاطاً بسياج أمان. قرع الجرس وسرعان ما سأل صوت كات كولْدْ المبحوح والخشن من هذا الذي يتجرّأ على أن يزعجها في مثل تلك الساعة من الليل. تكهّن ألِكس بأنّها كانت تنتظره على الرغم من أنّها لا يمكن أن تعترف بذلك مطلقاً. كان متجمّداً حتى عظامه ولم يحتج قط أن يلقي بنفسه بين ذراعي أحد كما كان يحتاج في هذه المرّة، لكن ما إن فُتِح بابُ المصعد أخيراً في الطابق الحادي عشر والتقى بجدّته حتى حزم أمره وقرّر ألاّ يسمح بأن تراه يضعف.

ـ مرحباً يا جدّتي ـ حياها بأوضح ما استطاع، نظراً لأنّ أسنانه كانت تصطكّ كثيراً.

ـ قلتُ لك لا تنادِني بجدّتي! ـ نهرته.

ـ مرحباً يا كات.

ـ تأخّرت في الوصول يا ألِكساندر.

ـ ألم نتفق على أن تذهبي لتستقبليني في المطار؟ ـ ردّ هو محاوِلاً ألاّ تنهمر الدموع من عينيه.

ـ لم نتفق على شيء. إذا لم تكن قادراً على أن تصل من المطار إلى بيتي فكيف ستكون قادراً على الذهاب معي إلى الأدغال ـ قالت كات كولْدْ ـ اخلع سترتك وجزمتك وسأعطيك فنجاناً من الشوكولا وأحضّر لك حمّاماً ساخناً جيّداً. لكن ليكن في علمك أنّني أفعل ذلك فقط كي لا تصاب بالتهاب الرئة. عليك أن تكون سليماً كي تُسافر. لا تنتظر أن أدلّلك في المستقبل، مفهوم؟

ـ لم أنتظر قط أن تُدلّليني ـ ردّ ألِكس.

ـ ماذا حدث ليدك؟ ـ سألت حين رأت الضماد المبلَّل.

ـ شيء تطول روايته.

كانت شقّة كات كولْدْ الصغيرة معتمة، مكتظّة وفوضوية. نافذتان ـ زجاجهما وسخ ـ تطلان على منور وثالثة على جدار من الآجرّ فيه سلّم حريق. رأى حقائب كبيرة وحقائب ظهر، ورزماً وصناديق مرمية في الزوايا، وكتباً، وصحفاً ومجلات مكدّسة على الطاولات. وهناك جمجمتان بشريتان أحضرتهما من التيبت، وأقواس وسهام من أقزام أفريقيا، وأباريق جنائزية من صحراء أتاكاما، وخنافس متحجّرة من مصر وألف شيء آخر. جلد أفعى طويل يمتدّ على طول أحد الجدران. إنّه جلد الثعبان الذي ابتلع آلة التصوير في ماليزيا.

لم يكن ألِكسْ قد رأى جدّته قبل ذلك في جوّها الخاص، وعليه أن يعترف الآن وهو يراها محاطة بأشيائها، أنّها أهمّ بكثير. كانت كات كولْدْ في الثانية والستين من عمرها، هزيلة وعضِلة، مجرّد ألياف وجلد دبغته عوامل الطبيعة. كانت عيناها الزرقاوان، اللتان رأتا عوالم كثيرة، حادتين كخنجرين. شعرها الرمادي، الذي تقصّه بنفسها وكيفما اتفق دون أن تنظر إلى مرآة كان ينتصب في كلّ الاتجاهات، كما لو أنّها لم تسرّحه قط. كانت تتباهى بأسنانها الكبيرة والقوية، القادرة على كسر الجوز وفتح الزجاجات، كما أنها فخورة بأنّه لم ينكسر لها عظم ولم تراجع طبيباً قط وأنّها تغلّبت على أشياء كثيرة، بدءاً من هجمات الملاريا وحتى لسعات العقرب. كانت تشرب الفودكا دون خلطها بأي شيء وتدخّن تبغاً أسود في غليون بحار؛ وترتدي صيفاً وشتاءً ذات البنطلون ذا الجيوب الكثيرة وذات الصدرة التي بلا أكمام، التي تحتوي على جيوب في كلّ جانب، وتحمل فيها ما لا غنى عنه كي تستطيع أن تبقى على قيد الحياة في حال الكوارث الطبيعية. في بعض المناسبات، حين كان عليها أن تتأنّق، تخلع الصدرة وتضع طوقاً من أنياب الدب، أهداه لها أحد زعماء الأباتشي.

كانت ليزا، أمّ ألِكسْ ترتعب من كات، لكنّ الأطفال ينتظرون

زيارتها بلهفة. كانت الجدَّة غريبة الأطوار بطلةً لعدد من المغامرات، تأتيهم بالأخبار من مناطق هي من الغرابة بحيث يصعب تصوّرها. كان الأطفال الثلاثة يجمعون حكايات أسفارها، التي تظهر في عددٍ من المجلات والصحف والبطاقات البريدية والصور التي كانت ترسلها إليهم من جهات الأرض الأربع. وعلى الرغم من أنّهم كانوا يخجلون أحياناً من تقديمها لأصدقائهم إلاّ أنهم يشعرون في أعماقهم بالفخر لأنّ أحدَ أفراد أسرتهم يكاد يكون شخصية مشهورة.

بعد نصف ساعة أشعر الحمّامُ ألِكس بالدفء، لفّ نفسه بدثار حمام ولبس جوارب صوفية، وراح يلتهم كرات اللحم المفروم(*) مع البطاطا المطحونة وهي من الأشياء القليلة التي كان يأكلها باستحسان، والوحيدة التي تتقن كات طهيها.

ـ إنّها بقايا الأمس ـ قالت هي، لكنّ ألِكس قدَّر أنّها حضّرتها خصيصاً له. لم يبغِ أن يحكي لها مُغامَرته مع مورغانا، كيلا يبدو أمامها كأبله، لكن عليه أن يعترف لها أنّها سرقته كلّ الذي جاء به معه.

ـ أعتقد أنّك ستقولين لي أن عليَّ تعلّم ألاّ أثق بأحد ـ دمدم الفتى خجلاً.

ـ بالعكس، كنتُ سأقول لك أن تتعلّم الثقة بنفسك. هاأنت ترى يا ألِكساندر، رغم كلّ شيء استطعت أن تصل إلى شقّتي دون مشاكل.

ـ دون مشاكِل؟ أوشكت على الموت متجمِّداً في الطريق. وكانوا سيكتشفون جثّتي بعد ذوبان ثلوج الربيع ـ ردَّ.

ـ رحلة الألف ميل دائماً تبدأ بالعثرات. وجواز سفرك؟ ـ استفسرت كات.

ـ نجا لأنّني كنتُ أحمله في جيبي.

(*) Alondigas من العربية بندق، وهي تُطلق على هذه الكرات لأنّها تشبه هذه الثمرة.

ـ ألصقه بشريط لاصق على صدرك، لأنّك لو أضعته ستقع في ورطة كبيرة.

ـ أكثر ما آسف عليه هو الناي ـ علّق ألِكس.

ـ سيكون عليَّ أن أعطيك ناي جدّك. كنت أفكّر أن أحتفظ به حتى تبرهن عن موهبة ما، لكنّني أفترضُ أنَّ من الأفضل له أن يكون بين يديك على أن يبقى مرمياً هناك ـ عرضت عليه كات.

بحثت في الرفوف التي تُغطي جدران الشقّة من الأرض وحتى السقف، وسلمته غمداً من الجلد الأسود المغطى بالغبار.

ـ خُذْ يا ألِكساندر. لقد استعمله جدُك أربعين سنة، اعتنِ به.

كان الغمد يحتوي على ناي جوزيف كولْدْ، أشهر عازفي الناي في القرن، كما قال النقاد عنه حين مات. علّقت كات حين قرأت ذلك في الصحافة: « كانٍ حريّ بهم أن يقولوا ذلك في حياته». بقيا مُطلَّقَيْن ثلاثين عاماً، لكنّ جوزيف كولْدْ ترك في وصيّته نصفَ ثروته لزوجته السابقة، بما في ذلك أفضل ناي عنده ويحمله الآن حفيدُه بين يديه. فتح ألِكس علبة الجلد المتآكلة باحترام وداعب الناي: كان رائعاً. أخذه برقّة وحمله إلى شفتيه. وحين نفخ أُفلِتت العلاماتُ منه بجمالية تفاجأ بها هو نفسه. كان صوته مختلفاً جدّاً عن صوت الناي الذي سرقته منه مورغانا.

منحت كات كولْدْ حفيدها وقتاً كي يتفقّد الآلة ويشكرها كثيراً، كما كانت تنتظر؛ وسرعان ما ناولته كتاباً سميكاً مصفرّاً انفصل عنه جلده، «الدليل الصحي للرحالة الفطن». فتحه الفتى كيفما اتفق وقرأ أعراض مرض قاتل يُصيب من يأكل مخَّ أسلافه.

ـ أنا لا آكل أعضاءً بشرية ـ قال.

ـ لا أحد يدري ماذا يضعون في كرات اللحم ـ ردّت جدّته.

راقب ألِكس المذعور بقايا صحنه بعدم ثقة. كان من الضروري

التعامل مع كات بكثير من الحذر. من الخطير أن يكون للمرء أسلاف مثلها.

ـ غداً عليك أن تُلَقَّحَ ضدّ بضع عشرة مرض من الأمراض الاستوائية. دعني أر هذه اليد، لا يمكنك أن تُسافر ومعك التهاب ـ أمرته كات.

فحصته بفجاجة، وقرّرت أن ولدها جون قام بعملٍ جيّد، ثم أفرغت نصف قارورة من المعقّم على الجرح، تحسباً لأي شيء وأعلنت له أنّها غداً ستنتزع غرزات الجرح بنفسها. كان أمراً في غاية السهولة، وباستطاعة أيّ شخص أن يقوم به. ارتعش ألِكس. فبصر جدّته سيئ وتستخدم نظارة مخدوشة الزجاج، اشترتها مستعملة من سوق في غواتيمالا. وبينما كانت تضع له ضماداً جديداً وضّحت له أن مجلّة الإنترناشيونال جيوغرافيك موّلت بعثة إلى قلب الغابة الأمازونية، بين البرازيل وفنزويلا، بحثاً عن مخلوق عملاق، من المحتمل أن يكون كائناً له ملامح بشرية، شوهد في عدّة مناسبات. فقد تمّ العثور على آثار أقدامه الهائلة. من كانوا بقربه يقولون إنّ هذا الحيوان ـ أو هذا الإنسان البدائي ـ أطول من دبّ وله ذراعان طويلتان جدّاً ومغطى بالكامل بالشعر الأسود. وهو يعادل «يتي» هيمالايا في وسط الغابة الأمازونية.

ـ يمكن أن يكون قرداً ـ ارتأى ألِكس.

ـ ألا تعتقد أنَّ أكثر من واحد فكَّر بهذا الاحتمال؟ ـ قاطعته جدّته.

ـ لكن لا يوجد دليل على أنه موجود حقيقةً... ـ غامر ألِكس.

ـ ليس لدينا شهادة ولادة لهذا البهيمة يا ألِكساندر. آه، هناك تفصيل هام: يقولون إنّه يُصدر رائحة نفاذة جدّاً، وإنّ الحيوانات والأشخاص يُغمى عليهم أو يُشلّون بالقرب منه.

ـ إذا كان يُغشى على الناس، فهذا يعني أنّه ما من أحد رآه..

ـ تماماً، لكن من خلال آثاره يعرفون أنّه يسير على قائمتين. ولا يستخدم حذاءً، إذا كان هذا هو سؤالك التالي.

ـ لا يا كات، سؤالي التالي هو ما إذا كان يستخدم قبّعة ـ انفجر الحفيد.

ـ لا أعتقد.

ـ هل هو خطير؟

ـ لا يا ألِكساندر. إنّه في غاية اللطف. لا يسرق، لا يخطف أطفالاً ولا يدمّر الملكيات الخاصّة. فقط يقتل. ويفعل ذلك بشكلٍ نظيف، دون ضجّة، يكسر العظام وينتزع أحشاء ضحاياه بأناقةٍ حقيقية، كمحترف ـ سخرت جدّته.

ـ كم من الناس قتلَ؟ ـ استفسر ألِكس بقلق هو في كلّ مرّة أكبر.

ـ ليس كثيراً، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار فرط عدد السكان في العالم.

ـ كم يا كات!

ـ قتل عدداً من الباحثين عن الذهب، وجُنْدِيِّين، وتاجراً... لانعرف الرقم الدقيق.

ـ هل قتل هنوداً؟ ما عددهم؟ ـ سأل ألِكْس.

ـ في الحقيقة لا نعرف. الهنود فقط يعرفون أن يَعُدّوا حتى الرقم اثنين. ثمّ إن الموت بالنسبة إليهم نسبيّ. إذا اعتقدوا أنّ أحداً سرق روحهم أو سار فوق آثارهم، أو استولى على أحلامهم، فهذا أسوأ من أن يكون الواحد منهم ميتاً؛ بينما إذا مات شخص يمكنه أن يستمرّ حيّاً بروحه.

ـ شيء معقّد ـ قال ألِكس، الذي لم يكن يؤمن بالأرواح.

ـ ومن قال لكَ إنّ الحياة بسيطة؟

وضّحت له كات كولْدْ أنّ البعثة بقيادة أنثروبولوجي مشهور، هو الأستاذ لودفيك لبلانك، الذي قضى سنوات في دراسة آثار المدعو «يتي» أو رجل الثلج الكريه على الحدود بين الصين والتيبت، دون

أن يعثر عليه؛ كما عاش مع قبيلة من هنود(*) الأمازون ويؤكّد أنّهم الأكثر وحشية على سطح الكوكب. عند أول غفلة يأكلون أسراهم. هذه المعلومة لا تريح، أكّدت كات. سيقوم بدور الدليل برازيلي اسمه سيزرْ سانتوس، قضى حياته في تلك المنطقة وهو على علاقة جيّدة مع الهنود. كان الرجل يملك طائرة صغيرة بائسة لكنّها ما تزال في حالة جيّدة، وباستطاعتهم أن يصلوا على متنها حتى أراضي قبائل السكان الأصليين.

ـ درسنا في الثانوية عن منطقة الأمازون في دروس البيئة ـ علّق ألِكس، الذي راحت عيناه تغمضان.

ـ يكفي هذا الدرس، لم تعد بحاجة لأيّ شيء أكثر ـ سدّدت كات. ثمّ أضافت: أعتقد أنّك تعب. تستطيع أن تنام على الأريكة، غداً صباحاً تبدأ بالعمل لحسابي.

ـ وماذا عليّ أن أعمل؟

ـ ما آمركَ به. حالياً آمرك أن تنام.

ـ ليلة سعيدة يا كات... ـ همس ألِكسْ متلوياً بين وسائد الأريكة.

ـ صه ـ دمدمت جدّته. انتظرته حتى نام وغطّته بزوجٍ من البطانيات.

(*) دائماً هم الهنود الحمر، ولكننا لا نستخدم الصفة تفادياً للتكرار.

4

نهر الأمازون

كانت كات وأَلِكساندر كولْدْ يسافران على متن طائرة تجارية تحلق فوق الشمال البرازيلي. شاهدا لساعات وساعات مساحات لا تنتهي من الغابات، وجميعها لها اللون الأخضر الغامق ذاته، تخترقها أنهار تنساب مثل أفاع متلامعة. أكثرها رهبة كان بلون القهوة بالحليب.

«نهر الأمازون هو أعرض وأطول الأنهار على الأرض، أطول بخمس مرات من أيّ نهر آخر. وجدهم رواد الفضاء المسافرون إلى القمر استطاعوا أن يروه كاملاً عن بعد»، قرأ أَلِكس في الدليل السياحي الذي اشترته له جدَّتُه في ريّو دِ جانيرو. لم يكن يقول إنّ هذه المنطقة الشاسعة، آخر جنّة على الأرض، يدمّرها جشع رجال الأعمال والمغامرين، كما كان قد تعلّم في المدرسة. كانوا يشقون طريقاً، جرحاً مفتوحاً في قلب الغابة، يصل المستعمرون عبره ويَخرجون بآلاف الأطنان من الأخشاب والمعادن.

أخبرت كات حفيدها بأنهما سيصعدان عبر نهر نغرو(*) حتى الألتو أورينوكو(**)، وهو مثلث يكاد يكون سبره عصياً، وتتركّز فيه غالبية القبائل. وكان يُعتقد بأن البهيمة جاءت من هناك.

(*) النهر الأسود: وقد حافظنا على الاسم في النص دون ترجمة.

(**) الأورينوكو العالي: وقد حافظنا على الاسم في النص دون ترجمة.

ـ يقول هذا الكتاب إنّ الهنود يعيشون كما في العصر الحجري. لم يخترعوا الدولاب بعد ـ علّق ألِكسْ.

ـ ليسوا بحاجة إليه. لا يفيد في هذه الأرض، ليس عندهم ما ينقلونه، كما أنّهم لا يذهبون مسرعين إلى أيّ مكان ـ ردّت كات كولْدْ، التي لم تكن تحبّ أن يُقاطعوها عندما تكتب. قضت مرحلة طويلة من الرحلة وهي تُسجّل ملاحظات في دفاترها بخطّ دقيق ومتداخل، كأنّه آثار ذباب.

ـ لا يعرفون الكتابةَ ـ أردف ألِكس.

ـ لا شكّ أنهم يملكون ذاكرة جيّدة ـ قالت كات.

ـ لاتوجد مظاهر فنية عندهم، فقط يلونون أجسادهم ويتزيّنون بالريش ـ وضّح ألِكسْ.

ـ لا يهمّهم كثيراً ما يأتي لاحقاً ولا أن يتميّزوا بين الآخرين. ويتوجب على غالبية من يُسَمّون فنانين عندنا أن يتبعوا مِثالهم ـ أجابت الجدّةُ.

كانا في طريقهما إلى ماناوس أكثر مدن منطقة الأمازون اكتظاظاً بالسكان، وقد ازدهرت في أيّام المطاط في أواخر القرن التاسع عشر.

ـ ستتعرّف على أكثر غابات العالم غموضاً يا ألِكساندر. هناك أماكن تظهر فيها الأرواح في وضح النهار ـ وضّحت كاتْ.

ـ طبعاً مثل «رجل الغابة الكريه»، الذي نحن بصدد البحث عنه ـ ابتسم حفيدها ساخراً.

ـ يسمونه البهيمة. قد لا يكون نموذجاً وحيداً، إنما يكون هناك عدّة أفراد، أسرة أو قبيلة من البهائم.

ـ أنت سريعة التصديق بالنسبة لعمرك يا كات ـ علّق الفتى دون أن يستطيع تفادي النبرة الساخرة وهو يرى أنّ جدته تصدق هذه الحكايات.

ـ مع التقدم في العمر يكتسب المرء بعض التواضع يا ألِكساندر. كلّما كبرتُ في العمر كلمّا شعرت بأنني أكثر جهلاً. وحدهم الشبان يملكون تفسيرات لكلّ شيء. في عمرك يمكن للمرء أن يكون متعجرفاً، ولا يهمّ أن يصبح مسخرة ـ ردّت بجفاف.

عندما هبطا من الطائرة شعرا بالطقس على جلديهما مثل منشفة مبللة بالماء الحار. هناك اجتمعا بأعضاء بعثة الإنترناشيونال جيوغرافيك الآخرين. وكان فيها إضافة إلى كات كولْدْ وحفيدِها ألِكساندر، تيموثي بروس، ومصوّر إنكليزي له وجه حصان طويل وأسنان مصفرّة من النيكوتين ومساعده المكسيكي جوِل غونثالِث والأنثروبولوجي الشهير لودفيك لبلانك. كان ألِكسْ يتصوّر لبلانك عالماً مهيباً بلحية بيضاء، لكنه كان بالنتيجة رجلاً صغيراً في الخمسين من عمره، قصيراً ونحيلاً، عصبيّاً، عنده حركة ازدراء أو قسوة دائمة على شفتيه، وله عينا جرذ غائرتان. كان يمضي مقنّعاً بهيئة صائد ضوارٍ على طريقة الأفلام، بدءاً من الأسلحة التي كان يحملها على خصره وحتى جزمته الثقيلة وقبعته النمساوية، المزيّنة بريش صغير ملون. علّقت كات بين أسنانها بأنّه لم يكن ينقص لبلانك إلا نمر ميت يضع قدميه عليه. كان لبلانك قد قضى في شبابه فترة قصيرة في منطقة الأمازون وألف كتاباً كبير الحجم عن الهنود، أحدث أثراً في الأوساط الأكاديمية. الدليل البرازيلي سيزرْ سانتوس، الذي كان عليه أن يذهب في طلبهم إلى ماناوس لم يتمكّن من الوصول، لأنّ طائرته الصغيرة مفكّكة، ولذلك سينتظرهم في سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا حيث سيكون عليهم أن ينتقلوا في باخرة.

تأكّد ألِكسْ من أنّ ماناوس التي تقع عند ملتقى نهري الأمازون ونهر نِغرو، كانت مدينة كبيرة، عالية البنيان، وحركة مرور خانقة، لكنّ جدّته وضّحت له أنّ الطبيعة هناك عصيّة على الترويض، وأنّه في أزمنة الفيضانات تظهر التماسيح والأفاعي في فناءات الدور وفي فتحات المصاعد. كانت أيضاً مدينة تجار المهربات حيث

القوانين ضعيفة وتُكسر بسهولة: مخدرات، ماس، ذهب، أخشاب ثمينة، وأسلحة. ولم يكن قد مضى أسبوعان على اكتشافهم لباخرة محمّلة بالأسماك، محشوة جميعها بالكوكائين.

بالنسبة للفتى الأمريكي الذي لم يخرج من بلده إلا للتعرف على إيطاليا، أرض أسلافِ أمِّهِ، فاجأته رؤيته للتناقض بين ثراء البعض وفقر البعض الآخر المدقع، المتداخل بعضه في بعض. الفلاحون الذين لا أرض عندهم والعمال الذين لا عمل لديهم يصلون أفواجاً بحثاً عن آفاقٍ جديدة، لكن كثيرين منهم ينتهون إلى العيش في أكواخ، بلا موارد ولا أمل. كانوا في ذلك اليوم يحتفلون بأحد الأعياد والمدينة سعيدة كما لو أنّها في كرنفال: فرق موسيقية تمرّ في الشوارع، والناس يرقصون ويشربون، وكثير منهم ارتدى أزياء تنكرية. نزلوا في فندق حديث، لكنّهم لم يستطيعوا النوم بسبب الضجيج والمفرقعات والشهب النارية. أصبح الأستاذ لبلانك في اليوم التالي سيّئ المزاج جدّاً بسبب الليلة السيئة، وطالب بالمغادرة بأسرع وقت ممكن، لأنه لا يريد أن يمضي دقيقة واحدة أكثر من الضروري في تلك المدينة المتهتكة كما وصفها.

ركبت مجموعة الإنترناشينوال جيوغرافيك نهر نِغرو الذي كان بهذا اللون نظراً للرواسب التي تجرفها مياهه، لتتوجّه إلى سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا، القرية القائمة وسط منطقة السكان الأصليين. كان المركب كبيراً إلى حدّ كاف، له محرّك قديم، صاخب ينبعث منه الدخان وسقف بلاستيكي مرتجل للحماية من الشمس والمطر، الذي يهطل ساخناً مثل مياه عدّة الدوش مراتٍ في اليوم. كان المركب يمضي مكتظّاً بالناس والأحمال والأكياس، وأقراط الموز وبعض الحيوانات المنزلية في أقفاص أو مربوطة ببساطة من سيقانها. وكان لديهم بعض المقصورات والمقاعد الطويلة ليجلسوا عليها وسلسلة من الأسرّة المعلقة إلى الدعامات، بعضها فوق بعض.

كان الطاقم وغالبية المسافرين مستوطنين (كابوكلو)(*)، كما

(*) cabolco تُطلق على المستوطنين الأوروبيين، وعلى الخلاسيّين من أمّ هندية وأب أوروبيّ أو العكس.

يُسمّى أهل الأمازون، خليط من عدّة أعراق: الأبيض والهنديّ والأسود. كما كان يسافر على متنها بعض الجنود، وزوج من الشبان الأمريكيين ـ المبشرين المورمونيين ـ وطبيبة فنزويلية، أمَيْرة تورِّس، التي كانت تبغي تلقيح الهنود. كانت خلاسية جميلة تقارب الخامسة والثلاثين من عمرها، سوداء الشعر، عنبرية البشرة، لها عينا قطة خضراوان ولوزيتان. كانت تتحرّك برشاقة، كأنّها ترقص على إيقاع لحن سرّي؛ والرجالُ يُلاحقونها بنظراتهم، لكنّها تبدو كما لو أنّها لا تنتبه للانطباع الذي يُخلّفه جمالها.

ـ علينا أن نكون متأهبين جيّداً ـ قال لبلانك وهو يشير إلى أسلحته. كان يتكلّم بشكلٍ عامّ، لكنّه كان واضحاً أنّه يتوجّه إلى الدكتورة تورِّس ـ فالعثور على البهيمة هو الأقل شأناً، الأسوأ هم الهنود. إنّهم محاربون متوحشون، قساة وغدّارون. تماماً كما أصفهم في كتابي، يقتلون كي يجرِّبوا شجاعتهم وكلّما قتلوا أكثر كلّما كانت المكانة التي يشغلونها في سلّم القبيلة أكبر.

ـ هل تستطيع أن توضّح لنا هذا يا أستاذ ـ سألت كات كولْدْ، دون أن تخفّف من نبرة سخريتها.

ـ شيء بسيط للغاية يا سيّدة... ماذا قلتِ لي أنّك تُدعين؟

ـ كات كولْدْ ـ وضّحت هي للمرّة الثالثة أو الرابعة؛ ظاهرياً كانت ذاكرة الأستاذ لبلانك سيّئة بالنسبة للأسماء المؤنثة.

ـ أكرِّر: بسيط للغاية. إنّها مسألة منافسة قاتلة موجودة في الطبيعة. الرجال الأكثر عنفاً يسيطرون في المجتمعات البدائية. أظنّ أنّك سمعت مصطلح «الفحل ألفا». فبين الذئاب، مثلاً، الذئب الأكثر شراسة هو الذي يتحكّم بالبقية ويبقي لنفسه أفضل الإناث. الشيء ذاته بين البشر: أكثر الرجال عنفاً يحصلون على نساء أكثر وينقلون جيناتهم إلى عدد أكبر من الأولاد. وعلى الآخرين أن يقتنعوا بما يفيض عنهم، هل فهمت؟ إنّه البقاء للأقوى ـ وضّح لبلانك.

ـ هل تريد أن تقول إنّ الطبيعي هو الوحشية؟

ـ بالضبط. والرحمة اختراع حديث. حضارتنا تحمي الضعفاء

والفقراء والمرضى. من الناحية الجينية هذا خطأ مرعب. لذلك يتفسّخ الجنس البشري وينحط.

ـ وماذا ستفعل أنت بالضعفاء في المجتمع يا أستاذ؟ ـ سألت هي.

ـ ما تفعله الطبيعة: أتركهم ينفقون. بهذا المعنى الهنود أكثر حكمةً منّا ـ ردّ لبلانك.

ـ والمرأة؟ ـ قاطعته كات كولْدْ.

ـ يؤسفني أنّ أقول إنه لا مكانٌ للنساء في المجتمعات البدائية. إنّهنّ مجرّد غنائم حرب.

تبادلت الدكتورة تورّس وكات كولْدْ نظرة وابتسمتا مرحتين.

الجزء الأول من الرحلة عبر نهر نِغرو كان أقرب إلى التمرّن على الصبر. كانوا يتقدّمون بسرعة سلحفاة وما أن تغيب الشمس حتى يتوقّفوا، كي يتجنبوا الارتطام بالجذوع الضخمة التي يجرفها التيار. كان الحرّ شديداً، لكنّ الجوّ يبرد عند حلول الليل وعليهم أن يتغطّوا بالبطانيات كي يناموا. وحين يظهر النهر نظيفاً وهادئاً يستغلون المناسبة كي يصطادوا السمك ويسبحوا برهة. عبروا في اليومين الأوّلين بمراكب من مختلف الأنواع، بدءاً من الزوارق التي تعمل على المحرّك والبيوت الطافية حتى قوارب الجذوع المفرّغة، لكنّهم أمسوا بعد ذلك وحيدين في رحاب ذلك المشهد. كان ذلك كوكب من ماء: فالحياة تجري إبحاراً بطيئاً، على إيقاع النهر والمدّ والأمطار والفيضانات. ماء، ماء في كلّ مكان. مئات العائلات تولد وتموت في مراكبها، دون أن يقضوا ليلة واحدة على اليابسة؛ بينما يعيش آخرون في بيوت فوق دعائم على ضفّة النهر. كان النقلُ يتمّ عبر النهر والطريقة الوحيدة لإرسال أو تلقي الرسائل تتمّ بالراديو. بدا للفتى الأمريكي استحالة أن يستطيع المرء العيش دون هاتف. كان هناك محطّة إذاعة في ماناوس تنقل الرسائل الشخصيةَ دون

انقطاع، بهذا الشكل يطلع الناس على الأخبار وتجارتهم وأحوالِ أسرهم. في أعلى النهر نادراً ما يتداولون النقود، فالاقتصاد تبادليّ، يبادلون السمك بالسكّر أو البنزين بالدجاج، أو أية خدمات أخرى مقابل صندوق من البيرة.

كانت الغابة تنهض متوعِّدةً على كلا الضفتين، وأوامر القبطان واضحة: عدم الابتعاد لأي سبب كان، لأنّ المرء يفقد في داخل الغابة الإحساس بالجهات. لقد عُرف أجانب، ماتوا يائسين على بعد أمتار قليلة من الضفة ولم يتمّ العثور عليهم. عند الفجر تأتي دلافين وردية تقفز في الماء ومئات الطيور تعبر الهواء. كما رأوا أُطُماً وثدييات مائية كبيرة، أنثاها هي أصل أسطورة عرائس البحر. وفي الليل كانت تظهر بقع ملوّنة: إنّها عيون التماسيح تتجسّس في الظلمة. عَلّمَ أحد المستوطنين (الكابوكلو) ألِكس كيف يُقدّر حجم الحيوان من خلال البعد بين عينيه. حين يتعلّق الأمر بحيوان صغير، يُبهره المستوطِن بالمصباح ويقفز بعدها إلى الماء ويمسك فكّيه بيد وذيله بأخرى. وكان يتفاداه إذا كان الفاصل بين العينين كبيراً، كما يتفادى الوباء.

كان الوقتُ يجري بطيئاً والساعات تتجرجر أبديّةً. ومع ذلك فإنّ ألِكس لم يكن يضجرُ؛ فهو يجلس في قيدوم المركب ليراقبَ الطبيعةَ، يقرأ ويعزفَ على ناي جدِّه. فتبدو الغابة كأنّ الحياة انبعثت فيها لتردّ على صوت الآلة، حتى صخب بحّارة وركاب السفينة يتوقّف كي يُصغوا إليه؛ تلك كانت المناسبات الوحيدة التي توليه فيها كات كولْدْ اهتمامها. كانت الكاتبة قليلة الكلام، تمضي النهار في القراءة والكتابة في دفاترها وتتجاهله بشكلٍ عام أو تعامله كأيّ عضوٍ من أعضاء البعثة. كان من غير المجدي اللجوء إليها لطرح مشكلة حياتية محضة، كالطعام، أو الصحة أو الأمن مثلاً. إذ تنظر إليه من أعلاه إلى أسفله بازدراء واضح وتجيبه بأنّ هناك نوعين من المشاكل، المشاكل التي تُحل ذاتياً والأخرى التي لا حلّ لها، لذلك عليه ألاّ يزعجها بالتوافه. من حسن الحظّ أنَّ يده شُفيت بسرعة، وإلا لكانت قادرة على أن تحلّ المشكلة مقترحةً بترها. فهي امرأة

الإجراءات القصوى. كانت قد أعارته خرائط وكتباً عن الأمازون، كي يبحث بنفسه عن المعلومة التي تهمّه. وإذا ما علّق ألِكسْ على قراءاته عن الهنود أو طرح عليها نظرياته حول البهيمة، ردّت عليه دون أن ترفع نظرها عن الصفحة التي أمامها: «لا تُضع أبداً فرصة سانحة تغلق فيها فمك يا ألِكس».

كلّ ما في تلك الرحلة كان مختلفاً تماماً عن العالم الذي نشأ فيه الفتى، الذي يشعر بأنّه زائر من كواكب أخرى. لم يعد يتمتّع بوسائل الراحة التي كان يتمتع بها دون تفكير، مثل السرير والحمّام وماء الصنبور والكهرباء. تفرّغ لالتقاط الصور بآلة تصوير جدّته، كي يأخذ معه أدلّته عند عودته إلى كاليفورنيا. لن يصدّق أصدقاؤه أبداً أنه أمسك بيديه تمساحاً طوله متر تقريباً!

مشكلته الأكثر خطورة كانت في الغذاء. فقد كان دائماً حسّاساً جدّاً بالنسبة للطعام، وهاهم الآن يقدّمون إليه أشياء لا يعرف حتّى أن يلفظ اسمها. الشيء الوحيد الذي كان باستطاعته أن يُحدّد ماهيته على ظهر الباخرة هو الفاصولياء المعلّبة، واللحم المجفف المالح والقهوة، ولا شيء من ذلك يشتهيه. اصطاد البحارة بالرصاص زوجاً من القردة، وحين توقّف الزورق في تلك الليلة شووهما. كان لهما مظهر شبيه بالبشر بحيث أنّه شعر بالمرض حين رآهما. بدَوَا طفلين محروقين. اصطادوا في اليوم التالي بيراكورو وهي سمكة هائلة، كان لحمها بالنتيجة لذيذاً بالنسبة للجميع باستثنائه هو، لأنّه رفض أن يتذوقه. كان قد قرّر وهو في الثالثة من عمره بألّا يأكل السمك. وأمّه التي تعبت من الصراع من أجل إجباره على أكله أذعنت منذ ذلك الوقت وصارت تقدّم له الأطعمةَ التي يُحبها. ولم تكن كثيرةً. هذا الحدّ جعله يبقى جائعاً طوال الرحلة. لم يكن عنده غير الموز، وعلبة حليب مكثف وعدّة علب بسكويت. ولم يكن يبدو أنّ جوعه يشغل جدّته أو الآخرين. فلا أحد يوليه اهتماماً.

كان مطر غزير وقصير يهطل عدّة مرات في اليوم؛ فاضطر للاعتياد على الرطوبة الدائمة وعلى الثياب التي لا تجفّ تماماً أبداً. وعند المغيب تنقضّ عليهم سحائب البعوض. والأجانب يحمون

أنفسهم بأن يتبللوا بمضادات الحشرات، خاصّة لودفيك لبلانك، الذي لم يكن يضيع فرصة واحدة لا يلقي فيها لائحة الأمراض التي تنقلها الحشرات، بدءاً من التيفوس وحتى الملاريا. كان قد ربط وشاحا سميكاً حول القبّعة النمساوية كي يحمي وجهه، ويقضي جزءاً كبيراً من النهار لائذاً تحت الناموسية التي جعلهم يعلقونها له في مؤخرة المركب. بينما بدا المستوطنون محصّنين ضدّ اللسعات.

في اليوم الثالث، وكان صباحاً مشرقاً، توقّف المركبُ بسبب مشكلة في المحرّك. وبينما كان القبطان يُحاول إصلاح الخلل، خلد بقية الناس للراحة تحت السقف. كان الحرُّ مفرطاً لا يسمح بالحركة، لكنّ أَلِكسْ قرَّرَ بأن المكان مناسب كي يترطّب. قفز إلى الماء، الذي بدا منخفضاً ورائقاً مثل طبق من الحساء، وغاص مثل حجر.

ـ وحده الأبله يجرّب العمق بقدميه ـ علّقت جدّته حين أطلّ برأسه على السطح وهو يقذف ماء حتى من أُذنيه.

ابتعد الفتى عن الزورق سباحةً ـ فقد قالوا له إنّ التماسيح تفضّل الضفاف ـ وطفا على ظهره في الماء الدافئ برهةً طويلة فاتحاً ذراعيه وساقيه، ينظر إلى السماء ويفكّر في رواد الفضاء، الذين يعرفون اتساعها. كان من الشعور بالأمان بحيث أنّه تأخر برهة في ردّ فعله حين مرّ به شيء سريع لامس يدَه. ودون أن يملك فكرة عن نوع الخطر الذي يحيق به ـ ربّما لا يقتصر بقاء التماسيح، بعد كلّ حساب، على الضفة فقط ـ بدأ يحرّك ذراعيه بكلّ ما أُعطي من قوّة عائداً إلى المركب، لكنّ صوت جدّته أوقفه مصعوقاً وهي تصيح به ألاّ يتحرّك. أطاعها بحكم العادة، على الرغم من أنّ غريزته كانت تقول له العكس. بقي طافياً ساكناً قدر استطاعته وعندئذ رأى بجانبه سمكة هائلة. ظنّ أنّها سمكة قرش فتوقّف قلبه، لكنّ السمكة انعطفت انعطافاً قصيراً وعادت بفضول واستقرّت على مقربة كبيرة منه، حتى أنّه استطاع أن يرى ابتسامتها. في هذه المرّة نطّ قلبه واضطرّ لأن يكبح نفسه كيلا يُطلق صرخة فرح. إنّه يسبح مع دلفين!

الدقائق العشرون التي قضاها وهو يلعب معه كما كان يلعب مع كلبه، كانت أسعد لحظات حياته. كان الحيوان الرائع يدور حوله بسرعة كبيرة، يقفز فوقه، يتوقّف على بعد سنتيمترات من وجهه، يراقبه بسيماء لطيفة. يمر أحياناً قريباً منه فيلامس جلده، الذي لم يكن ناعماً كما كان قد تصوّره، بل خشناً. تمنّى ألِكس ألاّ تنقضي تلك اللحظة أبداً، فقد كان على استعداد لأن يبقى في الماء للأبد لكن سرعان ما ضرب الدلفين بذيله مودِّعاً واختفى.

ـ أرأيت يا جدَّتي؟ لن يصدّقني أحد! ـ صرخ عائداً إلى الزورق، منفعلاً بحيث لا يكاد يستطيع الكلام.

ـ هنا البرهان ـ ابتسمت هي مشيرة إلى آلة التصوير. وقد التقط مصوِّرا البعثة بروس وغونثالِث بدورهما صوراً للمشهد.

كلّما توغّلوا في نهر نِغرو أكثر كلّما ازداد اكتظاظ النباتات وصار الهواءُ أكثرَ كثافة وفوحاناً، والوقتُ أبطأَ، والمسافاتُ عصية على التقدير. كانوا يتقدّمون عبر المنطقة المذهلة، كما لو أنّهم في حلم. وبين الفينة والفينة يفرغ المركب، والمسافرون يهبطون مع رزمهم وحيواناتهم إلى الأكواخ أو الضياع الصغيرة البائسة على الضفتين، أجهزة المذياع الموجودة على متن المركب لم تعد تلتقط الرسائل الشخصيةَ من ماناوس أو تصمّ الآذان بإيقاعاتها الشعبية. كان الرجال يصمتون بينما الطبيعة ترتعش على أنغام جوقة الطيور والقردة. وحده صوت المحرّك كان يشي بالحضور البشري في وحشة الغابة الهائلة. أخيراً حين وصولوا إلى سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا، لم يبق على متن المركب غير طاقم الملاحين ومجموعة الإنترناشيونال جيوغرافيك، والدكتورة أُمَيْرَة تورّس والجنديّين والشابين المورمونيين وقد تمكّنت منهما بعض البكتريات المعوية. وعلى الرغم من المضادات الحيوية التي أعطتها لهما الدكتورة، فقد وصلت حالة المرض عندهما حد انهما لا يكادان يفتحان عيونهما،

ويخلطان بين الفينة والأخرى بين الأدغال الملتهبة وثلوج جبال يوتاه.

ـ سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا هي آخر معقل للحضارة ـ قال قبطان الزورق، حين ظهرت البلدة في أحد منعطفات النهر.

ـ من الآن فصاعداً المنطقة ساحرة يا ألِكساندر ـ نبّهَت كات كولدّ حفيدَها.

ـ أما يزال هناك هنود لم يحتكوا بالحضارة بعد؟ ـ سألها.

ـ يُقدّر أنّ هناك ألفين أو ثلاثة آلاف، لكن في الحقيقة لا أحد يعلم ذلك علم اليقين ـ أجابت الدكتورة أُمَيْرة تورّس.

كانت سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا تنهض مثل غلطةٍ إنسانية وسط الطبيعة الساحقة، التي تهدّد بابتلاعها في كلّ لحظة. وهي مؤلفة من قرابة عشرين بيتاً وعنبر كبير يقوم بدور الفندق وعنبر آخر كمشفى تشرف عليه راهبتان، وزوج من المخازن الصغيرة، وكنيسة كاثوليكية وثُكنة للجيش. كان الجنود يراقبون الحدود وتجارة المهربات بين فنزويلا والبرازيل، كما أن عليهم أن يحموا، حسب القانون، السكان الأصليين من تمادي المستعمرين والمغامرين، لكنّهم عمليّاً لا يفعلون ذلك. راح الغرباء يستولون على المنطقة دون أن يمنعهم أحد، يدفعون بالهنود أكثر فأكثر باتجاه المناطق العصيّة أو يقتلونهم دون عقاب من أحد. كان بانتظارهم في مرفأ سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا رجل طويل، له بروفيل طائر حاد، وملامح رجولية وأسارير مفتوحة، وجلد دبغته عوامل الطبيعة ولبدة شعر داكن مربوطة على شكل ذيل فوق النقرة.

ـ أهلاً بكم. أنا سيزرْ سانتوس وهذه ابنتي ناديا ـ قدّم نفسه.

قدّر ألِكس أنّ الفتاة بعمر أُخته أندريا، أي قرابة اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سنة، كان شعرها مجعداً وأشعث، لوّحته الشمس وعيناها وبشرتها عسلية، ترتدي بنطلوناً وقميصاً قصيرين ونعلاً بلاستيكياً. وتضعُ عدّة شرائط ملونة في معصميها، وزهرة صفراء فوق أذنها وريشة خضراء طويلة تخترق شحمة الأذن الأخرى. فكّر

ألِكسْ أنه لو رأت أندريا هذه الزينات لنسختها على الفور ولو أنّ نيكول أخته الصغرى رأت القرد الصغير الأسود، الذي تحمله الفتاةُ جالساً على كتفها لماتت حسداً.

بينما كانت الدكتورة تورِّس، التي تساعدها راهبتان ذهبتا لاستقبالها، تحمل المبشرَيْن المورمونيَّيْن إلى المشفى الصغير، أشرف سيزرْ سانتوس على تنزيل الرزم العديدة العائدة للبعثة. اعتذر لأنّه لم ينتظرهم في ماناوس، كما كانوا قد اتفقوا. ووضّح أنّ طائرته الصغيرة قد قطعت الأمازونِ كلّه، لكنّها كانت قديمة جدّاً وصارت تسقط قطع من محرّكها في الأسابيع الأخيرة. ونظراً لأنّها على وشك أن تنفجر فقد قرَّرَ أن يوصي على محرِّك آخر، يجب أن يصل هذه الأيّام، وأضاف مبتسماً أنّه لم يكن يستطيع أن يترك ابنته ناديا يتيمةً. حملهم بعدها إلى الفندق، الذي ظهر أنّه بناء خشبيّ فوق دعائم على ضفّة النهر، شبيهٍ ببيوت تلك الضيعة البائسة والقبيحة. علب بيرة تتكدّس في كلّ مكان وعلى طاولة العرض تصطفّ زجاجات المشروبات الروحية. وقد لاحظ ألِكسْ خلال الرحلةِ أن الرجالَ وعلى الرغم من الحرّ يشربون ليترات وليترات من الكحول وعلى امتداد النهار. كان هذا البناء البدائي يُستخدم كقاعدة لعملياتِ الزوار، ومكان إقامة ومطعماً وباراً لهم. خصّصوا لِكات كولْدْ والأستاذ لودفيك لبلانك مَخْدَعَيْن مفصولين عن البقية بملاءات معلّقة إلى حبال. بينما الآخرون ينامون في شباك نومٍ معلّقة محميّة بالناموسيات.

كانت سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا بلدة ناعسة ونائية جدّاً، لا تكاد تظهر على الخريطة. بعض المستوطنين يربون أبقاراً ذات قرون طويلة جدّاً، وآخرون يبحثون عن الذهب من قاع النهر والمطاط من الغابات، وبعض المغامرين ينطلقون إلى الغابة وحيدين بحثاً عن الماس، لكنّ الغالبية تمكثُ بانتظار أن تهبط عليهم فرصة من السماء على شكل معجزة. تلك كانت النشاطات الظاهرة، أمّا السرّية فتكمن في تجارة الطيور النادرة، والمخدرات والأسلحة. مجموعات من

الجنود وبنادقهم على أكتافهم وقمصانهم مبللة بالعرق يلعبون بالورق أو يُدخّنون جالسين في الظل. كان السكان القليلون يتراخون مخبولين وسط الحرّ والضجر. رأى ألِكس عدّة رجالٍ بلا شعر ولا أسنان، شبه عميان، تعلو جلودهم البثور، يومئون ويكلّمون أنفسهم، إنّهم عمّال مناجم خبلهم الزئبق ويموتون ببطء. كانوا يغوصون في عمق النهر ليشفطوا بوساطة مواسير جبّارة الرملَ المشبعَ بذرات الذهب. بعضهم كان يموت خنقاً لأنّ منافسيهم يقصون لهم خراطيم الأوكسجين، أما البقية فيموتون ببطء مسمومين بالزئبق الذي يستخدمونه لفصل الرمل عن الذهب.

بالمقابل كان أطفال الضيعة يلعبون في الوحل سعداء، ترافقهم بعض القرود المنزلية والكلاب الهزيلة. وكان هناك بعض الهنود يرتدون بعض القمصان القصيرة أو البنطلونات القصيرة وآخرون عراة كالأطفال. في البداية لم يجرؤ ألِكس المرتبك على النظر إلى أثداء النساء، لكن سرعان ما اعتاد بصره عليها، وبعد خمس دقائق ما عادت تلفت انتباهه. كان قد مضى على هؤلاء الهنود عدّة سنوات من التواصل مع الحضارة، وفقدوا كثيراً من تقاليدهم وعاداتهم، كما وضّح سيزَرْ سانتوس. كانت ابنة الدليل ناديا تُكلّمهم بلغتهم، وبالمقابل كانوا يُعاملونها كما لو أنّها من القبيلة ذاتها.

إذا كان هؤلاء هم السكان الأصليون الذين يصفهم لبلانك، فليسوا مدهشين جدّاً: كانوا قصيري القامة، أطوال الرجال أقلّ من متر ونصف والأطفال يبدون بشراً مصغّرين. شعر ألِكس لأوّل مرّة بأنّه طويل القامة. كانت بشرتهم برونزية ووجناتهم عالية والرجال يقصون شعرهم على مستوى الأذنين بشكل دائري كأنّه صحن، وهو ما كان يُبرز مظهرهم الآسيوي. فهم ينحدرون من سكان شمال الصين، الذين وصلوا عبر ألاسكا قبل عشرة آلاف أو عشرين ألف سنة. وقد نجوا من الاستعباد خلال مرحلة الاستعمار في القرن السادس عشر، لأنّهم بقوا معزولين. إذ لم يتمكّن الجنود البرتغاليون والإسبان من التغلّب على مستنقعات وبعوض ونباتات وأنهار وشلالات منطقة الأمازون الهائلة.

ما إن استقرّوا في الفندق حتى شرع سيزز سانتوس بتنظيم معدات البعثة ووضع مخطط بقية الرحلة مع الكاتبة كات كولْدْ والمصوّرَين، لأنّ الأستاذ لبلانك قرّر أن يرتاح حتى يبرد الطقس قليلاً. لم يكن يتحمّل الحرّ كثيراً. وفي هذه الأثناء دعت ناديا، ابنةُ الدليل، ألِكسْ للتجوال في المحيط.

ـ لا تغامرا بعد غياب الشمس بالتجوال خارج حدود الضيعة، فهذا خطير جداً. ـ حذّرهما سيزز سانتوس.

متبعاً نصائح لبلانك، الذي كان يتكلّم كخبير بأخطار الغابة، أدخل ألِكسْ بنطلونه في جوربه وجزمته كي يتفادى أن يمتصّ العلقُ دمه. ضحكت ناديا التي كانت تمشي شبه حافية.

ـ ستعتاد على الحشرات والحرّ ـ قالت له. كانت تتكلّم إنكليزية جيّدة لأنّ أمّها كندية ـ غادرت أمّي هذا المكان منذ ثلاث سنوات ـ وضّحت الطفلة.

ـ ولماذا رحلت؟

ـ لم تستطع التأقلم هنا، كانت صحّتها سيئة وساءت أكثر حين بدأت البهيمة تطوف في المكان. كانت تُحسّ برائحتها، وأرادت أن تذهب بعيداً، لم يكن باستطاعتها أن تبقى وحيدة، كانت تصرخ... أخيراً حملتها الدكتورة تورّس في طائرة مروحية. إنّها الآن في كندا.

ـ ألم يذهب أبوكِ معها؟

ـ وماذا سيفعل أبي في كندا؟

ـ ولماذا لم تأخذكِ معها؟ ـ أصرّ ألِكس، الذي لم يسمع قط بأم تهجر أبناءها.

ـ لأنّها في مصحّ. ثمّ إنّني لا أريد أن أبتعد عن أبي.

ـ ألا تخافين من البهيمة؟

ـ كلُّ الناس يخافونها، لكنّها لو جاءت فسيُنبّهني بوروبا في الوقت المناسب ـ ردّت الطفلةُ وهي تُداعب القرد الصغير الأسود الذي لا ينفصل عنها.

أخذت ناديا صديقها الجديد لتعرّفه على البلدة وهذا لم يكد يستغرق معهم نصف ساعة، إذ لم يكن هناك الكثير مما يُرى. فجأةً انفجرت عاصفة برقٍ تقطع السماء بكلّ الاتجاهات وبدأت تمطر بغزارة كبيرة. كان مطراً حارّاً كالحساء، حوّل الشوارع الضيّقة إلى مَوَاحِل يصعد منها البخار. راح الناس يبحثون بعامّةٍ عن ملاذ تحت سقف، لكنّ الأطفال والهنود استمرّوا في أعمالهم غير مبالين على الإطلاق بانهمار المطر. تفهّم ألِكس أنّ جدّته كانت على حقّ حين اقترحت عليه أن يُبدّل بنطلون الجينز بثياب قطنية خفيفة، فهي أكثر رطوبة وأسهل على الجفاف. وكي يتفادى الصغيران المطر دخلا إلى الكنيسة حيث وجدا رجلاً طويلاً قويّ البنية له كتفا حطّاب رهيبين وشعر أبيض، قدّمته ناديا على أنّه الأب بالدومِرو. كان يخلو من الوقار الذي يُنتظر من كاهن: يرتدي سروالاً داخليّاً، عاري الجذع، يتسلق سلّماً ويدهن الجدران بالكلس. وكان هناك زجاجة روم على الأرض.

ـ الأب بالدومِرو يعيش هنا منذ ما قبل غزو النمل ـ قدّمته ناديا.

ـ وصلت حين أنشئت هذه البلدة، منذ أربعين سنة تقريباً، وكنت هنا حين جاء النملُ. اضطُرِرنا لأن نترك كلَّ شيء ونخرج هاربين هبوطاً في النهر. وصل النمل مثل بقعة هائلة داكنة، يتقدّم بلا رحمة ويدمّر كلّ شيءٍ يقع في طريقه ـ قال الراهب.

ـ وماذا حدث عندئذٍ؟ ـ سأل ألِكس، الذي لم يكن باستطاعته أن يتخيّلَ قرية ضحيّة حشرات.

ـ أضرمنا النارَ بالبيوت قبل أن نُغادِرها. فحرفت النار اتجاه النمل، واستطعنا أن نعودَ بعد عدّة شهور. ما من بيت من البيوت التي تراها هنا عمره أكثر من خمس عشرة سنة ـ وضّح.

كان الراهب يملكُ تميمة غريبة، كلباً برمائياً هو، حسب قوله، من مواليد الأمازون، لكنّ جنسه يكاد يكون منقرضاً. يقضي شطراً كبيراً من حياته في النهر، ويستطيع أن يمكث عدّة دقائق ورأسه غاطس داخل دلو فيه ماء. استقبل الزائرَين عن مسافة حذرة، متخوّفاً. كان نباحه مثل صداح الطيور، يبدو معه كأنّه يُغنّي.

ـ خطف الهنودُ الأب بالدومِرو. ماذا سأقول لو كان لي مثل حظّه! ـ هتفت ناديا معجبة.

ـ لم يخطفوني يا صغيرة. ضعتُ في الغابة وهم الذين أنقذوا حياتي. عشتُ معهم عدّة أشهرٍ. إنّهم ناس طيّبون وأحرار، الحريّة بالنسبة إليهم أهمّ من الحياة ذاتها، لا يستطيعون أن يعيشوا دونها. الهندي الأسير هنديّ ميت: ينكمشُ نحو الداخل، يتخلّى عن الطعام والتنفس ويموت ـ حكى الأبُ بالدومِرو.

ـ بعض الروايات تقول إنّهم مسالمون، وأخرى تقول إنهم متوحّشون وعنيفون تماماً ـ قال ألِكس.

ـ ليس الهنود أخطر الرجال الذين رأيتهم في هذه النواحي، بل تجّار الأسلحةِ والمخدرات والماس والمطاط والباحثون عن الذهب، والجنود وتجار الأخشاب الذين يأتون بالأوبئة إلى هذه المنطقة ويستغلونها ـ شدّد الراهب، وأضاف أنَّ الهنودَ بدائيين في الأمور المادية، لكنّهم متطوّرون جدّاً في المجال العقلي فهم مرتبطون بالطبيعة ارتباطَ الابن بأمّه.

ـ احكِ لنا عن البهيمة. هل صحيح أنّك رأيتها بأمّ عينيك، ياأبانا؟ ـ سألت ناديا.

ـ أظنّ أنني رأيتها، لكن الوقت كان ليلاً وعينايا ليستا جيّدتين كما في السابق ـ أجاب الأب بالدومِرو، آخذاً جرعة طويلة من الروم.

ـ ومتى حدث هذا؟ ـ سأل ألِكس مفكّراً بأنّ جدَّته ستشكره على هذه المعلومة.

ـ منذ سنتين...

ـ وماذا رأيت بالضبط؟

ـ رويت هذا مرّات كثيرة: عملاقاً يزيد طوله على ثلاثة أمتار، يتحرَّك ببطء شديد وتصدرُ عنه رائحة مريعة. تجمّدت من الرعب.

ـ ألم يُهاجمك يا أبانا؟

ـ لا. قال شيئاً، ثم استدار نصف دورة واختفى في الغابة.

ـ قال شيئاً؟ أعتقد أنك تريد أن تقول أنّه أصدر صوتاً، كالزمجرة. أليس كذلك؟ ـ ألحّ ألِكس.

ـ لا يا بُنيّ. المخلوق تكلّم بوضوح. لم أفهم كلمة واحدة، لكن لا شكّ في أنّها كانت لغة منطوقة. أغمي عليَّ... حين استيقظت لم أكن واثقاً مما جرى، لكن تلك الرائحة بقيت ملتصقة بثيابي وشعري وجلدي دائماً. وهكذا عرفت أنّني لم أكن أحلم.

5

التشامان

توقّفت العاصفة بالسرعة التي بدأت بها وبدت الليلة صافيةً. عاد ألِكس وناديا إلى الفندق، حيث يجتمع أعضاء البعثة حول سيزَر سانتوس والدكتورة أُمَيْرَة تورِّس ويدرسون خريطة المنطقة ويناقشون تحضيرات السفر. كان معهم الأستاذ لبلانكْ، الذي ارتاح قليلاً من التعب. كان قد طلى نفسه بالمواد المضادة للحشرات من رأسه وحتى قدميه، وتعاقد مع هنديٍّ يُدعى كاراكاوِ كي يهوّي له بورقة موز. طالب لبلانك البعثة بالانطلاق في اليوم التالي إلى الألتو أورينوكو، لأنّه لا يستطيع أن يُضَيّع وقته في تلك القرية التافهة، ولا يملك غير ثلاثة أسابيع كي يقبض على مخلوق الغابة الغريب كما كما قال.

ـ لم يتمكن أحدٌ من ذلك خلال عدّة سنوات يا أُستاذ... ـ أشار سيزر سانتوس.

ـ عليه أن يظهر سريعاً، لأنّ عليّ أن ألقي سلسلة من المحاضرات في أوروبا ـ ردّ هو.

ـ آمل أن تتفهّم البهيمةُ دوافعك ـ قال الدليل، لكنّ يبدو أنّ الأستاذ لم يلتقط السخرية.

كانت كات كولد قد حكت لحفيدها أنّ الأمازون مكان خطير بالنسبة إلى الأنثروبولوجيين، لأنّهم عادة ما يفقدون رشدهم.

يبتدعون نظريات متناقضة ويتشاجرون فيما بينهم بالرصاص والسكاكين. ويستعبدُ بعضُهم القبائل وينتهي إلى الاعتقاد بأنّه إله، وقد اضطروا أن يحملوا واحداً منهم، مربوطاً، بعد أن جُنَّ، ويعيدوه إلى بلده.

ـ أعتقد أنك على دراية بأنّني أشكّل جزءاً من البعثة يا أُستاذ لبلانك ـ قالت الدكتورة أمَيْرَة تورِّسْ، التي كان الأنثروبولوجي ينظر إليها دائماً شزراً، مندهشاً من جمالها الفائق

ـ ليس هناك ما يسرّني أكثر من ذلك يا آنسة، ولكن...

ـ دكتورة تورِّسْ ـ قاطعته الطبيبة.

ـ تستطيعين أن تُناديني لودفيكْ ـ غامر لبلانك بغنج.

ـ نادِني دكتورة تورِّس ـ ردّت هي بجفاف.

ـ لا أستطيع أن أحملك معي، يا دكتورتي* العزيزة، إذ لا يكاد يوجد مكان لنا نحن المتعاقدين مع الإنترناشيونال جيوغرافيك. صحيح أن الميزانية وفيرة، لكنّها ليست مفتوحة ـ ردّ لبلانك.

ـ إذن أنتم أيضاً لن تذهبوا يا أُستاذ. فأنا من تنتمي إلى خدمات الصحة الوطنية. وأنا هنا لحماية الهنود. وما من غريب يستطيع الاحتكاك بهم دون اتخاذ الإجراءات الضرورية. فهم حساسون جدّاً تجاه الأمراض، وخاصّة أمراض البيض ـ قالت الدكتورة.

ـ الزكام العادي قاتل بالنسبة إليهم. هناك قبيلة ماتت بكاملها بالتهاب قصبات، منذ ثلاث سنواتٍ، حين جاء بعض الصحافيين لتصوير فيلم وثائقيّ. كان أحدهم مصاباً بالسعال وأعطى أحد الهنود مجة من سيجارته، فأصاب بالعدوى القبيلة كلّها ـ أضاف سيزرْ سانتوس.

وهنا وصل النقيب أريوستو قائد الثكنة ومعه ماوْرو كاريّاس، أكبر رجل أعمال في المحيط. وضّحت ناديا لِألِكس أنّ كاريّاس

صاحب نفوذ كبير، ويتاجر مع رؤساء وجنرالات عدد من بلدان أمريكا الجنوبية. وأضافت أنّه لم يكن يملك قلباً في جسده، وإنّما يحمله في كيس، وأشارت إلى حقيبة جلديّة يحملها كاريّاس في يده. كان لودفيك لبلانك معجباً من ناحيته بماوْرو كاريّاس، لأنّ البعثة تشكّلت بفضل الاتصالات الدولية لهذا الرجل. وهو من جعل مجّلة إنترناشيونال جيوغرافيك تهتمُ بأسطورة البهيمة.

ـ هذا المخلوق الغريب دبّ الذعر بين الناس الطيّبين في الألتو أورينوكو. لا أحد يريد أن يدخل في المثلث الذي يُعتقد أنّ البهيمة تقطنه ـ قال كاريّاس.

ـ أعرف أنّ هذه المنطقة لم تُسبر ـ قالت كات كولْدْ.

ـ هذا صحيح.

ـ أعتقد أنّها ستكون غنيّة جدّاً بالمعادن والأحجار الكريمة ـ أضافت الكاتبة.

ـ إنّ غنى الأمازون يكمن على الأخص في أرضه وأخشابه. ردّ هو.

ـ وبنباتاته أيضاً ـ تدخّلت الدكتورة أُمَيْرة تورّس ـ نحن لا نعرف ولا حتى عشرة بالمئة من الخلاصات الطبيّة الموجود هنا. ومع اختفاء التشامانات والأطباء الشعبيين من السكان الأصليين نفقد وللأبد هذه المعارف.

ـ أتصوّر أن البهيمة تتدخل أيضاً في تجارتك في هذه النواحي، يا سيّد كاريّاس، تماماً كما تتدخل القبائل ـ تابعت كات كولْدْ، التي حين تهتمّ بشيء لا ينقطع لها كلام.

ـ البهيمة مشكلة بالنسبة للجميع. حتى الجنود يخافونها ـ اعترف ماوْرو كاريّاس.

ـ إذا كانت البهيمةُ موجودة فسأعثر عليها. لم يخلق الإنسان بعد، فكيف الحيوان، الذي يستطيع أن يسخر من لودفيك لبلانك ـ ردّ الأستاذ، الذي عادة ما يشير إلى نفسه بضمير الغائب.

ـ يمكنك أن تعتمد على جنودي يا أستاذ. على عكس ما يؤكّده صديقي الطبيب كاريّاس، فهم رجال بواسل ـ عرض عليه النقيب أريوستو.

ـ تستطيع أن تعتمد على إمكاناتي يا أستاذ لبلانكْ الموقّر. فعندي زوارق تعمل بالمحركات ومجموعة اتصال لاسلكي جيّدة ـ أضاف ماؤرو كاريّاس.

ـ وأن تعتمد عليّ بالنسبة للمشاكل الصحية أو الحوادث التي قد تقع ـ أضافت برقّة الدكتورة أُمَيْرَة تورِّس، وكأنّها لا تتذكّر رفض لبلانك ضمّها إلى البعثة.

ـ كما قلت لك يا آنسة...

ـ دكتورة ـ صحّحت له من جديد.

ـ كما قلت لك يا دكتورة، ميزانية هذه البعثة محدودة، ولا نستطيع أن نحمل معنا سائحين ـ قال لبلانك، مشدّداً على كلامه.

ـ أنا لستُ سائحة. البعثة لا تستطيع أن تتابع طريقها دون طبيب مفوّض ودون اللقاحات الضرورية.

ـ الدكتورة على حقّ. سيوضّح لك النقيب أريوستو القانون ـ تدخّل سيزرْ سانتوس، الذي كان يعرف الدكتورة وبالطبع يشعر بجانبية تجاهها.

ـ إحم، حسناً... صحيح أنّه... ـ دمدم العسكريّ وهو ينظر مرتبكاً إلى ماؤرو كاريّاس.

ـ لن يكون هناك مشكلة في ضمّ أُميْرَة، أنا نفسي سأغطي نفقاتها ـ ابتسم رجل الأعمال واضعاً ذراعه حول كتفي الطبيبة الشابّة.

ـ شكراً يا ماؤرو، لكن ذلك لن يكون ضرورياً، لأنّ نفقاتي ستدفعها الحكومة ـ قالت مبتعدةً دون قسوة.

ـ حسناً، في هذه الحالة، لا حاجة للكلام أكثر. آمل أن نعثر على البهيمة، وإلاّ لا نفع من هذه الرحلة ـ علّق المصوّر تيموثي بروس.

ـ ثقْ بي أيّها الشاب. لديّ خبرة مع هذا النوع من الحيوانات وقد صمّمت بنفسي فخاخاً لا تخطئ بهذا الخصوص. تستطيع أن ترى نماذج فخاخي في بحثي حول رجل ثلج هيمالايا البغيض ـ وضّح الأستاذ بإيماءة رضىً من فمه، بينما كان يشير إلى كاراكاوِ كي يهوّي له بقوّة أكبر.

ـ وهل استطعت الإمساك به؟ ـ سأل ألِكس ببراءة كاذبة، لأنّه يعرف الجواب أكثر من اللازم.

ـ لا وجود له أيّها الشاب. مخلوق هيمالايا المفترض خرافيّ. وربّما كانت هذه البهيمة الشهيرة كذلك.

ـ هناك ناس رأوها ـ علّقت ناديا.

ـ ناس جهلة يا صغيرة ـ قال الأستاذ حاسماً.

ـ الأب بالدومِرو ليس جاهلاً ـ أكّدت ناديا.

ـ ومن يكون هذا؟

ـ مُبشِّر كاثوليكيّ، اختطفه المتوحّشون وهو مجنون منذ ذلك الوقت ـ تدخّل النقيب أريوستو، الذي يتكلّم الإنكليزية بنبرة فنزويلية قويّة. وبما أنّه يبقي دائماً على سيجارته بين أسنانه لم يكن ما يُفهم منه كثيراً.

ـ لم يُختَطف كما أنّه ليس مجنوناً! ـ صاحت ناديا.

ـ هدّئي من روعك يا حلوة ـ ابتسم ماؤرو كاريّاس مداعباً شعر ناديا، التي سرعان ما ابتعدت عن متناول يده.

ـ في الواقع الأب بالدومِرو عالم. يتكلّم عدّداً من لغات الهنود. ويعرف نباتات وحيوانات الأمازون أفضل من أيِّ شخص آخر، وهو يجبّر العظام المكسورة، ويقلع الأضراس وأجرى، في مناسبتين عمليتي ماء أزرق في العين بمبضعٍ صنعه بنفسه ـ أضاف سيزر سانتوس.

ـ نعم، لكنّه لم ينجح في محاربة الرذائل في سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا أو في تنصير الهنود، فها أنتم ترون أنّهم ما يزالون يسيرون عراةً ـ سخر ماؤرو كاريّاس.

ـ أشكّ بأن يكون الهنود بحاجة لأن يُنصَّروا ـ ردَّ سيزر سانتوس.

ووضّح بأنّهم روحانيون جدّاً، يعتقدون بأنّ كلَّ شيء يملك روحا: الأشجار، الحيوانات، الأنهار، والغيوم. فالمادة والروح بالنسبة إليهم غير مفصولتين. وهم لا يفهمون بساطة دين الغرباء، ويقولون إنّه قصّة واحدة مكرَّرة، بينما لديهم قصص كثيرة عن الآلهة والشياطين، وأرواح السماء والأرض. وقد رفض الأب بالدومِرو أن يشرح لهم أنّ المسيح مات على الصليب ليُخلِّص الإنسانية من الخطيئة، لأنّ فكرة التضحية تثير استهجان الهنود وتشوشهم. فهم لا يعترفون بالذنب. كما أنهم لا يفهمون الحاجة للثياب في مثل ذلك الطقس، ولا تكديس الأموال، ماداموا لا يستطيعون أن يحملوا معهم شيئاً إلى العالم الأخر حين يموتون.

ـ من المحزن أنّهم محكومون بالفناء، فهم حلم أيّ أنثروبولوجي، أليس كذلك يا أستاذ لبلانك؟ ـ أشار ماؤرو كاريّاس ساخراً.

ـ صحيح. من حسن الحظ أنّني استطعت أن أكتبَ عنهم قبل أن يهلكوا أمام الخطر. وهم بفضل لودفيك لبلانك سيظهرون في التاريخ ـ ردّ الأستاذ، فاقداً الحسّ تماماً أمام سخرية الآخر.

كان العشاء في ذلك المساء مؤلفاً من قطع من سمك التابير المشوي والفاصولياء وعجّة المنديوكا، ولم يقبل ألِكس أن يذوق أيَّ شيء من هذا، على الرغم من أنّ جوعَ ذئب كان يعتصره.

بينما كانت جدّته تشرب الفودكا وتدخّن الغليون برفقة رجال المجموعة بعد العشاء خرج ألِكس مع ناديا إلى المرفأ. كان القمر يلمع مثل مصباح أصفرَ في السماء، وتحيط بهما ضجّة الغابة كأنّها خلفية موسيقية: صياح طيور، زعيق قردة، نقيق ضفادِع وجداجد. آلاف من الحباحب تعبر سريعة بجانبهما ملامسة وجهيهما. قنصت ناديا واحداً بيدها وعلقته بين خواتم شعرها، حيث بقي يومض مثل ضوء صغير. كانت الفتاة تجلس على رصيف المرفأ وقدماها

تتدليان في ماء النهر الداكن. سألها ألِكس عن البيرانات التي رآها مجفّفة في دكاكين السياح في ماناوس، كأنّها أسماك قرش مصغّرة، طولها شبر ومجهزة بفكين رهيبين وأسنان حادّة كالسكاكين.

ـ البيرانات مفيدة جدّاً، فهي تنظّف المياه من الجثث والأوساخ. يقول والدي إنّها لا تُهاجم إلاّ إذا شمّت رائحة الدم أو كانت جائعة ـ وضّحت.

روت له كيف أنّها رأت في إحدى المناسبات تمساحاً أمريكياً أدماه جغوار، فتجرجر بصعوبة حتى الماء، وكيف دخلت البيرانات في جرحه والتهمته من داخله خلال دقائق تاركةً جلده كما هو.

استنفرت الصغيرة في تلك اللحظة وأشارت إليه بيدها أن يلزم الصمت. بوروبا: القردُ الصغير راح يقفز ويصدر زعيقاً، مضطرباً جداً، لكنّ ناديا هدّأته خلال لحظة هامسة في أذنه. تولّد لدى ألِكس انطباع بأنّ الحيوان كان يفهم تماماً كلمات صاحبته. لم يكن يرى غير ظلال النباتات ومرآة الماء السوداء، لكن من الواضح أنّ شيئاً لفت انتباه ناديا، لأنّها نهضت على قدميها. من بعيد كان يصل صوت واهِنٌ لأحدٍ يرشق أوتار قيثارة في الضيعة. لو أنه التفت لكان باستطاعته أن يرى بعضَ أنوار البيوت خلفه، لكنّهما كانا هناك وحيدين.

أطلقت ناديا صيحة طويلة وحادّة، وقعت في سمع الفتى مثل نعيق بومة تماماً، فردت عليها صيحة أخرى مماثلة أجابتها من الضفّة الأخرى. كرّرت النداء مرّتين وفي كليهما تلقت الجواب ذاته. عندئذٍ أمسكت ألِكس من ذراعه وأشارت إليه أن يتبعها. تذكّر الفتى تحذير سيزر سانتوس بضرورة ملازمة حدود البلدة بعد المغيب، وكذلك القصص التي سمعها عن الأفاعي والحيوانات المفترسة واللصوص والسكارى المسلحين. هذا دون أن يُفكّر بالهنود الشرسين الذين وصفهم لبلانك أو في البهيمة... لكنّه لم يبغ أن يظهر جباناً في عيني الصغيرة فتبعها دون أن ينبس ببنت شفة، قابضاً على مطواة الجيش السويسري مفتوحةً.

خلّفا وراءهما أخر بيوت الضيعة البائسة وتابعا طريقهما بحذر، دون أيّ نور غير نور القمر. كانت الغابة أقل اكتظاظاً مما ظنّ أَلِكس. النباتات مكتظّة على الضفاف، لكنّها تخفّ بعدها ومن الممكن التقدّم فيها دون صعوبة كبيرة. لم يمضيا بعيداً حتى تكرّر نداء البوم. كانا في منطقة جرداء من الغابة، حيث يمكن أن يُرى القمرُ ساطعاً في قبة السماء. توقّفت ناديا وانتظرت متجمّدةً، بوروبا نفسه كان هادئاً كأنّه يعرف ما ينتظرونه. فجأة قفز أَلِكس مفاجَأً: على بعد أقل من ثلاثة أمتار برزت هيئة مباغِتة، صامتة، طالعة من الليل، مثل شبح. شهر الفتى سكينه مستعداً للدفاع، لكن موقف ناديا الرصين جمّد حركته في الهواء.

- أيا - همست الصغيرة بصوت خافت.

- أيا، أَيا... - ردّ صوت بدا لِأَلِكس غير إنساني، جاء مثل صفير ريح.

تقدّمت الهيئةُ خطوةً وأصبحت قريبة جدّاً من ناديا. كانت عينا أَلِكس قد اعتادتا شبَهَ الظلمة واستطاع تحت ضوء القمر أن يرى رجلاً عجوزاً إلى حدّ لا يُصدّق، كأنّه عاش قروناً على الرغم من انتصاب قامته ورشاقة حركاته. كان ضئيلاً جداً وأَلِكس قدّر أنّه أقصر من أخته نيكول، ابنة السنوات التسع. كان يضع وزرةً من ألياف نباتية وبضعَة عشر طوقاً من الأصداف والبذور وأسنان الخنزير البرّي التي تغطّي صدره. جلده جعد مثل جلد فيل ألفيّ، يتهدّلُ على شكل ثنياتٍ فوق هيكله العظمي الهشّ. كان يحمل رمحاً قصيراً وعصاً علّق عليها بعض الأكياس الجلدية وأسطوانة من الكوارتز تصدر صوتاً مثل أجراس طفل المهد. رفعت ناديا يدها إلى شعرها انتزعت الحباحب وقدّمته إليه: قَبِلَهُ العجوزُ ووضعه بين أطواقه. جثت هي على ركبتيها وأشارت إلى أَلِكس أن يفعل مثلها كعلامة احترام، وعلى الفور انحنى الهنديُّ وصار ثلاثتهم على ارتفاعٍ واحد.

قفز بوروبا قفزة واعتلى كتفي العجوز شادّاً إيّاه من أذنيه، فأبعدته صاحبته بضربة من يدها، بينما راح العجوز يضحك من

أعماقه. بدا لألِكس أنه لا يوجد في فمه أيّ سنّ، لكن ونظراً لانعدام الضوء لم يستطع أن يتأكّد. دخل الهنديّ وناديا في حوار طويلٍ بالحركات والأصوات بلغة كانٍ وقع كلماتها عذباً، كالنسيم والماء والعصافير. افترض أنّهما يتكلّمان عنه، لأنّهما كانا يُشيران إليه. وفي لحظة انتصب الرجل وحرّك رمحه القصيرَ منزعجاً جدّاً، لكنّها هدّأته بتوضيحات طويلة. أخيراً نزع العجوز التميمةَ من عنقه، وهي عبارة عن قطعة عظم محفورة وقرّبها من شفتيه ونفخ فيها، كان الصوت هو صداح البومِ السابق ذاته، والذي عرفه ألِكس لأنّ تلك الطيور تكثرُ في ضواحيِ بيته في شمال كاليفورنيا. علّق العجوز الفريدُ التميمة حول عنق ناديا، وضع يديه على كتفيها كنوع من الوداع واختفى على الفور بالصمت الذي جاء به. كان باستطاعة الفتى أن يُقسِم بأنّه لم يَرَهُ يتراجع، وأنّه تبخّر فقط.

ـ كان هذا واليماي ـ همست ناديا في أذنه.

ـ واليماي؟ ـ سأل مندهشاً من ذلك اللقاء الغريب.

ـ هُسْ، لا تقله بصوت عالٍ! عليك ألاّ تلفظ اسم الهنديّ الحقيقيّ أبداً بحضوره. إنّه تابو. أمّا الموتى فلا تسمّيهم أبداً، فهذا أشدّ حرمة، إنّه إهانة رهيبة ـ وضّحت ناديا.

ـ ومن يكون؟

ـ إنّه تشامان، ساحر قديرٌ جدّاً. يتكلّم عبر الأحلام والرؤى. ويستطيع أن يُسافر إلى عالم الأرواح حين يشاء. هو الوحيد الذي يعرف الطريق إلى إلْدورادو؟

ـ إلْدورادو؟ مدينة الذهب التي اخترعها الفاتحون الإسبان؟ إنّها أسطورة غير معقولة! ـ ردّ ألِكسْ.

ـ واليماي كان هناك مرّات كثيرة مع زوجته. فهو دائما معها ـ شدّدت الصبيّة.

ـ لم أرها ـ اعترف ألِكس.

ـ هي روح. ولا يستطيع الجميع أن يروها.

ـ وهل رأيتها أنتِ؟

ـ نعم. إنّها شابّة وجميلة جدّاً.

ـ وماذا قال لك الساحرُ؟ عمَّ تكلّمتما؟ ـ سأل ألِكس.

ـ أعطاني طِلَّسماً. وبه أستطيع أن أكون دائماً في أمان؛ لا أحد، سواء من البشر أو الحيوانات أو الأشباح يستطيع أن يوقع بي أذىً. وهو يفيد أيضا لندائه، يكفي أن انفخ به كي يحضر على الفور. حتى الآن لم يكن باستطاعتي أن أناديه، وكان عليّ أن أنتظر أن يأتي هو. يقول واليماي إنّني سأحتاجه لأنّ هناك خطراً كبيراً، ولأن الراهاكاناريوَا، روح الطائر آكل اللحوم البشرية المهيب، سائبة. وحين تظهر يكون هناك موت ودمار، لكنّ الطلسم سيحميني.

ـ أنت طفلة غريبة جدّاً... ـ تنهّد ألِكس دون أن يصدّق نصفَ ما كانت تقوله له.

ـ يقول واليماي إنّ على الأجانب ألاّ يذهبوا للبحث عن البهيمة. ويقول إنّ عدداً منهم سيموت. لكن علينا أنا وأنت أن نذهب، لأنّنا استُدعينا، ولأنّ روحنا بيضاء.

ـ ومن الذي يستدعينا؟

ـ لا أدري، لكن ما دام واليماي يقول ذلك فهو صحيح.

ـ هل تؤمنين حقّاً بهذه الأشياء يا ناديا؟ هل تؤمنين بالسحرة، وبالطيور آكلة لحوم البشر؟ بإلْدورادو، وبالزوجات الخفيات، وبالبهيمة؟

استدارت الصغيرة دون أن تجيب وراحت تسير باتجاه الضيعة فتبعها عن قرب كيلا يضيع.

6

الخطّة

نام ألكساندر كولد تلك الليلة مرعوباً. كان يشعر بنفسه في العراء، كما لو أنّ الجدران التي تفصله عن الغابة تلاشت وأصبح عرضةً لكلّ أخطار ذلك العالم المجهول. فالفندق المشيد من ألواح خشبية فوق دعائم، وسقفه من الزنك ونوافذه بلا زجاج، لا يكاد يحمي من المطر. كان صخبُ الضفادع والحيوانات الأخرى الخارجي ينضمّ إلى شخير رفاق الغرفة. وانقلبت أرجوحة النوم ورمت به أرضاً مرّتين على وجهه قبل أن يتذكّر طريقةَ استخدامها، ويتخذ وضعية منحرفة ليُحافِظ على توازنه. لم يكن الطقس حارّاً، ومع ذلك كان يتصبّب عرقاً. بقي متيقّظاً برهة طويلة في الظلمة؛ يفكّر، تحت ناموسيته المشبعة بمبيد الحشرات، بالبهيمة، وبالعناكب السامة والعقارب والأفاعي وأخطارٍ أخرى تترصدُهُ في الظلمة. راجع المشهد الغريب الذي شهده بين الهنديّ وناديا. فقد تنبّأ التشامان بأن عدّداً من أعضاء البعثة سوف يموت.

بدا لِألِكس أنَّ من غير المعقول أن تكون حياته قد شهدت هذا الانقلاب المثير خلال أيّامٍ قليلة، وأنه يجد نفسه فجأة في مكان خياليّ، تماماً كما كانت قدْ أعلنت جدَّته، حيث تتنزّهُ فيه الأرواح بين الأحياء. تغيرت الحقيقة ولم يعد يعرف ماذا يُصدِّق. شعر بحنينٍ كبيرٍ إلى بيته وأسرته، بل وإلى كلبه بونتشو. كان وحيداً تماماً، بعيداً جدّاً عن كلّ ما هو معروف. لو كان يستطيع أن يتحقّق على

الأقل كيف هو حال أمّه! لكن الاتصال بالهاتف من هذه الضيعة إلى مشفى في تكساس هو كمن يحاول الاتصال بكوكب المريخ. لم تكن كات رفيقة عظيمة ولا مواسية. فهي كجدّة ليس عندها الكثير مما يتمناه المرء، لا تُتْعِبُ نفسها حتى في الردّ على أسئلته، لأنّها كانت ترى أن الشيء الوحيد الذي يتعلّمه المرء هو ما يتحقّق منه بنفسه؛ وتؤكّد أنّ التجربة هي تماماً ما يَكتَسِبه المرء بعد حاجته إليها.

كان يتقلّبُ في الأرجوحة، لا يستطيع أن ينام، حين بدا له أنّه يسمعُ همسَ أصوات. يمكن أن تكون مجرّد جلبة الغابة، لكنّه قرّر أن يتحقّق من ذلك. اقترب حذراً وحافياً بالسروال الداخلي من الأرجوحة التي تنام فيها ناديا بجانب أبيها على الطرف الآخر من القاعة العامّة. وضع يده على فم الصبية وهمس باسمه في أذنها، محاولاً ألاّ يوقظ الآخرين. فتحت عينيها مذعورة، لكنّها هدأت حين عرفته وهبطت من الأرجوحة رشيقةً مثل قطّ، وأشارت بحزم لبوروبا كي يبقى هادئاً. أطاعها القردُ الصغيرُ على الفور لافّاً نفسه في الأرجوحة؛ قارنه ألِكس بكلبه بونتشو، الذي لم يتمكّن قَطُّ من جعله يفهم حتى أبسط الأوامر. خرجا بحذرٍ، مُتَسَلِّلَين على طول جدار الفندق باتجاه درابزين الشرفة حيث أحسّ ألِكس بالأصوات. اختبَأا في زاوية الباب ملتصقتين بالجدار، ورأيا من هناك النقيب أريوستو وماوْرو كاريّاس يجلسان حول طاولة صغيرة، يُدخِّنان ويشربان ويتكلّمان بصوت خافت. كان وجهاهما مرئيين تماماً على ضوء السيجارتين وحلزون لهب مبيد الحشرات الذي يحترق فوق الطاولة. هنّأ ألِكس نفسه لأنّه نادى ناديا فالرجلان كانا يتحدّثان بالإسبانية.

ـ صرتَ تعرف ما عليك فعله يا أريوستو ـ قال كاريّاس.

ـ لن يكون سهلاً.

ـ يا رجل، لو كان سهلاً ما احتجتُ إليك ولا كان عليّ أن أدفع لك ـ علّق ماوْرو كاريّاس.

ـ لا أحب المصوِّرَين، يمكن أن ندخل في ورطة. أمّا بالنسبة

للكاتبة، فدعني أقُل لك إنّ هذه العجوز تبدو لي داهية جدّاً ـ قال النقيب.

ـ الأنثروبولوجي والكاتبة والمصوّران لا غنى عنهم لخطّتنا، سيخرجون من هنا ويروون ما يناسبنا تماماً، وهذا ما سيزيل عنّا كلّ شكّ. وبذلك نتجنّب أن يرسل الكونغرس بعثة للتحقيق في الأحداث، كما حدث سابقاً. هذه المرّة سيكون هناك مجموعة شاهدة من الإنترناشيونال جيوغرافيك ـ ردّ كاريّاس.

ـ لا أدري لماذا تحمي الحكومة هذه الحفنة من المتوحّشين. إنهم يشغلون آلاف الكيلومترات المربعة التي يجب أن توزّع بين المستوطنين، وهكذا يصِلُ التقدم إلى هذا الجحيم ـ علّق النقيب.

ـ كلّ شيء في أوانه يا أريوستو. في هذه المنطقة يوجد زمرّد وماس. وقبل أن يأتي المستوطنون ويقطعوا الأشجار ويربوا الأبقار سنصبح أنا وأنت غنيين. لا أريد مغامرين في هذه النواحي بعد.

ـ إذاً لن يأتوا. لهذه الغاية وُجِد الجيش يا صديقي كاريّاس، كي يفرض القانون. ترى ألا تجب حماية السكان الأصليين؟ ـ قال النقيبُ أريوستو وضحكا من أعماقهما.

ـ كلّ شيء مرسوم، سيذهب مع البعثة شخصٌ موثوق من قبلي.

ـ من؟

ـ أُفَضِّلُ ألا أذيعَ أسمه الآن. البهيمة هي الذريعة كي يذهب لبلانك الأبله والصحافيون إلى المكان الذي نريده تماماً ويغطوا الخبر. هم سيتصلون بالهنود، هذا ما لا مفرّ منه. لا يمكنهم أن يتوغّلوا في مثلث الألتو أورينوكو للبحث عن البهيمة دون أن يصطدموا بالهنود ـ أشار رجل الأعمال.

ـ تبدو لي خطّتك معقّدة جدّاً. لديّ أناس حصيفون جدّاً، ونستطيع أن نقوم بالعمل دون أن يدري به أحد ـ أكّد النقيب أريوستو، رافعاً الكأس إلى شفتيه.

ـ لا يا رجل! ألم أوضّح لك أنّ علينا أن نكون صبورين؟ ـ ردّ كاريّاس.

ـ اشرح لي الخطّة من جديد ـ طالب أريوستو.

ـ لا تهتمّ، الخطّة سآخذها على عاتقي. خلال ثلاثة أشهر سنكون قد أفرغنا المنطقة.

في هذه اللحظة شعر ألِكسْ بشيءٍ على قدمه، فكبت صرخة: أفعى تنسلّ على جلده العاري. رفعت ناديا إصبعها إلى شفتيها، مشيرة إليه بألاّ يتحرك. نهض كاريّاس وأريوستو منتبهين، وسحبا سلاحهما في آنٍ واحد. أشعل النقيب مصباحه ومسح به المحيط، ماراً على بعد سنتيمترات من المكان الذي يختبئ فيه الصغيران. بلغ رعب ألِكسْ درجة فضّل فيها أن يواجه المسدسين على أن ينفض عنه الأفعى، التي راحت تلتفّ على كاحله، لكنّ يد ناديا أمسكت به من ذراعه فانتبه أنّه أيضاً لا يستطيع أن يُخاطِرَ بحياتها.

ـ من هناك؟ ـ دمدم النقيب، دون أن يرفع صوته كيلا يجذب من كانوا ينامون في الفندق.

صمت.

ـ هيّا بنا، يا أريوستو ـ أمر كاريّاس.

عاد العسكري ومشّط المكان بمصباحه، تراجعا بعدها إلى الدرج المودّي إلى الشارع والسلاح دائماً في أيديهما. مضت دقيقة أو دقيقتان قبل أن يشعر الفتيان أنه صارّ باستطاعتهما أن يتحرّكا دون أن يلفتا الانتباه. عندئذ كان الحنشُ قد التفّ حول ربلة رجله ورأسه صار على مستوى ركبة الفتى والعرق يتصبّب غزيراً من جسده. خلعت ناديا قميصها القصير، لفّت به يدها اليمنى وأمسكت بالأفعى قرب رأسها بحذر شديد. وعلى الفور شعر بأنّ الأفعى تضغط عليه أكثر وتحرّك ذيلها مهتاجة، لكنّ الفتاة قبضت عليها بقوّةٍ وراحت تبعدها دون خشونة عن ساق صديقها الجديد، إلى أن أصبحت مدلاة من يدها. حرّكت يدها مثل طاحونة واستجمعت قوّتها

وقذفت بالأفعى من فوق الدرابزين باتجاه العتمة وعادت بسرعة لترتدي قميصها بأكبر قدرٍ من الهدوء.

ـ هل كانت سامّة؟ ـ سأل الفتى المرتعد خوفاً ما إن استطاع أن يُخرج صوته.

ـ نعم، أظنّ أنها أفعى السوروكوكو(*)، لكنّها لم تكن كبيرة جدّاً. ففمها صغير ولا تستطيع أن تفتح فكّيها كثيراً، تستطيع أن تعضّ إصبعك وليس ساقك ـ ردّت ناديا. ثم شرعت تترجم له حديث كاريّاس وأريوستو.

ـ ما هي خطّة هذين الشريرين؟ ماذا نستطيع أن نفعل ـ سألت ناديا.

ـ لا أدري. الشيء الوحيد الذي يخطر ببالي هو أن أروي ذلك لجدّتي، لكن لا أدري ما إذا كانت ستصدّقني. تقول لي إنّني مصابٌ بالبارانويا، وأرى أعداءً وأخطاراً في كلّ مكان ـ أجاب الفتى.

ـ مؤقّتاً فقط نستطيع أن ننتظر ونراقب يا ألِكس... ـ اقترحت هي.

عاد الفتيان إلى أرجوحتي نومهما. نام ألِكس على الفور واستيقظ مع الفجر على زعيق القرود الذي يصمُّ الآذان. بلغ به الجوعُ حدّاً بحيث أنّه كان باستطاعته أن يأكل معجنات أبيه بشهيّة كبيرة، لكن لم يكن هناك ما يضعه في فمه، واضطُرّ أن ينتظر ساعتين ريثما يجهز رفاقُه للفطور. قدّموا له قهوةً سوداء وبيرة فاترة وحساء تابير(**) الليلة الفائتة البائت. رفض كلّ شيء باشمئزاز. لم ير قطّ تابيراً واحداً، لكنّه تصوّر أنه قد يكون شيئاً

(*) surucuc اسم يُطلق في الأرجنتين على أفعى غير ذات أجراس، عالية السمّية، ويَخافُها الناس كثيراً.

(**) جنسُ حيوان ثديي بحجم الخنزير البرّي من الفصيلة التابيرية، ورتبة مفردات الأصابع.

يشبه جرذاً كبيراً. لكنّه سيفاجأ بعد أيّام قليلة حين يكتشف أنّ المسألة تتعلّق بحيوان يزن أكثر من مئة كيلو غرام، شبيه بالخنزير، وأنّ لحمه مستحسَن جدّاً. استعان بموزة، لكنّها كانت مُرَّة وخلّفت خشونة على لسانه، وقد علم بعد ذلك أنَّ هذا النوع يجب أن يُطبخ. ناديا التي خرجت مع فتيات أخريات باكراً لتستحمّ في النهر، عادت تضع زهرةً طرية خلف أذنٍ، والريشة ذاتها في الأذن الأخرى، بينما بوروبا يحيط عنقها بذراعيه ونصف أناناسة في يدها. كان ألِكس قد قرأ أن الثمرة الوحيدة المأمونة في المناخات الاستوائية هي التي يقشّرها المرء بنفسه، لكنّه قرّر أن خطر التعرّض للتيفوس أفضل من سوء التغذية. التهم الأناناسةَ التي قدّمتها له ممتنّاً.

ظهر سيزرْ سانتوس، الدليلُ، بعد دقائق، وقد اغتسل مثل ابنته، داعياً بقية أعضاء البعثة المتعرقين كي يغطسوا قليلاً في النهر. تبعه الجميع باستثناء الأستاذ لبلانك، الذي أرسل كاراكاوِ ليأتيه بعدّة دِلاء من الماء كي يستحمّ في الشرفة، لأنّ فكرة الاستحمام برفقة المانتارايا لا تشدّه. بعضها كان بحجم سجّادة كبيرة وأذيالها القوّية لا تقطع مثل منشار وحسب، بل وتحقن سمّاً. وقدّر ألِكس أنّ عليه ألاّ يتراجع بعد تجربة أفعى الليلة الفائتة، أمام خطر أن يصطدم بسمكة، مهما ساءت سمعتها. فقفز برأسه إلى الماء.

ـ إذا هاجمتك مانتارايا فهذا يعني أنّ هذه المياه ليست لك ـ كان هذا هو التعليق الوحيد من جدّته التي مضت مع النساء الأخريات للاستحمام في جانبٍ آخر.

ـ المانتارايات هيّابة وتعيش في قاع النهر. وهي بشكل عام تهرب حين تُحسّ بحركة في الماء، ومع ذلك من المناسب أن يمضي المرء جارّاً قدميه كيلا يدوسها ـ أعلمه سيزَر سانتوس.

جاء الحمام بالمُحصّلة لذيذاً أنعشه ونظّفه.

7

الجغوار الأسود

دُعي أعضاءُ البعثة الاستكشافية قبل أن ينطلقوا إلى معسكر ماؤرو كاريّاس. اعتذرت الدكتورة أُمَيْرة تورِّس، قائلة بأنّ عليها أن ترسل الشابَين المُورْمونيَّين(*) إلى ماناوس في مروحية للجيش، لأنّ حالتهما ساءت. كان المعسكر يتألّف من عدّة عرباتٍ مقطورة، نُقِلت بالمروحيات ورتبت دائرياً في منطقة جرداء من الغابة، على بعد عدّة كيلومترات من سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا. كانت منشآته فارهة بالمقارنة مع بيوت القرية البائسة ذات الأسطح الزنكية. فهي مجهّزة بمولّد كهربائي، وهوائي إرسال لاسلكي وألواح للطاقة الشمسية.

وكان كاريّاس يملك مناطق أخرى مسوّرة مثلها في عدّة نقاط استراتيجيّة من الأمازون لمراقبة أعمال تجارته المتعدّدة، بدءاً من استثمار الخشب وحتى مناجم الذهب، لكنَّه كان يعيش بعيداً عن المنطقة. كانوا يقولون إنّه يملك في كاراكاس وريّو دِ جانيرو وميامي قصوراً تليق بأمير، وله في كلّ منها زوجة. كان يتنقّل في طائرته النفاثة أو طائرته الرياضية، كما أنه يستخدم آليات الجيش، التي يضعها تحت تصرّفه بعض أصدقائه الجنرالات. لم يكن يوجد

(*) mormone نسبة إلى المرمونية، وهي طائفة تأسّست في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر، ترتكز إلى الكتاب المُقدّس ونبي مُبتَدع اسمه مُرمون، نادت بتعدّد الزوجات لعدّة عقود.

في سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا مطار تستطيع أن تهبط فيه طائرته النفاثة «الجت»، لذلك كان يستخدم طائرته الرياضية ذات المحرّكين، المدهشة بالمقارنة مع طائرة سيزَر سانتوس، طائر الصفيح المتداعي. وقد لفت انتباه كات كولْدْ أنّ المعسكر محاط بالأسلاك المكهربة ويحرسه رجال مسلحون.

ـ ماذا يمكن أن يملك هذا الرجل هنا ويتطلّب كلّ هذه الحراسة؟ شرحت لحفيدها.

كان ماورو كاريّاس واحداً من المغامرين القليلين الذين أثروا في الأمازون. آلاف الباحثين عن الماس الذين كانوا يتوغلون في الأدغال والأنهار سيراً على الأقدام أو في زوارق(*)، يبحثون عن مناجم الذهب أو مكامن الماس، يشقون طريقهم بالفؤوس بين النباتات، يأكلهم النمل والعلق والبعوض. كثيرون منهم كانوا يموتون بالملاريا، وآخرون مُجندلين بالرصاص أو الجوع أو على يدِ الجنود، فتتفسّخ جثثهم في قبور مجهولة أو تأكلها الحيوانات.

يقولون إنّ كاريّاس بدأ ثروته بالدجاجات التي كان يفلتها في الأدغال، ثمّ يشقّ حوصلتها بضربة سكين كي يجني حبات الذهب التي ابتلعتها الدجاجات المسكينة، لكنّ هذه الشائعة مثلها مثل شائعات كثيرة حول ماضي هذا الرجل، لا بدّ مبالغ بها، لأنّ الذهب لم يكن في الحقيقة مزروعاً مثل الذرة في أرض الأمازون. في جميع الأحوال لم يضطر كاريّاس قط للمخاطرة بصحّته مثل الباحثين عن الماس التعساء، فقد كان له علاقات طيبة وعين مفتوحة على الصفقات التجارية، يعرف كيف يأمرُ وكيف يفرضُ احترامه؛ وما لم يكن يحصل عليه بالحسنى كان يحصل عليه بالقوّة. كثيرون كانوا ينموّن في غيابه أنّه مجرم، لكن أحداً لم يكن ليجرؤ على قول ذلك في وجهه؛ لم يكن من الممكن البرهان على أنّ يديه ملطختان بالدماء. ظاهرياً لم يكن لديه ما ينمّ عن أنّه خطر أو مريب، فهو رجل لطيف،

(*) canoa زورق مصنوع عادة من جذع شجرة مُفرّغ.

أنيق، برونزيّ اللون، له يدان مرعيتان وأسنان ناصعة البياض، ويرتدي ملابس رياضية ناعمة. يتكلّم بصوتٍ رخيم وينظر مباشرة إلى العيون، كأنّه يريد أن يبرهن عن صراحته وصدقه في كلّ جملة يقولها.

استقبل رجلُ الأعمال أعضاءَ بعثة الإنترناشيونال جيوغرافيك في إحدى العربات المقطورة المكيّفة مثل قاعة تتوافرُ فيها كلّ أسباب الراحة غير المتوافرة في البلدة، ترافقه امرأتان شابتان وجذّابتان، تقدّمان المشروبات وتشعلان السجائر، لكنّهما لا تنطقان بكلمة واحدة. ظنَّ ألِكس أنّهما لا تتكلّمان الإنكليزية. قارنهما بمورغانا، الفتاة التي سرقت منه حقيبة الظهر في نيويورك، لأنّ لهما السلوك الوقح ذاته. خجل حين فكّر بمورغانا، وتساءل كيف أمكن أن يكون ساذجاً إلى ذلك الحدّ وتركها تخدعه بتلك الطريقة. كانتا المرأتين الوحيدتين الباديتين للعيان في المعسكر. البقية كانوا رجالاً مسلّحين حتى أسنانهم. قدّم لهم المُضيف غداء لذيذاً من الأجبان واللحوم الباردة والبحريات والفواكه والمثلجات وأشياء أخرى فاخرة جيء بها من كاراكاس. واستطاع الفتى للمرّة الأولى منذ خروجه من بلده أن يأكل على هواه.

ـ يبدو أنّك تعرف هذه المنطقة جيّداً ياسانتوس. منذ متى تعيش هنا؟ ـ سأل ماوْرو كاريّاس الدليلَ.

ـ طوال حياتي. لم يكن باستطاعتي أن أعيش في مكان آخر ـ ردّ الدليل.

ـ قيل لي إنّ زوجتك مرضت هنا. يؤسفني جدّاً... لا أستغرب ذلك، فقليلون هم الأجانب الذين يتحمّلون هذه العزلة وهذا الطقس. وهذه الطفلة، ألا تذهب إلى المدرسة؟ ـ ومدّ كاريّاس يده ليداعب ناديا، لكنّ بوروبا كشَّرَ له عن أسنانه.

ـ ليس عليّ أن أذهب إلى المدرسة. أعرفُ القراءة والكتابة ـ قالت نادية مشدّدة.

ـ بهذا لا تحتاجين للمزيد يا حلوة ـ ابتسم كاريّاس.

ـ ناديا تعرف الطبيعة أيضاً، وتتكلّم الإنكليزية والإسبانية والبرتغالية وعدداً من لغات الهنود ـ أضاف الأبُ.

ـ ما هذا الذي تحملينه في عنقك يا حلوة؟ ـ سأل كاريّاس بنبرته اللطيفة.

ـ اسمي ناديا ـ قالت.

ـ أرِني طوقكِ يا ناديا ـ ابتسم رجل الأعمال، كاشفاً عن أسنانه التامّة.

ـ إنّه سحري، ولا أستطيع أن أخلعه.

ـ هل تريدين بيعه؟ أنا أشتريه منك ـ سخر ماوْرو كاريّاس.

ـ لا! ـ صرخت هي مبتعدةً.

قاطعها سيزر سانتوس كي يعتذر عن فظاظة ابنته. واستغرب كيف أنّ رجلاً بتلك الأهمية يضيع الوقتَ بالمزاح مع طفلة. لم يهتم أحدٌ بناديا من قبل، لكنّها منذ شهور بدأت تلفت الانتباه، وهذا ما لم يكن يعجبه إطلاقاً. علّق ماوْرو كاريّاس بأنّه إذا كانت الصغيرة قد عاشت دائماً في الأمازون فإنّها لن تكون مهيّأة للعيش في المجتمع. أيّ مستقبل ينتظرها؟ وقال إنها تبدو ذكيّة جدّاً وحسنة التربية ويمكن أن تبلغ درجاتٍ عالية. بل وعرض أن يأخذها معه إلى المدينة، حيث يستطيع أن يرسلها إلى المدرسة ويجعل منها آنسة مهذبة، كما يجب أن تكون.

ـ لا أستطيع أن أبتعد عن ابنتي، لكنّني أشكرك في جميع الأحوال ـ ردّ سانتوس.

ـ فكّر بالأمر يا رجل. سأكون كإشبين لها... ـ أضاف رجل الأعمال.

ـ ثمّ إنني أستطيع أن أتكلّم مع الحيوانات ـ قاطعته ناديا. فاستقبلوا كلامها بقهقهة عامّة. الوحيدون الذين لم يضحكوا هم أبوها وألِكس وكات كولْدْ.

ـ إذا كنتِ تستطيعين أن تكلّمي الحيوانات، فمن الممكن أن

تعينيني كمترجمة مع إحدى تمائمي(*). هيّا تعالي معي ـ دعاها رجلُ الأعمال بنبرته المهذبة الناعمة.

تبعوا ماورو كاريّاس إلى فناء دائريّ مشكّل من العربات المقطورة، في وسطه قفص مرتجل مصنوع من العصيّ وشبكِ خمِّ دجاجٍ؛ في داخله يتمشى سنوّر كبير بوضعية الضواري المأسورة الهائجة. كان جغواراً أسود، وواحداً من أجمل النماذج التي شوهدت في تلك النواحي، بجلده اللامع وعينيه المنوّمتين الياقوتيتين الصفراوين. أطلق بوروبا عند رؤيته صيحةً حادّة، وقفز عن كتف ناديا وهرب بكلّ ما أوتي من سرعة تتبعه الطفلة، التي عبثاً راحت تناديه. دُهِش ألِكس فهو لم يرَ حتى تلك اللحظة القرد ينفصل عن صاحبته بإرادته. وعلى الفور صوّب المصوّران آلتي تصويرهما على الحيوان المفترس، كما أخرجت كات كولْدْ آلةَ تصويرها الآلية الصغيرة من حقيبتها. أما الأستاذ لبلانك فبقي على مسافة حذرة.

ـ الجغوار الأسود أكثر الحيوانات مهابة في أمريكا الجنوبية. لا يتراجع أمام شيء، إنّه شجاع ـ قال كاريّاس.

ـ إذا كنتَ معجباً به فلماذا لا تُطلق سراحه؟ فهذا القط المسكين أفضل له أن يكون ميتاً من أن يكون سجيناً ـ أشار سيزَر سانتوس.

ـ أُطلق سراحه؟ يا رجل، ولا بشكلٍ من الأشكال! عندي حديقة حيوان صغيرة في بيتي في ريّو دِ جانيرو، وأنا بانتظار وصول قفص مناسب كي أرسله إلى هناك.

كان ألِكس قد اقترب وكأنّه في غيبوبة، مذهولاً من رؤية هذا القط الهائل. صرخت به جدّته محذّرة، لكنّه لم يسمعها واقترب حتى لامس بيديه الشبك الذي يفصله عن الحيوان. توقّف الجغوار، أطلق زمجرة مريعة ثم ثبّت نظرةً صفراءَ على ألِكس؛ بقي جامِداً مشدودَ العضلات وجلده الزبرجديّ اللون ينبض. نزع الفتى نظارته، التي

(*) mascota شخص أو حيوان أو أيّ شيء يجلب الفأل الحسن.

يستخدمها منذ السابعة من عمره وتركها تسقط على الأرض. اقترب منه حتى استطاع أن يميِّز كلَّ بقعة ذهبية في حدقتي الضاري، ودخلت عيونهما في حوارٍ صامت. اختفى كلّ شيء: وجد نفسه وحيداً أمام الحيوان، وسط سهلٍ فسيح من الذهب، محاطاً ببروج سوداء شاهقة، تحت سماء بيضاءَ تطفو فيها ستّة أقمارٍ، مثل رؤوس الميدوزات. رأى الحيوانَ الضاري يفتح فكَّيْهِ اللذينِ تلمع فيهما أسنانه الكبيرة اللؤلؤية ونطق باسمه: «ألكساندر»، بصوتٍ بشريٍّ كأنه يأتي من أعماق كهف. فيجيب بصوته ذاته، الذي بدا له أيضاً كهفياً: «جغوار». كرَّر الحيوان والفتى ثلاث مرّات هاتينِ الكلمتين، ألِكساندر، جغوار، ألِكساندر، جغوار، ألِكساندر، جغوار، وعندئذٍ صار رمل السهلُ وضّاءً والسماءُ سوداءَ والأقمارُ الستة شرعت تدور في أفلاكها وتنتقل مثل شهب بطيئة.

خلال ذلك كان ماوْرو كاريَّاس قد أصدرَ أمراً فأحضر أحدُ مستخدميه قرداً يجرّه من حبل. حين رأى القردُ الجغوار صدرت عنه ردّة الفعل ذاتها التي صدرت عن بوروبا، فبدأ يزعق ويقفز ويضرب بيديه، لكنّه لم يستطع أنْ يفلت. أخذه كاريّاس من رقبته، وقبل أن يتكهّن أحدٌ بنواياه، فتح باب القفصَ بحركة دقيقةٍ وسريعة وألقى بالحيوان المذعور في داخله.

المصوران اللذات أُخذا على حين غرّة، اضطُرّا أن يقوما بجهدٍ كي يتذكّرا أنّهما يحملان آلتي تصوير في يديهما. بقي لبلانك مذهولاً أمامٍ كلِّ حركة من حركات القرد البائس، الذي كان يتسلّق الشبك بحثاً عن مخرجٍ، ومن الحيوان الضاري الذي يلاحقه بعينيه، متربّصاً، مستعداً للانقضاض. أسلم ألِكس ساقيه للريح دون أن ينتبه إلى ما كان يفعله، وهو يدوس ويحوّل نظارته التي كانت ما تزال على الأرض إلى شظايا. انحنى فوق باب القفص مستعداً لإنقاذ الحيوانين كليهما، القرد من الموت الأكيد والجغوار من الأسر. حين رأتْ كات حفيدَها يفتح القفلَ جرت هي أيضاً، لكن وقبل أن تُدركه، كان اثنان من مستخدمي كاريّاسٍ قد أمسكا بالفتى من ذراعيه وتعاركا معه. كلّ شيء حدث تلقائياً وفي آنٍ واحدٍ بحيث لم يستطع ألِكس أن يتذكّر تسلسل الأحداث. فيما بعد وبضربة من مخالبه جندل

الجغوار القردَ، وبعضّة واحدة من فكيه المرعبين مزّقه، وانتثرَ الدم في كلّ اتجاه. في اللحظة ذاتها أخرج سيزر سانتوس مسدّسه من غمده وأطلق النار على الحيوان الضاري طلقةً دقيقةً أصابته في جبينه. شعر ألِكس بالصدمة، كما لو أن الرصاصة أصابته بين عينيه وكان سيسقط مترنّحا على ظهره عملياً لولا أنّ حارسا كاريّاس أسنداه بأذرعهما.

ـ ماذا فعلت أيّها البائس! ـ صرخ رجل الأعمال، مخرجاً سلاحه أيضاً من غمده وملتفتاً إلى سيزر سانتوس.

أفلت الحارسان ألِكس، الذي فقد توازنه وسقط على الأرض كي يواجها الدليلَ، لكنّهما لم يجرؤا على أن يرفعا أيديهما عليه، لأنّه كان ما يزال شاهراً مسدسه الذي يصدر منه الدخان.

ـ لقد حرّرته ـ ردّ سيزر سانتوس بهدوء مدهش.

جهد ماوْرو كاريّاس حتى تمكن من السيطرة على نفسه. وأدرك أنّه لا يستطيع أن يتبارز معه بالرماية أمام الصحافيين ولبلانك.

ـ هدوء! ـ أمر ماوْرو كاريّاس الحارسين.

ـ قتله! قتله! ـ كرّر لبلانك، محمرّاً من الهيجان. موت القرد ومن بعده موت القطّ أثار ثائرته، صارَ يتصرّف مثل ثمل.

ـ لا تهتمّ يا أُستاذ لبلانك، أستطيع أن أحصل على كلّ الحيوانات التي أُريد. اعذروني، أخاف أن يكون هذا المشهد غير مناسب تماماً لقلوب رقيقة ـ قال كاريّاس.

ساعدت كات كولْدْ حفيدَها على النهوض، ثم أخذت سيزر سانتوس من ذراعه وقادته إلى المخرج، دون أن تفسح الوقت لأن تصبح الحالة أكثر عنفاً. ترك الدليلُ الكاتبةَ تقوده وخرجا يتبعهما ألِكس. في الخارج وجدا ناديا مع بوروبا المذعور ملتفّاً حول خصرها.

حاول ألِكس أن يشرح لناديا ما جرى بينه وبين الجغوار قبل

أن يُدخلَ ماوْرو كاريَّاس القردَ في القفص، لكنّ كلّ شيء كان يختلط في دماغه. كانت تجربة حقيقية حتّى أنه كان باستطاعة الفتى أن يُقسِم أنّه بقي خلال دقائق في عالم آخر، عالم من رملٍ مشعٍّ وستة أقمار تدور في قبة السماء، عالم انصهر فيه هو والجغوار في صوت واحد. ومع أنّ الكلمات لم تُسعِفهُ كي يروي لصديقته ما شعر به، بدا أنّها فهمت دون الحاجة إلى سماع التفاصيل.

ـ عرفك الجغوار، لأنّه طوطمك ـ قالت ـ فجميعنا نملك روح حيوان ترافقنا. إنّها مثل روحنا. ولكن لا يعثر الجميع على حيواناتهم، وحدهم المحاربون العظام والتشامان يعثرون عليها، وأنتَ اكتشفتَهُ دون أن تذهب لتبحث عنه. اسمك جغوار ـ قالت ناديا.

ـ جغوار؟

ـ ألِكساندر هو الاسم الذي أطلقه أبواك عليك، أما جغوار فهو اسمك الحقيقيّ، لكنّ لكي تستخدمه يجب أن تملك طبيعةَ الجغوار.

ـ وكيف هي طبيعته؟ قاسية ودموية؟ ـ سأل ألِكسْ، وهو يفكّر بحلقوم الحيوان الضاري بينما كان يمزّق القرد في قفص كاريَّاس.

ـ الحيوانات ليست قاسية، مثلما هم البشر، فهي لا تقتل إلا دِفاعاً عن النفسِ أو لأنّها جائعة.

ـ وهل لك أنت أيضاً حيوانكِ الطوطمي يا ناديا؟

ـ نعم. لكنّه لم يتكشّف لي بعد، وبالنسبة للمرأة العثور على الحيوان هو أقل أهمية، لأنّنا نستمدّ قوّتَنا من الأرض. ولأننا نحن الطبيعة ـ قالت.

ـ كيف تعرفين كلّ هذا؟ ـ سأل ألِكس، الذي تقلَّصَ شكُّهُ بكلمات صديقته الجديدة.

ـ علمّني ذلك واليماي.

ـ هل التشامان صديقك؟

ـ نعم يا جغوار، لكنّني لم أقل لأحدٍ أنّني أتكلّم مع واليماي، ولا حتى لأبي.

ـ ولماذا؟

ـ لأنَّ واليماي يفضّل الوحدةَ. الرفقة الوحيدة التي يتحمّلها هي روح زوجته. فقط يظهر أحياناً في أحد الشابونات(*) ليشفي من مرضٍ أو يشارك في طقس الموتى، لكنّه لا يظهر أبداً للناهاب(**).

ـ الناهاب؟

ـ الغرباء.

ـ أنت غريبة يا ناديا.

ـ يقول واليماي إنّني لا أنتمي لأيّة جهة، إنّني لست هندية ولا أجنبية، ولست امرأة ولا روحاً.

ـ ما أنتِ إذن؟ ـ سأل جغوار.

ـ أنا، أنا لا أكثر ـ ردّت.

وضّح سيزر سانتوس لأعضاء البعثة أنّهم سيركبون النهر في زوارق بمحرّكات، ويتوغلون في أراضي السكان الأصليين حتى أسفل شلالات نهر الألتو أورينوكو. هناك سينصبون المعسكر، وإذا أمكن فسيزيلون قطعة من الغابة ليرتجلوا فسحة لهبوط الطائرة. وهو سيعود إلى سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا بحثاً عن طائرته الصغيرة، التي ستؤمّن الاتصال السريع بالضيعة. قال إنّ المحرّك الجديد سيكون خلال ذلك قد وصل، ولن تتعدّى المسألة أمر تركيبه. بوجود الطائرة الصغيرة سيستطيعون الذهاب إلى المنطقة العصيّة من الجبال، حيث وحسب شهادة بعض الهنود والمغامرين يمكن أن يكون عرين البهيمة.

(*) shabono اسم القرية أو تجمع أكواخ للسكان الأصليين.

(**) يُطلق هذا الاسم nahab باللغة المحلية على الغرباء والمغامرين. وقد حافظنا عليها كما تُلفظ في لغتها الأصلية.

ـ كيف يصعد ويهبط مخلوق عملاق عبر أرض يُفترض أنّنا نحن لا نستطيع أن نتسلّقها؟

ـ سألت كات كولْدْ.

ـ سنتحقّق من ذلك ـ ردّ سيزر سانتوس.

ـ كيف يتحرّك الهنود هناك دون طائرة صغيرة ـ ألحّت هي.

ـ يعرفون المنطقة. يستطيع الهنود أن يتسلّقوا نخلة سامقة جذعها مليء بالأشواك. كما يستطيعون أن يتسلقوا جدران صخرة الشلالات الملساء مثل مرآة ـ قال الدليل.

قضوا قسماً كبيراً من النهار وهم يُحمّلون الزورقين. كان الأستاذ لبلانك يحمل من الطرود أكثر من المصوِّرَين بما في ذلك احتياطي صناديق الماء المعبّأ، الذي كان يستخدمه حتى في الحلاقة، لأنّه يخاف من المياه الملوثة بالزئبق. لم يُجْدِ نفعاً أنّ سيزر سانتوس كرّر عليه أنهم سيخيّمون في أعلى النهر، بعيداً عن مناجم الذهب. وباقتراح من الدليل استخدم لبلانك كاراكاوِ، الهندي الذي كان يُهوّي له في الليلة الفائتة، كمساعد شخصيّ له، كي يعتني به فيما تبقى من الرحلة. والذي وضّح له أنّه يُعاني من ألم في الظهر ولا يستطيع أن يحمّل أدنى ثقل.

تحمّل ألِكساندر، منذ بداية هذه المغامرة، مسؤوليةَ العناية بأمتعة جدَّته. كان هذا أحد جوانب عمله، الذي ستعطيه مقابله مكافأة صغيرة، تدفعها له عند العودة، ما دام يفعل ذلك بشكلٍ جيّد. كانت كات كولْدْ تُسجّل في دفترها ساعات عمل حفيدها وتجعله يُوقّع على الصفحة، هكذا كانت تضبط الحساب. حكى لها في لحظة صدق كيف أنّه كسّر كلّ شيء في غرفته قبل بدء الرحلة. لم يبد لها ذلك أمراً خطيراً، لأنّها مع الرأي الذي يقول بأنّ ما يحتاجه المرءُ في هذا العالم قليلٌ جداً، لكنّها عرضت عليه مرتّباً، فربّما فكّر بإصلاح ما كسّره. كانت الجدّة تُسافر ومعها ثلاث غيارات من الملابس القطنية وفودكا وتبغ وشامبو وصابون، وطارد حشرات، وناموسية، وبطانية وورق وعلبة أقلام رصاص، كلّ ذلك في

حقيبة من الخيش. وكانت تحمل معها آلة تصوير آلية من أكثر آلات التصوير عادية، بحيث أنّها أثارت قهقهة المصوِّرَين المحترفين تيموثي بروس وجول غونثالِثْ. فتركتهما كات يضحكان دون أن تُعَلِّق. وكان أَلِكس يحمل من الثياب أقلّ من جدّته، إضافة إلى خريطة وزوج من الكتب، وعَلَّقَ إلى زناره مطواة الجيش السويسري والناي والبوصلة. وحين رأى سيزر سانتوس البوصلة وضّح له أنّها لن تُفيده بشيء في الأدغال، حيث لا يستطيع أحدٌ أن يسير بخطٍّ مستقيم.

ـ انسَ البوصلة أيّها الفتى، الأفضل لك أن تتبعني، دون أن أغيب عن بصرك ـ نصحه.

لكنّ أَلِكس كان معجباً بفكرة أنه يستطيع تحديد الشمال أنّى يكون. بالمقابل لم تكن ساعته تفيده في شيء، لأنّ الوقتَ في الأمازون لم يكن كما في بقية بقاع المعمورة، فهو لا يُقاس بالساعات، بل بالصباحات والمدّ والجزر والفصول والأمطار.

الجنود الخمسة الذين قدّمهم النقيب أريوستو، وماتوٌ، الدليلُ الهنديُّ المستخدم من قبل سيزر سانتوس، كانوا مُسَلَّحين. كان ماتُوٌ وكاراكاوٍ قد تبنيا هذين الاسمين للتفاهم مع الغرباء، ووحدهم الأقرباءُ والأصدقاءُ كانوا يستطيعون أن يُنادوهما باسميهما الحقيقيين. وكلاهما كان قد غادر قبيلته في ريعان الصبا، ليتربّيا في مدارس المبشرين، حيث نُصِّرا، لكنّهما حافظا على اتصالهما مع الهنود. لا أحد يستطيع أن يحدّد موقعه في المنطقة مثل ماتُوٌ، الذي لم يلجأ قط إلى خريطة لمعرفة مكانه. كان كاراكاوٍ يُعتبر «ابن مدينة»، لأنّه يُسافر كثيراً إلى ماناوس وكاراكاس، ولأنّه كان مثل الكثيرين من أهل المدن، ذا طبيعة شكّاكة.

أمّا سيزر سانتوس فكان يحمل معه ما لا بدّ منه لإقامة المعسكر: الخيام، الطعام، أدوات المطبخ، قناديل وجهاز راديو يعمل على البطارية، أدوات، شباك لنصب الفِخاخ، فؤوس، سكاكين وبعض الترهات الزجاجية والبلاستيكية ليتبادل الهدايا مع الهنود. وفي ساعة متأخرة ظهرت ابنتُهُ مع قردها الصغير متعلقاً بوركها وتميمة واليماي في رقبتها دون أيّ متاع آخر غير صدريتها

القطنية المربوطة إلى رقبتها، معلنة أنّها جاهزة للإبحار. وقد حذّرت والدها بأنّها لا تُفكّر بالبقاء مع راهبات المستشفى في سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا، كما في المرات السابقة، لأنّ ماوْرو كاريَّاس هناك ولا تعجبها الطريقة التي كان ينظر بها إليها، بل وحاول أن يلمسها. كانت تخاف من الرجل، الذي «يحمل قلبه في حقيبة». ثارت ثائرة الأستاذ لبلانك. فقبل ذلك كان قد اعترض بشدّة على وجود حفيد كات كولْدْ، لكن وبما أنّه من المحال إعادته إلى الولايات المتحدة اضطّر أن يتسامح معه، أمّا الآن فإنّه ليس مستعداً لأن يسمح ولا لأيّ سبب كان أن تذهب معهم ابنة الدليل.

ـ هذه ليست روضة أطفال، إنّها بعثة علمية رفيعة المستوى، وعيون العالم بأسره مشدودة إلى لودفيك لبلانك ـ تعلّل مهتاجاً.

وبما أنّ أحداً لم يُعره انتباهاً فقد رفض الركوب. فهم بدونه، قال، لن يستطيعوا المغادرة؛ ووحدها شهرة اسمه الهائلة الضمانة عند الإنترناشيونال جيوغرافيك. حاول سيزر سانتوس إقناعه بأنّ ابنته تلازمه دائماً وأنّها لن تزعجهم أبداً، بل على العكس يمكن أن تشكّل مساعدة عظيمة لهم لأنّها تتكلّم عدّةَ لهجات هندية. ومع ذلك بقي لبلانك متشبّثاً برأيه. بعد نصف ساعة تجاوزت الحرارة الأربعين درجة، وراحت الرطوبة تقطر من كل السطوح الملساء، وكانت نفوس رجال البعثة لا تقل حدة عن حرارة الطقس. عندئذ تدخّلت كات كولْدْ.

ـ أنا أيضا يؤلمني ظهري يا أستاذ. وأحتاج إلى مساعِدة شخصية. وقد استخدمت ناديا سانتوس كي تُحمل دفاتري وتُهوّي لي بورقة موز ـ قالت.

انفجر الجميع مقهقهين. وصعدت الصغيرةُ باعتزاز إلى المركب وجلست بجانب الكاتبة. وجلس القرد الصغير في حضنها، حيث راح يُخرج لسانه ويكايد الأستاذ لبلانك، الذي ركب بدوره، وقد احمرّ حنقاً.

8

البعثة

وجدت المجموعة نفسها تُبحر من جديد إلى أعالي النهر. كانوا هذه المرّة ثلاثة عشر بالغاً وطفلين في زوج من الزوارق ذات المحرّك الواحد وكلاهما تعود ملكيته إلى ماورو كاريّاس، الذي وضعهما تحت تصرّف لبلانك.

تحينّ ألِكس الفرصةَ كي يروي لجدّته على انفراد الحوارَ الغريبَ الذي دار بين ماورو كاريّاس والنقيب أريوستو، وترجمته له ناديا. أصغت كات بانتباه ولم تبدِ ما يدلّ على عدم التصديق، مثلما كان حفيدها يخشى؛ بل على العكس بدت مهتمّة جدّاً.

ـ لا يُعجبنني كاريّاس. ما هي خطّته للقضاء على الهنود؟ ـ سألت

ـ لا أدري.

ـ الشيء الوحيد الذي نستطيع فعله الآن هو أن ننتظر ونراقب ـ قرّرت الكاتبة.

ـ الشيء ذاته قالته ناديا.

ـ كان على هذه الطفلة أن تكون حفيدتي يا ألِكساندر.

كانت الرحلة عبر النهر شبيهة بتلك التي قاموا بها من قبل من ماناوس إلى سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا، رغم أنّ المشهد قد تبدّل. لكنّ

الفتى قرّر أن يعمل مثل ناديا، فبدل أن يعارك ضدّ البعوض مبللاً نفسه بمضاد الحشرات، تركه يهاجمه منتصراً على الرغبة بالحكّ. كما خلع جزمته حين تأكّد من أنّها دائماً مبللة وأن العلق يلسعه بها وبدونها. في المرّة الأولى لم ينتبه حتى أشارت جدّته إلى قدميه: كان جورباه مبلّلين بالدم. خلعهما ورأى الحشرات المقرفة العالقة بجلده، منتفخةً بالدم.

ـ لا تؤلِم لأنّها تحقن بمادة مخدّرة قبل أن تمتصّ الدم ـ وضَّح سيزَر سانتوس.

علّمه بعدها كيف ينتزعها بحرقها بسيجارة تجنّباً لبقاء أسنانها عالقة بجلده ولخطر إصابته بالمرض. كانت هذه الطريقة بالنتيجة معقّدة بالنسبة لألِكس، لأنّه لا يُدخِّنُ، لكنِ قليلاً من تبغ غليون جدّته الحامي جاء بالمفعول ذاته. كان التخلّص منها أسهل من العيش مشغولاً بتجنّبها.

منذ البداية تولّد لدى ألِكس انطباع بأن هناك توتراً محسوساً بين الراشدين في البعثة: لا أحد يثقُ بأحد؛ أو يمكنه أن ينفض عنه الإحساس بأنهم يتجسّسون عليه، وأنّ آلاف العيون تراقب كلَّ حركة في الزورقين. فينظر بين فينةٍ وأخرى من فوق كتفه، لكنّ أحداً لم يكن يلحق بهم في النهر.

كان الجنود الخمسة مستوطنين من مواليد المنطقة، أما ماتُوّ، الدليل الذي يستخدمه سيزر سانتوس، فقد كان من السكان الأصليين ويعمل مترجماً مع القبائل. والهنديّ الأخر الخالِص هو كاراكاوِ، مساعد لبلانك. ولم يكن كاراكاوِ، حسب رأي الدكتورة أَمَيْرَة تورِّس، يتصرّف مثل الهنود الآخرين، وربّما لن يستطيع أبداً العودة للعيشِ مع قبيلته.

كلّ شيء عند الهنود يتمّ تقاسمه، الملكيات الوحيدة عندهم هي الأسلحة القليلة أو الأدوات البدائية التي يمكن لكلّ واحدٍ منهم أن يحملها معه. كان لكلّ قبيلة شابونو خاص بها، وهو كوخ كبير مشترك دائري الشكل مسقوف بالقشّ، مفتوح على فناء داخلي.

كانوا يعيشون جميعاً معاً، يتقاسمون كلّ شيء بدءاً من الطعام وحتى تربية الأطفال. ومع ذلك فإنّ الاتصال بالغرباء كان يقضي شيئاً فشيئاً على القبائل؛ فهم لا يصيبونهم بالأمراض الجسدية المعدية فقط، بل وبأخرى روحية. فالهنود ما إن كانوا يجرّبون حربةً (متشيتي) أو سكيناً، أو أية أداة معدنية تقريباً، حتى تتبدّل حياتُهم للأبد. فباستخدام متشيتي واحد كانوا يستطيعون أن يُضاعفوا آلاف المرات إنتاج بساتينهم الصغيرة، التي يزرعون فيها المنيهوت(*) والذرة. وأيّ محاربٍ منهم يملك سكيناً يشعر بأنّه إله. وكان الهنود يعانون من الهوس بالفولاذ معاناة الغرباء من الهوس بالذهب. كاراكاوِ تجاوز مرحلة الحربة وأصبح في مرحلة الأسلحة النارية: لا ينفصل عن مسدسه القديم. وشخص مثله، يُفكّر بنفسه أكثر مما يفكّر بجماعته، لا مكان له في القبيلة. فالفردية تعتبر نوعاً من الجنون، مثلها مثل المسّ بالشيطان.

كان كاراكاوِ رجلاً متجهّماً ومقتضباً، لا يجيب إلا بكلمة أو كلمتين حين يوجّه له أحدٌ سؤالاً لا مناص من الرد عليه، ولم يكن على علاقة جيّدة مع الأجانب ولا مع المستوطنين أو الهنود. وكان يخدم لودفيك لبلانك من غير رغبة، وتظهر الكراهية في عينيه حين يتوجب عليه أن يتوجّه بالكلام إلى الأنثروبولوجي. لم يكن يأكل مع البقيّة، ولا يشرب قطرة كحول واحدة، وينفصل عن المجموعة حين يخيّمون ليلاً. وقد فاجأته ناديا وألِكس وهو يفتّش في أمتعة الدكتورة أميْرة تورّس.

ـ رُتيلاء سامة ـ قال بنوعٍ من التوضيح.

فقرّر ألِكساندر وناديا أن يراقباه.

بقدر ما كانوا يتقدّمون كانت الملاحة تزداد صعوبةً، لأنّ النهر

(*) Mandioca أو manihot كلمة غوارانية تُطلق على شجرة من فصيلة اليتوعيّات تنمو في المناطق الاستوائية الحارّة من القارّة الأمريكية، ويصل طولها إلى مترين أو ثلاثة. يُستخرج النشا من جذورها الغلاظ التي تعدّ من أهم الأغذية.

عادةً ما يضيق ويهبط في تيارات سريعة تُهدِّد بقلب الزورقين. بينما يبدو في أماكن أخرى هادئاً، تطفو على سطحه الحيوانات النافقة، والجذوع المتفسّخة، والغصون التي تعيق التقدم. كان عليهم أن يُطفئوا المحركين ويتابعوا بالتجديف، مستخدمين عصي الخيزران لإبعاد الأنقاض، التي تبينّ في مناسبتين أنّها تماسيح أمريكية كبيرة، يُخلط حين يُنْظَرُ إليها من أعلى بينها وبين الجذوع. وقد وضّح سيزرْ سانتوس أنّه حين ينخفض مستوى الماء تظهر الجغوارات، وحين يرتفع تظهر الأفاعي. رأوا زوجين من السلاحف العملاقة وحنكليساً بطول متر ونصف، كان، حسب رأي سيزرْ سانتوس، يُهاجم فريسته ويُفرّ ِغُ فيها شحنة كهربائية قويّة. كانت النباتات كثيفة وتفرز رائحةَ مادّةٍ عضويةٍ متفسّخة، تتفتّح فيها أحياناً عند هبوط الليل أزهار كبيرة متشابكة بالأشجار، فيعبق الجوُّ برائحةِ الفانيليا والعسل الحلوة. وكانت البلشونات البيضاء المتجمدة من بين العشب الطويل الذي ينمو في كلّ مكان على ضفّة النهر، تراقبهم، وفي كل الأنحاء هناك فراشات بألوانٍ زاهية.

عادة ما كان سيزرْ سانتوس يوقف الزورقين أمام أشجار تتدلّى أغصانها فوق الماء، فيكفي أن يمدّ المرءُ يده إليها ليقطف ثمارها؛ التي لم يرها ألِكس قط ولم يبغِ أن يُجرّبها، بينما راح الآخرون يتذوّقونها باستمتاع. حرف الدليلُ ذات مرّةٍ المركبَ ليقطف نبتة، كانت، حسب قوله، شافية رائعة للجروح. وقد وافقته الدكتورة أميْرَة ونصحت الفتى الأمريكي بأن يفرك بعصيرها ندبة يده، وإن لم تكن في الحقيقة بحاجة لذلك، لأنّها شُفيت جيّداً ولم يبقَ منها تقريباً غير خطّ أحمر، لا يزعجه أبداً.

حكت كات كولْدْ أنَّ كثيرين بحثوا في تلك المنطقة عن مدينة إلْدورادو(*) الأسطورية، التي كانت شوارعها حسب الأسطورة مرصوفة بالذهب والأطفال يلعبون فيها بالأحجار الكريمة. كثيرون

(*) El Dorado وتعني الذهبيّ.

هم المغامرون الذين توغّلوا في الغابة وركبوا نهري الأمازون والأورينوكو دون أن يُدركوا قلب هذه الأراضي المسحورة، حيث العالم ما يزال بريئاً مثل استيقاظ الحياة البشرية على سطح الكوكب. ماتوا أو تراجعوا، بعد أن هزمهم الهنود والبعوض، والضواري، والأمراض الاستوائية، والطقس، وعوائق الأرض.

كانوا قد أصبحوا في الأراضي الفنزويلية، لكن ليس للحدود هناك معنى، فكلّ شيء هو فردوس ما قبل التاريخ ذاته. وعلى خلاف نهرِ نِغرو، كانت مياه هذه الأنهار منعزلة. لم يعبروا بمراكب أخرى، ولم يروا زوارقَ، ولا بيوتاً فوق دعامات ولا أيَّ كائن بشريٍّ. بالمقابل كانت مجموعة نباتات وحيوانات المنطقة رائعة والمصوران كما لو أنهما في عيد، إذ لم يحدث قط أن توافرت لعدستيهما كل هذه الأنواع من الأشجار والنباتات والأزهار والحشرات والطيور والحيوانات. رأوا ببغاوات خضراء وحمراء، والنُحام الأنيق، والطوقان بمنقاره العريض والثقيل، الذي لا يكاد يقوى رأسُهُ الضعيف على حمله. مئات من عصافير الكناري والكوتورّات(*). كثير من هذه الطيور كان مهدداً بالانقراض، لأنَّ التجار يصطادونها بلا رحمة ليبيعوها تهريباً في بلاد أخرى. قرود من مختلف الأنواع، تكاد تكون إنسانية في تعبيراتها ولعبها، تبدو كأنّها تُحييهم من فوق الأشجار. كان هناك أيائل ودببة آكلة نمل، وسناجب، وثدييات أخرى صغيرة. عدد من الببغاوات الزاهية ـ أو الغواكامايات كما يسمونها أيضاً ـ تبعهم لمسافات طويلة. كانت هذه الطيور المتعددة الألوان تحلّق بملاحة لا تُصدّق فوق الزورقين، كما لو أنّه قد أخذها الفضول تجاه هذه المخلوقات الغريبة التي تُسافر على متنهما. رمى عليها لبلانك بمسدّسه، لكنّ سيزرْ سانتوس تمكّن من إلحاق ضربة جافّة على ذراعه، وحرف الطلقة في الوقت المناسب. أرعب صوت الطلقة القرود والطيور الأخرى، فامتلأت السماء بالأجنحة، لكن الببغاوات عادت بعد قليل غير مبالية.

(*) Cotorra نوع من أنواع الببغاوات الصغيرة.

ـ لا تؤكَل يا أُستاذ، لحمها مُرّ. وليس هناك من داع لقتلها ـ عاتب سيزرْ سانتوس الأنثروبولوجي.

ـ أحبّ الريش ـ قال لبلانك، منزعجاً من تدخّل الدليل.

ـ اشترِه من ماناوس ـ قال سيزرْ سانتوس بجفاف.

ـ الغواكامايات ممكنة التدجين. أمّي عندها واحد منها في بوَا بيستا. ويرافقها إلى كلّ مكان، وهو يُحلّق دائماً على ارتفاع مترين من رأسها. وحين تذهب إلى السوق يتبعها إلى الحافلة حتى تنزل منها، ينتظرها على شجرة، مثل كلب مدلل ـ روت الدكتورة أميْرة تورِّس.

تبينّ ألِكس مرّة أخرى أنّ موسيقى نايه كانت تُهيّج القرود والطيور. إذ يبدو بوروبا مشدوداً بشكلٍ خاصّ إليه؛ يعزف فيمكث القرد مصغياً بلا حراكٍ، تعلوه علامات الوقار والفضول، ويكادُ يقفز فوقه أحياناً ويشدّ منه الآلة، مطالباً بالموسيقى. كان ألِكس يُلبّي رغبته مسروراً، لأنّه عثر أخيراً على مستمع مهتم، بعد سنوات من الشجار مع أُختيه من أجل أن تتركاه يعزف بسلام. كان أعضاء البعثة يشعرون بالراحة مع الموسيقى، التي راحت ترافقهم كلّما أصبح المشهد أكثر عدوانية وغموضاً. وكان الفتى يعزف دون جهد وتخرج النغمات تلقائيًا، كما لو أنّ لهذه الآلة الدقيقة ذاكرة وتتذكّر مهارة صاحبها السابق العظيم، جوزيف كولْدْ الشهير.

الإحساس بالملاحقة طغى على الجميع. دون أن يقولوا ذلك، لأنّ ما لا يُذكر يُعتبر غير موجود، كانوا يراقبون الطبيعة من حولهم. وكان الأستاذ لبلانك يقضي نهاره ومنظاره بين يديه يتفحص ضفتي النهر. التوتّر جعله بغيضاً أكثر. والوحيدان اللذان لم يصابا بعدوى العصاب الجماعي هما كات كولْدْ والإنكليزي تيموثي بروس. فقد عملا معاً في مناسبات كثيرة، وجابا نصف العالم من أجل مقالات الرحلات، وحضرا عدّة حروب وثوراتٍ، تسلّقا جبالاً ونزلا إلى

أعماق البحر، فصار ما يؤرقهما قليلاً جداً. ثمّ إنهما كانا يُحبّان أن يتبجّحا باللامبالاة.

ـ ألا يبدو لكِ أنّهم يُراقِبوننا يا كات؟ ـ سألها حفيدها.

ـ نعم.

ـ ألا تخافين؟

ـ هناك عدّة طرق لتخطّي الخوف يا ألِكساندر. وما من واحدة تؤدّي وظيفتها ـ ردّت.

ما إن لفظت هذه الكلمات حتى سقط عند أقدامهما جنديٌّ يُسافر معهم في مركبهم دون أي صوت. انحنت كات كولْدْ فوقه، دون أن تُدرك في البداية ما الذي حدث، إلى أن رأت نوعاً من الشوكة الطويلة مغروزة في صدر الرجل. أدركت أنّه مات على الفور: فالشوكة نفذت نظيفة بين أضلاعه واخترقت قلبه. نبَّه ألِكس وكات أفراد طاقم البحارة الآخرين، الذين لم ينتبهوا إلى ما حدث، فقد تمّ الهجوم بصمت كبير. بعد لحظات راحت عشرات الأسلحة النارية تُطلق النار على الأدغال، وحين تبدّد صوتُ الدويّ والبارود وزعيق الطيور التي غطّت السماءَ، تبيّنوا أنّه ما من شيء آخر تحرّك في الغابة. فالذين رموا السهم مكثوا مختبئين، صامتين لا يأتون بحركة. وبشدّة واحدة انتزعه سيزرْ سانتوس من الجثّة، فوجدوا أنّه بطول قدم تقريباً، وكان قويّاً ومرناً مثل الفولاذ.

أمر الدليل بمتابعة الطريق بأقصى سرعة، لأنّ النهر في تلك المنطقة ضيق والزورقين هدف سهل لسهام المُهاجمين. لم يتوقّفوا إلا بعد ساعتين حين قدّرَ أنهم أصبحوا بمنجاة. عندئذٍ استطاعوا أن يفحصوا السهم المزين بعلامات غريبة حمراء وسوداء لم يتمكن أحد من فكّ رموزها. كاراكاوِ وماتُوٌ أكّدا أنّهما لم يرياها من قبل، فهي لا تنتمي إلى قبيلتيهما ولا إلى أيّة قبيلةٍ أخرى معروفة، لكنّهما أكّدا أنّ جميع هنود المنطقة يستعملون السبطانات (السرباتانا). وضّحت الدكتورة أُمَيْرَةْ تورّسْ أنّه حتى ولو لم يكن السهم قد أصاب القلب

بتلك الدقّة المدهشة فإنّه كان سيقتل الرجلَ في جميع الأحوال بعد دقائق قليلة، لكن بطريقة أكثر إيلاماً، لأنّ رأسه مشبع بالكورارِ، وهو سمّ قاتل، يستخدمه الهنود في الصيد والحرب، ولا يُعرف له أي ترياق.

ـ هذا غير مقبول! كان بإمكان هذا السهم أن يُصيبني أنا! ـ احتجّ لبلانك.

ـ صحيح ـ اعترف سيزَر سانتوس.

ـ هذه خطيئتك أنت! ـ أضاف الأستاذ.

ـ خطيئتي؟ ـ كرّر سيزرْ سانتوس، مرتبكاً من الانعطاف غير المسبوق الذي اتخذته المسألة.

ـ أنت الدليل! وأنت مسؤول عن أمننا، ولذلك نحن ندفع لك!

ـ نحن لسنا في رحلة سياحية تماماً، يا أستاذ ـ ردّ سيزرْ سانتوس.

ـ سندور نصف دورة ونعود على الفور، ألا تنتبه إلى الخسارة التي ستصيب عالم العلوم إذ ما حدث شيء للودفيك لبلانك؟ ـ صاح الأستاذ.

صمت أعضاء البعثة مندهشين. لا أحد عرف ما يقول، حتى تدخّلت كات كولْدْ.

ـ تعاقدوا معي كي اكتب لهم مقالاً عن البهيمة، وأفكّر أن أقوم بذلك بسهام مسمومة أو بدونها. وإذا كنت ترغب بالعودة، تستطيع أن تفعل ذلك مشياً أو سباحةً، كما تُفضّل. نحن سنتابع حسب ما هو مخطّط ـ قالت.

ـ عجوز شمطاء! كيف تتجرئين على...! ـ بدأ الأستاذ يزعق.

ـ لا تُسئ الأدب معي أيّها الرجل الصغير ـ قاطعته الكاتبة بهدوء، وقد أمسكت بقميصه بقوّة وجمّدته بتعبير حدقتيها الزرقاوين المهيبتين.

ظنّ ألِكس أنّ الأنثروبولوجي سوف يصفع جدّته فتقدّم كي يصدّه، لكن لم يكن هناك حاجة فقد كان لنظرة كات من القوّة ما هدّأ خواطر لبلانك الذي لا يُثار، كما لو بسحر ساحر.

ـ ماذا سنفعل بجثمان هذا الرجل المسكين؟ ـ سألت الدكتورة وهي تشير إلى الجثّة.

ـ لا نستطيع أن نحمله معنا في هذا الطقس يا أُميرة، فأنت تعلمين أن التفسّخ سريع جدّاً. أعتقد أنّ علينا أن نلقي به إلى النهر... ـ اقترح سيزَرْ سانتوس.

ـ سوف تغضب روحُه وتُلاحِقنا كي يقتلنا ـ تدخّل ماتوِّ، الدليلُ الهندي مذعوراً.

ـ إذن سنفعل ما يفعله الهنود حين يريدون أن يؤجّلوا الحرق، سنتركه مكشوفاً كي تستفيد الطيور والحيوانات من بقاياه. فمأتم مناسب يستغرق عدّة أيّام. ثمّ إنّ هذا الرجل كان مسيحياً ـ وضّح سيزَرْ سانتوس.

أخيراً قرّروا أن يلفّوه في خيش ويضعوه على نضيدة صغيرة من لحاء الشجر حضّروها على رأس أحد الأشجار. كات كولْدْ، التي لم تكن امرأة متديّنة، لكنّها تملك ذاكرة جيّدة وتتذكّر صلوات طفولتها، ارتجلت قدّاساً مسيحياً قصيراً. تيموثي بروس وجول غونثالِثْ صوّرا بالفيديو وبآلتي التصوير الجثمان والجنازةَ كدليلٍ على ما جرى. وحفر سيزَرْ سانتوس صلباناً على أشجار الضفّة، وعلّمَ المكان على الخريطة بأفضل ما استطاع كي يستدلوا عليه حين يعودون للبحث عن بقايا المرحوم، التي ستُسلّم إلى أسرته في سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا.

منذ تلك اللحظة سارت الرحلة من سيّئ إلى أسوأ. صارت النباتات أكثر كثافة ونور الشمس لا يصلهم إلا حين يُبحرون وسط النهر، كانوا من الزحام والضيق بحيث أنّه لم يكن باستطاعتهم أن يناموا في المركبين، على الرغم من الخطر الذي يُمثّله الهنود

والحيوانات المتوحشة. كان من المحتّم عليهم أن يُخيِّموا على الضفّة. فراح سيزَرْ سانتوس يوزّع الطعام وينظّم رحلات الصيد البريّ والنهري والأدوارَ بين الرجال للقيام بالحراسة ليلاً. وقد استثنى الأستاذ لبلانك، لأنّه كان واضحاً أنّ أيّ جلبة ستفقده أعصابه. طالبت كات كولْدْ والدكتورة أُمَيرة تورِّس المشاركة في الحراسة، فقد بدا لهما من المهين أن يستثنونهما لأنّهما امرأتان. وعندئذٍ أصّر الفتيان على قبول مشاركتهما أيضاً، لأنّهما يريدان أن يتجسَّسا على كاراكاوِ من ناحيةٍ أخرى. إذ رأياه يضع عدّة حفنات من الطلقات في جيوبه ويحوم حول جهاز اللاسلكي، الذي كان سيزَرْ سانتوس يتمكّن بصعوبة كبيرة من استخدامه في الاتصال كي يُحدِّد لعامل المقسم في سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا موقعه على الخريطة. فقد كانت قبّة نباتات الغابة تلعب دور المظلّة التي تمنع مرور موجات البثّ.

ـ أيّهما سيكون أسوأ الهنود أم البهيمة؟ ـ سأل ألِكسْ لودفيك لبلانك مازحاً.

ـ الهنود أيّها الشاب. إنّهم أكلة لحوم بشر، فهم لا يأكلون أعداءهم فقط، بل وأموات قبيلتهم أيضاً ـ ردّ الأستاذُ مشدّداً.

ـ صحيح؟ لم أسمع بهذا قط ـ علّقت الدكتورة أُميْرَة تورِّسْ ساخرةً.

ـ اقرئي كتابي يا آنسة.

ـ دكتورة ـ صحَّحت له للمرّة الألف.

ـ هؤلاء الهنود يقتلون كي يحصلوا على النساء ـ أكّد لبلانك.

ـ ربّما أنتَ تقتل لهذا السبب وليس الهنود يا أستاذ، فهم لا تنقصهم النساء، بل تفيض عنهم ـ ردّت الدكتورة.

ـ تأكّدت من ذلك بأمّ عينيّ: يهاجمون شابونات أخرى لسبي فتياتها.

ـ حسب معرفتي لا يستطيعون أن يجبروا الفتيات على البقاء

معهم دون إرادتهن. إذ يذهبن متى شئن. وحين تقوم حرب بين شابونين فذلك لأنّ أحدهما استخدم السحر لإيذاء الآخر، أو انتقاماً، أو هي أحياناً حروب طقسية يتضاربون فيها بالهراوات، لكن دون نيّة بقتل أحد ـ قاطعه سيزَرْ سانتوس.

ـ تُخطِئ يا سانتوس. انظر فيلم لودفيك لبلانك الوثائقيّ وستفهم نظريّتي ـ أكّد لبلانك.

ـ علمتُ أنّك وزّعت حراباً وسكاكين في إحدى الشابونات، ووعدت الهنود بتقديم مزيد من الهدايا إذا هم عملوا أمام الكاميرات حسب تعليماتك... ـ ألمح الدليل.

ـ هذه شائعة! حسب نظريّتي...

ـ هناك أنثروبولوجيون وصحافيون كثر جاؤوا إلى الأمازون يحملون أفكارهم الخاصّة حول الهنود. أحدهم صوّر فيلماً يرتدي فيه الفتية ثياباً نسائية، ويتزيّنون ويستخدمون مزيل العرق ـ أضاف سيزَرْ سانتوس.

ـ آه، هذا الزميل دائماً لديه أفكار غريبة ـ اعترف الأستاذ.

علّم الدليلُ ألِكس ونادايا تلقيم المسدّس واستخدامه. لم تبدِ الصغيرة مهارة كبيرة ولا اهتماماً، بدا أنّها غير قادرة على إصابة الهدف عن بعد ثلاث خطوات. بالمقابل كان ألِكس مسحوراً بالمسدس، وكان ثقله في يده يمنحه إحساساً بالقوّة التي لا تُقهَر، وتفهّم لأوّل مرّة هوس الكثير من الناس بالسلاح.

ـ أبواي لا يسمحان بالأسلحة النارية. أعتقد أنّه سيُغشى عليهما لو رأياني مع هذا ـ علّقَ.

ـ لن يرياك ـ أكّدت جدّتُه وهي تلتقطُ له صورة.

انحنى ألِكس وقام بحركة من سيطلق النار، كما كان يفعل حين كان يلعب في طفولته.

ـ التقنية الأكيدة للخطأ بإصابة بالهدف هي التسديد وإطلاق النار باستعجال ـ قالت كات كولْدْ ـ إذا هاجمونا فهذا هو تماماً ما

ستفعله يا ألِكساندر، لكن لا تهتمّ، لأنّه لن يكون هناك من يرانا. من المحتمل جدّاً أن نكون قد متنا.

ـ لا تثقين بأنّني أستطيع حمايتك، أليس كذلك؟

ـ لا. لكنّني أفضّل أن أموت مقتولةً على أيدي الهنود في الأمازون على أن أموت من الشيخوخة في نيويورك ـ ردّت جدّته.

ـ أنت فذّة ياكات! ـ ابتسم الصغير.

ـ جميعنا أفذاذ يا ألِكساندر ـ قاطعته.

لمحوا في اليوم الثالث من الإبحار عائلةً من الأيائل في فسحة جرداء صغيرة على الضفّة. الحيوانات المعتادة على أمان الغابة لم يبد عليها أنّها اضطربت من وجود الزورقين. أمر سيزَر سانتوس بالتوقّف وقتل واحداً منها ببندقيّة صيده، بينما هربت الأخرى مذعورة. في تلك الليلة تناول أعضاء البعثة عشاءً ممتازاً، فلحم الأيل مستحسن جدّاً على الرغم من نسيج لحمه الليفيّ، وسيكون عيداً بعد كلّ تلك الأيام من وجبة السمك ذاتها. ماتوٌ كان يحمل معه سمّاً يرميه هنودُ قبيلته في النهر. وحين يقع السمّ في الماء تتجمّد الأسماك ويصبح من الممكن طعنها برمح أو سهم مربوط إلى حبل ليانا(*). وذلك السم لم يكن يترك أثراً في لحم السمك ولا في الماء، بينما الأسماك الأخرى تستعيد قواها بعد لحظات قليلة.

كانوا في مكان وادع يشكّل النهر فيه بُحيرة صغيرة، وهو رائع للتوقّف ساعتين لتناول الطعام واستعادة القوى. طلب سيزَرْ سانتوس منهم أن يكونوا حذرين لأنّ الماء عكر، ولأنهم رأوا قبل ساعات بعض التماسيح، لكنّ الجميع كانوا يشعرون بالحرّ والعطش. حرّك الحرّاس الماء بالعصي، وبما أنّهم لم يروا أثراً للتماسيح قرّروا السباحة باستثناء الأستاذ لودفيك لبلانك، الذي لم يكن لينزل

(*) Liana نوع من النباتات المتسلقة في المناطق الاستوائية.

إلى النهر ولا لأيّ سبب كان. كان القرد بوروبا عدوّاً للسباحة، لكنّ ناديا تجبره على الابتلال بين وقت وآخر كي تُخلّصه من البراغيث. وفي كلّ مرّةٍ تُصيب قطرةُ ماء الحيوانَ الصغير، القابعَ فوق رأس صاحبته كان يُطلق صرخات ذعرٍ خالِص. تخبَّط أعضاءُ البعثة برهة في الماء، بينما راح سيزَرْ سانتوس واثنان من رجاله يقطعون الأيل ويُشعلون النار من أجل شيِّه.

رأى ألِكسْ جدَّتَهُ تخلع بنطلونها وقميصها كي تسبح بثيابها الداخلية، دون أي مظهر للحياء، على الرغم من أنّها حين ابتلّت بدت عارية. حاول ألاّ ينظر إليها، لكنّه سرعان ما أدرك أنّ هناك في وسط الطبيعة وبعيداً جدّاً عن عالمه المعروف لم يكن للخجل من الجسد حظوة. لقد تربّى على تواصل حميم مع أمّه وأختيه واعتاد في المدرسة على رفقة الجنس الآخر، إلاّ أنّه في المرحلة الأخيرة صار كلّ ما هو أنثويّ يشدّه مثل لغز قصيّ وممنوع. كان يعرف السبب: هرموناته المهتاجة لا تتركه يُفكّر بسلام. وقرّر أن المراهقة نهر، أسوأ من السوء. عليهم أن يخترعوا جهازَ أشعةٍ ليزري، يدخل فيه المرءُ للحظة وينتهي كلُّ شيء! يخرج منه راشداً. كان يحمل في داخله إعصاراً، يمضي أحياناً نشيطاً، ملكاً على العالم، مستعدّاً لأن يصارع بحماس أسداً بيديه العزلاوين، وأحياناً أخرى كان مجرّد شرغوف. ومع ذلك لم يتذكّر منذ شرع بهذه الرحلة الهرمونات، ولم يملك الوقتَ كي يسأل نفسَهُ عما إذا كان يستحق أن يستمرّ المرء بأن يعيش شكّاً كان يهاجمه مرّة واحدةً على الأقل في اليوم. قارن الآن جسد جدّته - الجاف، والمليء بالعقد، وبشرته المتشقّقة - بالحنيات الناعمة المرهفة عند الدكتورة أُميرة تورِّس، التي تستخدم ثوب سباحة أسود ومحتشم، وما تزال تملك ملاحة ناديا الطفولية. فكّر كيف يتبدّل الجسد في مختلف مراحل العمر، وقرَّر أنّ النساء الثلاثة كنّ، كلّ على طريقتها، جميلات بالتساوي. خجل من هذه الفكرة. فما كان ليخطر له قبل أسبوعين أن يعتبر جدّته بالذات جذّابة. ترى هل تطبخ هرموناته الآن دماغَهُ؟

صرخة تبعث القشعريرة أخرجت ألِكس من مثل هذا الإفراط بالتفكير. مصدر الصوت كان جوِل غونثالِثْ، أحد المصوِّرَين، الذي راح يتخبّط يائساً في وحل الضفة. في البداية لم يعرف أحد ما كان يجري، لم يروا غير ذراعي الرجل تتحرّكان في الهواء ورأسه يغوص ثم يعود ليطفو. ألِكس الذي كان يشارك في فريق السباحة في مدرسته، كان أوّل من وصل إليه بضربتي ذراع أو ثلاث ضربات. حين اقترب منه رأى مذعوراً تماماً أفعى غليظة مثل خرطوم إطفاء منفوخ تلفّ جسدَ المصوّر. أخذه ألِكس من أحد ذراعيه وحاول أن يجرّه نحو اليابسة، لكنّ وزن الرجل والأفعى كان أثقل مما يستطيع. حاول أن يفصل الحيوان عنه بكلتي يديه ويشدّه بكلّ ما أوتي من قوّة، لكنّ حلقات الزاحفة ضغطت أكثر على الضحية. تذكّر التجربة المُقشعِرة للبدن مع حية السوروكوكو التي التفّت حول ساقه قبل عدّة ليالٍ. هذه كانت أسوأ ألف مرّة. ما عاد المصوّر يتخبّط ولا يصرخ، فَقَدْ فَقَدَ وعيه.

ـ أبي، أبيَ! أناكوندا! ـ نادت ناديا وقد انضمّت إلى صيحات ألِكس.

في تلك الأثناء كانت كات كولْدْ، وتيموثي وجنديان قد اقتربوا وراحوا جميعاً يتعاركون مع الأفعى الجبّارة لفصلها عن جسد غونثالِثْ البائس. حرّك تخبطهم قاع البحيرة وأحال الماء داكناً وسميكاً مثل الشوكولا. وفي تلك الفوضى لم يعد يُشاهَد ما يجري، فكلّ واحد يتكلّم ويصرخ بتعليماته دون أيّة نتيجة. بدا الجهد غير مجدٍ حتى وصل سيزر سانتوس بالسكين التي كان يُقطّع بها الأيل. لم يجرؤ الدليلُ على استخدامها على غير هدى، خشيةَ أن يجرح جول غونثالِث أو أيّاً من الآخرين الذين كانوا يُعارِكون الزاحفة، فاضطُرّ أن ينتظر اللحظة المناسبة التي خرج فيها رأسُ الأناكوندا من الوحل برهةً قصيرة ليقطعه بضربة صائبة. امتلأ الماء بالدم، وصار لونه صدئاً. وقد احتاجوا إلى خمس دقائق أخرى حتى استطاعوا أن يحرّروا المصوّر، لأنّ الحلقات القابضة كانت ما تزال تعمل بالفعل الانعكاسي.

جرّوا جول غونثالِثْ إلى الضفّة، حيث بقي ممدَّداً كأنّه ميت. أصابت الأستاذ لبلانك حالة من العصبية فراح يطلق من مكان آمنٍ الرصاص في الهواء، مساهماً في الارتباك والتشوّش العام إلى أن انتزعت كات كولْدْ منه المسدّسَ وأجبرته على السكوت. وبينما كان الآخرون يصارعون أفعى الأناكوندا، رجعت الدكتورة أمَيْرة تورِّسْ وتسلّقت الزورقَ بحثاً عن حقيبتها، وهاهي الآن على ركبتيها بجانب الرجل المغشيّ عليه وبيدها حقنة. كانت تعمل بصمت وهدوء، كما لو أن هجوم الأناكوندا كان حادثاً عادياً تماماً في حياتها. حقنت غونثالِث بالأدرنالين، وما إن تأكّدت من أنه يتنفّس حتى راحت تفحصه.

ـ هناك عدّة أضلاع مكسورة وهو مُحطَّم ـ قالت. آمل ألاّ تكون رئتاه مثقوبتين بعظم أو رقبته مهشّمة. يجب تثبيته.

ـ وكيف سنفعل ذلك؟ ـ سأل سيزَرْ سانتوس.

ـ الهنود يستخدمون لحاء الشجر والطين والليانة ـ قالت ناديا وهي ما تزال ترتعش مما رأته توّاً.

ـ حسناً يا ناديا ـ وافقت الدكتورة.

أعطى الدليلُ التعليماتِ المناسبة، وعلى الفور لفّت الدكتورة، بمساعدةِ كات وناديا، الجريحَ من إليتيه وحتى رقبته بالخرق المبلّلة بالطين الطريّ، ووضعت فوقه شرائحَ طويلة من لحاء الشجر، ثمّ ربطته. لهذا الصرِّ البدائيِّ حين يجفّ الطين تأثيرُ مِشَدّ التجبير الحديث ذاته. لم يكن جول غونثالِث، المصعوق والمتألّم، يعرف بعدُ ما جرى له، لكنّه استعاد وعيه وصار باستطاعته أن يلفظ بعض الكلمات.

ـ يجب أن نحمل جول على الفور إلى سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا. من هناك يستطيعون نقله بطائرة ماوْرو إلى إحدى المستشفيات ـ قرّرت الدكتورة.

ـ هناك عائق رهيب! ليس لدينا غير زورقين. ولا نستطيع أن نرسل واحداً منهما معه ـ ردّ الأستاذ لبلانك.

ـ كيف؟ البارحة كنتَ تريدُ أن تتصرّف بواحد منهما وتهرب فيه والآن لا تريد أن ترسل واحداً مع صديقي المصاب بجروح بالغة؟ ـ سأل تيموثي بروسْ، جاهداً كي يحافظ على هدوئه.

ـ إن لم يلقَ العناية المناسبة، يمكن لجوِل أن يموت ـ وضّحت الدكتورة.

ـ لا تبالغي أيتها المرأة الجميلة. هذا الرجل ليس في حالة خطيرة. إنّه مذعور فقط. بقليل من الراحة سوف يستعيد عافيته خلال يومين ـ قال لبلانك.

ـ فكرة محترمة من جهتك يا أستاذ ـ غمغم تيموثي بروس ضاماً قبضتيه.

ـ كفى يا سادة! غداً نتخذ قراراً بذلك. صار الوقتُ متأخّراً الآن للإبحار، فقريباً سوف تُظلم. علينا أن نُخيّم هنا ـ قرّر سيزَرْ سانتوس.

أمرت الدكتورة أُمَيْرَة تورّسْ أن يُشعلوا ناراً قرب الجريح للحفاظ عليه جافّاً ودافئاً خلال الليل، البارد دائماً. ولكي تساعده على تحمّل الألم أعطته مورفيناً، ولكي تقيه الالتهابات بدأت تعطيه مضادات حيوية. خلطت عدّةَ ملاعق من الماء وقليلاً من الملح في زجاجة وأعطت تعليماتها لتيموثي بروسْ كي يناول صديقَهُ السائل بالملعقة، تفادياً للتجفاف، فمن الواضح أنّه لن يستطيع ابتلاع الأطعمة الصلبة خلال الأيام التالية. أما المصوّر الإنكليزي الذي لم يكن يُبدّل تعابير وجهه الذي لجواد فقد قوّته، فقد كان مشغولاً بصدقٍ وأطاعَ الأوامر بحرصِ أمٍّ. حتى الأستاذ لبلانك سيئ المزاج اعترف بينه وبين نفسه بأنَّ وجود الدكتورة كان ضرورياً في مغامرة مثل تلك.

في هذه الأثناء كان ثلاثة من الجنود وكاراكاوِ قد سحبوا جسدَ الأناكونادا إلى الضفّة. حين قاسوها وجدوا أنّ طولها حوالى ستّة

أمتار. أصرّ الأستاذ لبلانك على أن يتصور معها وهي ملتفّة حول جسمه بحيث لا تبدو مقطوعة الرأس. بعدها سلخ الجنود جلدَ الزاحفة الذي سمّروه إلى جذع شجرة كي يجفّ، وبهذه الطريقة يستطيعون أن يزيدوا طوله عشرين بالمئة والسياح سيدفعون سعراً جيّداً به. ومع ذلك لن يكون عليهم أن يأخذوه إلى المدينة لأنّ الأستاذ لبلانك عرض شراءه هناك بالذات، ما إن تأكّد من أنّهم لن يعطوه له مجاناً. همست كات كولْدْ في أذن حفيدها بأنّ الأنثروبولوجي سيعرض دون شكّ لمدّة أسابيع الأناكوندا في محاضراته كتذكار صيد، راوياً كيف اصطادها بيديه. فبهذه الطريقة اكتسب شهرته كبطل بين طلاب الأنثروبولوجيا في العالم كلّه، المذهولين بفكرة أنّ القتلة المتوحشين لديهم ضِعْفُ ما عند الرجال المسالمين من النساء وثلاثة أضعاف ما لديهم من الأبناء. فقد كانت نظريّة لبلانك حول ميّزة الفحل المهيمن القادر على ارتكاب أيّة وحشية من أجل نقل جيناته، تشدّ كثيراً أولئك الطلاب الملولين المحكومين بالعيش مدجَّنينَ في وسط الحضارة.

بحث الجنود عن رأس الأناكوندا في البحيرة، دون أن يستطيعوا العثور عليه، فقد غاص في وحل القاع أو أن التيار قد سحبه. لم يجرؤوا على التنقيب عنه كثيراً، لأنّه يُقال إنّ هذه الأفاعي تمضي دائماً أزواجاً، وما من أحدٍ منهم على استعداد لأن يتعثّر بواحدة من تلك النماذج. وضّحت الدكتورة أُمَيْرة تورّس بأن الهنود والمستوطنين يعزون إلى الأفاعي قوّة علاجية وتنبؤية. فهم يُجفّفونها ثم يسحقونها ويستخدمون مسحوقها لمعالجة الدرن الرئوي، والصلع، وأمراض العظام، وكذلك كعامل مساعد في تفسير الأحلام. وأكّدت أنّ رأساً بذلك الحجم سيكون أكبر قيمة، ومن المؤسف أنّه ضاع.

قطّع الرجالُ لحمَ الزاحفة وملّحوه، وشرعوا يشوونه في عيدان. ألِكس، الذي كان قد رفض حتى ذلك الوقت أن يأكل البيراروكو، والدبّ آكل النمل، والطوقان، والقرد، والتابير، شعر بفضول مفاجئ لمعرفة كيف هو لحم أفعى الماء الهائلة تلك. أخذ

بالاعتبار بشكل خاص كم ستزيد مكانته أمام سيسيليا بورنز وأصدقائه في كاليفورنيا حين يعلمون أنّه تعشّى أناكوندا في قلب الأدغال الأمازونية. وقف أمام جلد الأفعى مع قطعة من لحمها في يده، طالباً من جدّته أن تلتقط له صورة توثيقيّة. الحيوان الذي تفخّم كفاية لأنّه ما من أحدٍ من رجال البعثة كان طباخاً جيّداً، كان أشبه بلحم سمك التونة ومذاق فروج مبهم. كان طعمه بالمقارنة مع لحم الأيل تافهاً، لكنّ ألِكس قرّر أنه، في جميع الأحوال، أفضل من البسكويت المطاطي الذي يُعِدُّه أبوه. ذكرى أسرته المفاجئ صفعته مثل ضربة كفّ. وبقي ومعه قطعة الأناكوندا المغروسة في العود ينظر إلى الليل متأمّلاً.

ـ ماذا ترى؟ ـ سألته ناديا هامِسةً.

ـ أرى أمّي ـ أجاب الفتى وأُفلِت من شفتيه إجهاش.

ـ كيف حالها؟

ـ مريضة، مريضة جدّاً ـ أجاب.

ـ أمّك مريضة الجسد، وأمّي مريضة الروح.

ـ هل تستطيعين رؤيتها؟ ـ استفسر ألِكس.

ـ أحياناً ـ قالت.

ـ هذه المرّة الأولى التي استطعت أن أرى فيها أحداً بهذه الطريقة ـ وضّح ألِكس ـ انتابني إحساس غريب جدّاً، كما لو أنّني أرى أمّي بكلّ وضوح على شاشة، دون أن أستطيع لمسها أو الكلام معها.

ـ كلّ شيء مسألة تدريب يا جغوار. يمكن تعلّم الرؤية بالقلب أحياناً. التشامان من أمثال واليماي يستطيعون أيضاً أن يلمسوا ويتكلّموا بقلوبهم عن بعد ـ قالت ناديا.

9

أهل الضباب

علّقوا في تلك الليلة أراجيح النوم بين الأشجار، وحدّد سيزَرْ سانتوس المناوبات بساعتين لكلّ واحد للقيام بالحراسة والمحافظة على النار مشتعلة. فبعد موت الرجل ضحية السهم، وحادث جوِل غونثالِثْ، بقي عشرة بالغين وصبيان لتغطية الحراسة، لأنّ لبلانك لم يدخل في الحساب لتغطية ساعات الظلمة الثماني. فلودفيك لبلانك كان يعتبر نفسه رئيس البعثة، وهو بذلك يجب أن «يحافظ على نفسه حاضر الذهن»، فهو، كما بَيَّن، إن لم يتمتع بليلة نوم هنيء لن يشعر بصفاء الذهن لاتخاذ القرارات. فرح الآخرون، لأنه ما من أحدٍ منهم كان يريد في الحقيقة أن يقوم بالحراسة برفقة رجلٍ يرتعد من رؤية سنجاب. المناوبة الأولى، وهي الأسهل عادة، لأن الناس ما يزالون يقظين والبرد لم يصبح شديداً بعد، أُنيطت بالدكتورة أُمَيْرَة تورِّسْ وجندي مستوطِن وتيموثي بروس، الذي ما عاد يجد عزاء بعد ما جرى لزميله. فبروسْ وغونثالِثْ كانا قد عملا معاً سنوات عديدة ويُقدّر الواحد منهما الآخر كأخ. المناوبة الثانية كانت لجنديّ آخر وألِكسْ وكاتْ كولْدْ؛ والثالثة لماتُوّ وسيزَرْ سانتوس وابنته ناديا. أمّا المناوبة الرابعة في الفجر فكانت مؤلفة من الجنديين المتبقيين وكاراكاوِ.

صعب على الجميع أن يتصالحوا مع النوم فإلى جانب أنين جول غونثالِثْ البائس كان هناك رائحة غريبة نفاذة يبدو أنّها

ضمّخت الغابة. سمعوا كلاماً عن نتانة، هي حسب ما كانوا يؤكّدون، من مميّزات البهيمة. فوضّح سيزَرْ سانتوس أنهّ من المحتمل أنّهم يخيّمون قرب عائلة من الإيرارات، وهي نوع من أبناء عرس حلوة الوجه، لكنّ لها رائحة شبيهة برائحة الظربان(*). لكن لم يُطمئن هذا التفسير أحداً.

ـ إنّني دائخ وأشعر بالغثيان ـ علّق ألِكس، شاحباً.

ـ إذا لم تقتلك الرائحة فإنّها ستقوّيك ـ قالت كات، الوحيدة التي لم تتبدّل أمام النتانة.

ـ إنها مرعبة!

ـ لنقل إنّها مختلفة. الحواس شخصيّة يا ألِكساندر. ما يُثيرُ اشمئزازكَ، يمكن أن يكون جذّاباً بالنسبة لآخر. ربّما كانت البهيمة تصدر هذه الرائحة كنشيد للحب، تدعو بها قرينتها ـ قالت جدّته وهي تبتسم.

ـ مريع! إنّها رائحة جرذ ميّت، مختلطة برائحة بول فيل، وطعام متفسّخ و...

ـ يعني مثل رائحة جوربك ـ قاطعته جدّته.

استمر الإحساس عند رجال البعثة بأنّ مئات العيون تراقبهم من الغابة الملتفة. كانوا يشعرون بأنهم مكشوفين، لأنّهم كما هو حالهم مضائين بوهجِ النار المرتعش وزوج من قناديل النفط. مرّ القسم الأوّل من الليلِ دون حالات فزع كبيرة إلى أن جاءت مناوبة ألِكس وكات وأحد الجنود. قضى الصبيّ الساعة الأولى وهو ينظر إلى الليل وانعكاسات الماء، يرعى حلمَ الآخرين؛ ويفكّر كم تغيّر خلال أيّام قليلة. صار باستطاعته الآن أن يقضي وقتاً طويلاً هادئاً وصامتاً يتسلى بأفكاره الخاصّة، دون حاجة لألعاب الفيديو والدراجة والتلفزيون، كما كان الحال في السابق. اكتشف أنّ

(*) zorrillo ظربان أمريكيّ وهي جنس من مرتبة اللواحم والفصيلة السنورية، صُلم الآذان، طوال المخاطِم، قصار القوائم، أصغر من الهرّ، مشهورة بنتنٍ رائحتها.

باستطاعته الانتقال إلى ذلك المكان الحميم الهادئ والصامت، الذي كان عليه أن يُدركه حين كان في الجبال. كان درس والده الأول في تسلّق الجبال هو أنّه ما دام متوتّراً، أو متلهفاً، أو مستعجلاً فإنّ نصف قوّته سيُهدر. كان يحتاج للهدوء ليهزم الجبل. كان باستطاعته أن يُطبّق هذا الدرس حين كان يتسلّقُ الجبل، لكنّه حتى تلك اللحظة لم يفده كثيراً في جوانب الحياة الأخرى. انتبه إلى أن لديه أشياء كثيرة يمكن أن يفكّر بها، لكن الصورة الأكثر تكراراً كانت أمّه. إذا ماتت... دائماً كان يتوقّف عند هذا الحدّ. سبق أن قرّر ألا يضع نفسه في تلك الحالة، لأنّه سيكون كمن يستدعي الفاجعة إليه. بالمقابل راح يركّز تفكيره على أن يرسل إليها طاقة إيجابية، تلك كانت طريقته في مساعدتها.

فجأة قطعت ضجةٌ أفكاره. سمع بكلّ وضوح وقع خطوات عملاق تسحق الشجيرات القريبة. شعر بتشنّج في صدره، كأنّه يختنق. وشعر لأوّل مرّة بالحاجة إلى النظارة التي أضاعها في حوش ماورو كاريّاس، لأنّ نظره كان أسوأ بكثير ليلاً. انتظر ممسكاً المسدس بيديه كلتيهما كما يرى في الأفلام كي يسيطر على ارتعاده. وحين أحسّ بأنّ النباتات تتحرّك قريباً جدّاً منه، وكأنّ هناك فرقة من الأعداء تقبع فيها، أطلق صرخة مدوّية، جاء صوتها مثل صفارة سفينة تشرف على الغرق، أيقظت الجميع. خلال لحظة كانت جدّته إلى جانبه تمسك ببندقيتها. التقيا وجهاً لوجه مع رأس حيوان، لم يتمكّنا من تحديد ماهيته في البداية. كان خنزيراً وحشياً، خنزيراً برّياً كبيراً. لم يتحرّكا، مصعوقين من المفاجأة، وهذا ما أنقذهما، لأنّ الحيوان، مثله مثل ألِكس لم يكن يرى جيّداً في الظلمة. ومن حسن الحظّ أنّ النسيم كان يجري في الاتجاه المعاكس، لذلك لم يستطع أن يشمّهما. سيزَرْ سانتوس كان أول من انسلّ بحذرٍ من أرجوحة نومه وقدّر الوضع على الرغم من سوء الرؤية.

ـ لا أحد يتحرّك... ـ أمر بما يشبه الهمس، كي لا يجذب الخنزير البرّي.

كان لحمه لذيذاً ويمكن أن يكفي للاحتفال عدّة أيام لو أنهم

اصطادوه، لكن لم يكن هناك ضوء كافٍ كي يُطلق النار، وما من أحد تجرّأ على أن يقبض على مديته ويهجم على حيوان بتلك الخطورة. تمشّى الخنزير هادئاً بين أراجيح النوم، شمّ المؤن التي كانوا يعلقونها بحبال كي يحفظوها من الجرذان والنمل، أخيراً أدخل خطمه في خيمةِ الأستاذ لودفيك لبلانك، الذي كاد يُصاب بجلطة قلبية من خوفه. ولم يبق هناك من مجال آخر غير انتظار أن يملّ الزائر الثقيل من التجوال في المعسكر ويذهب، ماراً على مقربة كبيرة من ألِكسْ، الذي كان باستطاعته أن يمدّ يده ويلمس شعره الشائك. وما إن انجلى التوتر واستطاعوا تبادلَ المزاح حتى شعر الفتى بأنه تصرف بما يُشبه الهِستيريا لأنّه صرخ بتلك الطريقة، لكنّ سيزَرْ سانتوس أكّد له أنه قام بما هو صحيح. كرّر الدليلُ تعليماته في حال الاستنفار: تُطأطئ، تصرخ أوّلاً، ثمّ تُطلق النار. لم ينهِ كلامه حين دوّت طلقة: إنّه لودفيك لبلانك بعد عشر دقائق من زوال الخطر. كان الأستاذ سريع الضغط على الزناد، كما قالت كات كولْدْ.

المناوبة الثالثة، حين صار الليلُ أكثر برودة وظلمة، كانت من نصيب سيزَرْ سانتوس وناديا وأحد الجنود. تردّد الدليلُ في إيقاظ ابنته، التي كانت تنام بعمقٍ محتضنة بوروبا، لكنّه توقّعَ أنّها لن تغفر له إذا لم يفعل ذلك. أزالت النعاس عنها بجرعتين من القهوة السوداء المُحلاة جيّداً، وتدثّرت بأفضل ما استطاعت: بقميصين قصيرين وصدرة وبسترة أبيها. لم يستطع ألِكس أن ينام غير ساعتين وكان في غاية التعب، لكنّه حين لمح على نور الصلاء الخفيف أنَّ ناديا تستعدُّ للقيام بالحراسة، نهض بدوره مستعداً لمرافقتها.

ـ أنا في أمان، لا تنشغِلْ. معي الطِلسم الذي يحميني ـ قالت كي تطمئنه.

ـ عُدْ إلى أرجوحة نومِك ـ أمره سيزَرْ سانتوس ـ جميعنا بحاجة إلى النوم، لذلك وُجِدت المناوبات.

أطاعه ألِكسْ مُكرهاً، عازماً على البقاء مستيقظاً، إلاّ أنّه سرعان ما غلبه النوم. لم يستطِع أن يُقدِّر كم نام، لكن لا بدّ أنّه تجاوز الساعتين، إذ حين استيقظ مرعوباً على الجلبة حوله، كانت

مناوبة ناديا قد انتهت منذ برهة، وبالكاد بان الخيطُ الأبيض من الخيط الأسود. كان الضبابُ حليبيّاً والبرد شديداً، لكنّ الجميع نهضوا. كانت تعبق في الجوّ رائحة كثيفة، تكاد تُقطَع بسكين.

ـ ماذا جرى؟ ـ سأل وهو يدور خارج أرجوحة نومه، وما يزال طائشاً من النعاس.

ـ لا أحد يخرج من المعسكر مهما كان السبب! ألقوا مزيداً من الحطب في النار! ـ أمَرَ سيزَرْ سانتوس، الذي ربط منديلاً على وجهه، وحمل البندقية بيد والمصباح بيدٍ أخرى، وراح يسبرُ الضبابَ الرماديَّ المرتعش الذي يغزو الغابة عند انبلاج الفجر.

سارعت كاتِ وناديا وألِكس إلى مدّ النار بمزيد من الحطب فزاد الضياء قليلاً. كان كاراكاوِ هو الذي دبّ صوت النفير: فقد اختفى أحد المستوطنين (الجنود) الذين كانوا يراقبون معه. أطلق سيزَرْ سانتوس النارَ مرّتين في الهواء وناداه، وبما أنّه لم يلقَ جواباً قرّر أن يذهب مع تيموثي بروس وجنديين ليقوموا بجولة في المحيط، تاركين البقيّة حولَ النارِ مُسلّحين بالمسدسات. اضطرّ الجميع أن يحذوا حذوَ الدليل فكمّوا أفواههم وأنوفهم كي يستطيعوا التنفّس.

مرّت لحظات بدت أبديّة، لم ينبس فيها أحدٌ ببنت شفة. عادةً ما كانت تستيقظ القردةُ في مثل تلك الساعة على رؤوس الأشجار ويُبشِّرُ زعيقُها، الذي يُشبِهُ عواءَ الكلاب، بالنهار، ومع ذلك فقد ساد في ذلك الفجر صمت يشيب له الولدان. فالحيوانات وحتى الطيور هربت. فجأة سُمِعَ صوت طلقة تبعه صوتُ سيزَرْ سانتوس، ثم صيحات الرجال الآخرين. بعد لحظات وصل تيموثي بروس منقطِعَ النفس: لقد عثروا على المستوطِن.

كان الرجل مُلقى على وجهه بين السرخس. لكنّ رأسه إلى الأعلى كما لو أنّه فُتِلَ تسعين درجة نحو ظهره وكسرت عظام رقبته. كانت عيناه مفتوحتين وعلاماتُ رعبٍ تُشوِّهُ وجهَهُ. وحين قلبوه

وجدوا أنّ جذعه وبطنه قد مزّقا بطعنات عميقة. مئات الحشرات والقرّاد والصراصير الصغيرة على جسده. أكّدت الدكتور أُمَيْرَةْ ما كان واضحاً: إنّه ميت. هرع تيموثي بروس بحثاً عن آلة تصويره ليوثّق بالصورةِ ما حدث، بينما أخذ سيزَرْ سانتوس بعضَ الحشرات ووضعها في كيسٍ صغير كي يحملها للأب بالدومِرو في سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا، الذي كان عالماً بالحشرات ويجمع أنواعها في المنطقة. كان النتن في تلك المنطقة أسوأ بكثير، وهم يحتاجون إلى كثير من العزيمة كيلا يولّوا هاربين.

أعطى سيزَرْ سانتوس تعليماته لأحد الجنود كي يعود ويراقب جول غونثالِث، الذي بقي وحيداً في المعسكر، وأمر كاراكاوِ وجنوداً آخرين أن يتفقدوا المحيط. ماتُوَ، الدليلُ الهنديّ، كان ينظر إلى الجثة باضطراب عميق، إذ صار لونه رمادياً كما لو أنّه في حضرة شبح. تعلّقت ناديا بأبيها وأخفت وجهها في صدره كي لا ترى المشهدَ المشؤوم.

ـ إنّها البهيمة! ـ هتف ماتُوَ.

ـ دعك من البهيمة يا رجل، هذا من فعل الهنود ـ دحضه الأستاذ لبلانك، الشاحب من التأثر وهو يحمل في يدٍ مرتعشةٍ منديلاً مشبعاً بماء الكولونيا وفي الأخرى المسدّس.

تراجع لبلانك في تلك اللحظة وتعثّر وسقط جالساً في الوحل. أطلق لعنة وأراد أن ينهض على قدميه، لكنّه مع كلّ حركّة كان يقوم بها يتزحلق أكثر وأكثر، متمرِّغاً في مادّة داكنة، طرية فيها خثرات. ونظراً لرائحته المرعبة علموا أنّه لم يكن طيناً بل خراء: لقد تغطّى الأنثروبولوجيُ الشهيرُ كاملاً بالخراء من قدميه وحتى رأسه. مدّ سيزر سانتوس وتيموثي بروس له غصناً لجرّه ومساعدته على الخروج من الخراء، ورافقاه بعدها إلى النهر محافظين على مسافة حذرة كيلا يلمسوه. لم يجد لبلانك بدّاً من أن يبلل نفسه برهة طويلة وهو يرتعد ذلاً وبرداً وخوفاً وغضباً. وقد رفضَ كاراكاوِ، مساعده الشخصيُ، رفضاً قاطعاً أن يصبنه أو يغسل له ملابسه رغم الظروف المأساوية، أمّا الآخرون فكان عليهم أن يكبحوا أنفسهم كيلا

ينفجروا بقهقهة عصبية، فشرّ الأمور ما يُضحِك. كانت تدور في خلدهم جميعاً الفكرة ذاتها: الكائن الذي تغوط ذلك الغائط يجب أن يكون بحجم الفيل.

ـ أنا واثقة من أنّ النظام الغذائي للمخلوق الذي فعل هذا خليط من النباتات والثمار وشيء من اللحم النيّئ ـ قالت الدكتورة، التي ربطت منديلاً حولَ أنفها وفمها، وهي تنظر بعدستها إلى قليلٍ من تلك المادّة.

في هذه الأثناء كانت كات كولْدْ تفحص الأرض والنباتات حابية، بينما حفيدها يُقلّدها.

ـ انظري يا جدّتي، هناك أغصان مكسورة والشجيرات في بعض الأماكن مسحوقة، كما لو بقوائم هائلة. عثرت على بعض الشعر الأسود والقاسي... ـ أشار الفتى.

ـ قد يكون الخنزير الجبلي ـ قالت كات.

ـ هناك أيضاً حشرات كثيرة، هي نفسها الموجودة على الجثّة. لم أرها من قبل.

ما إن أشرق ضوء النهار حتى قام سيزَرْ سانتوس وكاراكاوِ بتعليق جثة الجنديّ عاثرِ الحظّ، بعد لفه بأرجوحة نوم، إلى شجرة بأعلى ما استطاعا. الأستاذ الذي كان من شدّة حالته العصبية قد أصيب بعُرَّةٍ في عينه اليمنى وارتعاش في ركبتيه، استعدّ ليتخذ قراراً. قال إنّ هناك خطراً كبيراً من أن يموتوا جميعاً وإنّه، هُوَ لودفيك لبلانك، عليه أن يصدر أوامره كمسؤول عن المجموعة. فمقتل الجنديّ الأوّل يؤكّد نظريته القائلة بأنّ الهنود قتلة بطبيعتهم، مواربون وغدّارون؛ وموت الثاني في ظروف غامضة يُمكن أن يُعزى للهنود أيضاً، لكنّه أعلمهم بأنّه لا يمكن استبعاد البهيمة. ومن الأفضل أن ينصبَ فِخاخه، فربّما حالفهم الحظ ووقع فيها المخلوق الذي يبحثون عنه، قبل أن يعودَ ويقتل شخصاً آخر، يعودون بعدها على الفور إلى سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا، حيث يمكنهم أن يحصلوا

على حوّامة. فخلص البقيّة إلى أنّ الرجل الصغير تعلّم شيئاً من تمرُّغه بالخراء.

ـ النقيب أريوستو لن يجرؤ على رفض مساعدة لودفيك لبلانك ـ قال الأستاذ. كلّما توغّلوا أكثر في الأراضي المجهولة وتركت البهيمة علامات تدلّ على وجودها كلمّا ازداد ميل الأنثروبولوجي للإشارة إلى نفسه بضمير الغائب. وافقه عدد من أعضاء المجموعة. ومع ذلك بدت كات كولدْ عازمةً على الاستمرار، وطلبت من تيموثي بروس أن يبقى معها، لأنّه لن يفيدها في شيء أن تعثر على المخلوق إذا لم يكن معها مصوِّر يُثبت ذلك. اقترح الأستاذ أن ينفصلوا، وأن يعود من يرغب بذلك إلى القرية في أحد الزوارق. كان الجنود وماتوٌ، الدليل الهندي، يريدون أن يعودوا بأسرع ما أمكن فقد كانوا مذعورين. بالمقابل قالت الدكتورة أُمَيْرَةْ تورِّسْ إنّها وصلت إلى هناك بهدف تلقيح الهنود، وقد لا تُسنَحُ لها في المستقبل القريب فرصةٌ أخرى للقيام بذلك، وهي لا تفكّر بأن تتراجع أمام أوّل عائق.

ـ أنتِ امرأة شجاعة جدّاً يا أُمَيْرَة ـ علّق سيزَرْ سانتوس، مندهشاً ـ سأبقى، فأنا الدليل، ولا أستطيع أن أترككم هنا ـ أضاف.

تبادل ألِكس ونادِيا نظرة تواطؤ: فقد لاحظا كيف يُلاحق سيزَرْ سانتوس الدكتورةَ بنظره، ولا يُفوِّتُ فرصةً يكون فيها بجانبها. كانا، قبل أن يقول ذلك، قد تكهّنا أنّها إذا بقيت فسيفعل مثلها.

ـ وكيف سنعود نحن البقية دونك؟ ـ أراد لبلانك أن يعرف وهو قلقٌ كفاية.

ـ يستطيع كاراكاوِ أن يقودكم ـ قال سيزَرْ سانتوس.

ـ أنا باقٍ ـ رفض هذا باقتضاب كما هي حاله دائماً.

ـ أنا أيضاً لا أُفكِّرُ بأن أترك جدّتي وحدها ـ قال ألِكس.

ـ لست بحاجة إليك ولا أريد أن أرافق تافهين يا ألِكساندر ـ زمجرت جدّته، لكنّ الجميع استطاع أن يُلاحظ بريق الإعجاب في عيني الطائر الجارح أمام قرار حفيدها.

ـ أنا ذاهب لآتي بتعزيزات ـ قال لبلانك.

ـ ألست مسؤولاً عن هذه البعثة يا أستاذ؟ ـ سألت كات كولْدْ ببرودة.

ـ أنا أكثر فائدة هناك منّي هنا... ـ دمدم الأنثروبولوجي.

ـ افعل ما يحلو لك، لكنّك لو ذهبت، فسوف آخذ على عاتقي نشر الخبر في الإنترناشيونال جيوغرافيك حتى يعلم العالم كلّه كم هو شجاع الأستاذ لبلانك ـ هدَّدتْهُ.

أخيراً اتفقوا على أن يعود أحد الجنود وماتوٌ، الدليل الهندي، ومعهما جوِل غونثالت إلى سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا. فالرحلة ستكون قصيرة لأنهم سيسيرون مع التيار. أما البقية، بمن فيهم لودفيك لبلانك، الذي لم يتجرأ على تحدي كات كولد، فسوف يبقون حتى تصلهم التعزيزات. وفي وقت الضحى بات كل شيء جاهزاً، وودع أفراد البعثة بعضهم البعض، وانطلق الزورق عائداً بالجريح.

أمضوا النهار وقسماً جيّداً من اليوم التالي في نصب الفِخاخ للبهيمة، حسب تعليمات الأستاذ لبلانك. كانت الفخاج سذاجة صبيانية: حفرة كبيرة في الأرض مغطاة بشبكة مموّهة بأوراق وأغصان. كان يُفترض بأنّها ستسقط فيها إذا داست عليها وتجرّ معها الشبكة. وفي قعر الحفرة كان هناك جهاز إنذار يعمل على البطارية سيصوت على الفور لينبّه البعثة. وكانت الخطّة تقتضي أن يقتربوا منها ويطلقوا عليها عدداً من المضغوطات المحتوية على مخدِّرٍ قادرٍ على أن يُنوِّم وحيد قرن.

أشقّ ما في الأمر كان حفر حفرة عميقة تتسع لمخلوق بطول البهيمة. الجميع تناوبوا على الرفش بالمعاول باستثناء ناديا ولبلانك، الأولى لأنّها تعترض على فكرة إلحاق الأذى بأيّ حيوان، والثاني لأنّ ظهره يؤلمه. كانت التربة مختلفة جدّاً عما اعتقد الأستاذ حين صمَّم فخّه وهو يقيم مرتاحاً في غرفة مكتبه في بيته، على بعد آلاف الأميال. فقد كانت هناك قشرة رقيقة من الدُبال، وتحتها شبكة

من الجذور قاسية، تليها طبقة من الطين الزلق كالصابون، ومع تقدّمهم في الحفر راحت الحفرة تمتلئُ بمياه ضاربة للحمرة تسبح فيها كلّ أنواع الدُويِّبات. أخيراً تخلّوا عنها، فقد هزمتهم العوائق. اقترح ألِكس استخدامِ الشباك بتعليقها إلى الأشجار بوساطة نظام من الحبال يُوضَعُ الطُعْمُ تحتها، وحين تقترب الفريسةُ لتسطو على الطعم يطلق إنذاراً، وتسقط الشبكة فوقه على الفور. اعتبرَ الجميعُ، باستثناء لبلانك، أنّ هذا يمكن أن تؤدي وظيفته نظرياً، لكنّهم كانوا متعبين جدّاً ولا يستطيعون تجريبها فقرّروا أن يؤجّلوا المشروع إلى صباح الغد.

ـ آمل أن تفيدنا فكرتك يا جغوار ـ قالت ناديا.

ـ البهيمة خطيرة ـ ردّ الفتى.

ـ ماذا سيفعلون بها إذا تمكّنوا منها؟ يقتلونها؟ يقطعونها إرباً لدراستها؟ يضعونها في قفص بقيّةَ حياتها؟

ـ ما الحلّ عندك يا ناديا؟

ـ أن أتكلّم معها، وأسألها ماذا تريد؟

ـ يا لها من فكرة عبقرية! نستطيع أن ندعوها لتناول الشاي... ـ سخر.

ـ جميع الحيوانات تتواصل ـ أكّدت ناديا.

ـ هذا ما تقوله أختي نيكول، لكنّها في التاسعة من عمرها.

ـ أرى أنّها وهي في التاسعة تعرف أكثر منك وأنت في الخامسة عشرة ـ ردّت ناديا.

كانوا في مكان جميل جداً. فالنباتات الكثيفة والمتشابكة على الضفّة تتباعد باتجاه الداخل حيث تُكتسب الغابة جلالاً عظيمة. جذوع الأشجار السامقة والمستقيمة، تبدو أشبه بدعامات كاتدرائية خضراء رائعة. كانت السحلبيات وأزهار أخرى تتدلّى من الأغصان وسراخس برّاقة تُغطي الأرض. وكانت الحيوانات من التنوّع بحيث لم يكن هناك لحظة صمت، يُسْمَعُ صداحُ طيور الطوقان والببغاوات

منذ الفجر وحتى حلول الليل. وفي الليل يبدأ نقيق الضفادع والقردة النابحة. ومع ذلك كانت جنّة عدن تلك تُخفي مخاطرَ كثيرة، فالمسافات هائلة، والعزلة مطلقة ومن المحال أن يعرف المرءُ موقعه دون معرفة مسبقة للأرض. الطريقة الوحيدة للتحرّك في تلك المنطقة، بحسب قول لبلانك ـ وكان سيزَرْ سانتوس متفقاً معه في ذلك ـ هي بمساعدة الهنود. عليهم أن يجذبوهم إليهم. كانت الدكتورة تورِّس من أكثر المهتمين بذلك، لأنّ عليها أن تقوم بمهمّة تلقيحهم وإقامة نظام مراقبة صحية، حسب ما وضّحت.

ـ لا أعتقد أنَّ الهنود سوف يُقدّمون إليك أذرعهم طوعاً كي تخزيهم بلقاحاتك يا أمَيْرَةْ. إنهم لم يروا حقنة في حياتهم ـ ابتسم سيزَرْ سانتوس. فقد كان يجري بينهما تيار من المودة وصارا يتعاملان بألفة منذ بعض الوقت.

ـ سنقول لهم إنّه سحر جبّار من صنع البيض ـ قالت وهي تغمز له بعينها.

ـ وهذا صحيح تماماً ـ وافقها سيزَرْ سانتوس.

كان هناك، حسب قول الدليل، عدّة قبائل حولهم، لا بدّ أنّها أقامت اتصالاً ما، حتى ولو كان قصيراً، مع العالم الخارجي. فقد لمح من طائرته الصغيرة بعض الشابونات، لكن وبما أنّه لم يكن هناك مكان يحطّ فيه في تلك النواحي، فقد اكتفى بالإشارة إليها على الخريطة. وكانت تلك الأكواخ الجماعية تميلُ إلى الصغر، وهو ما يدلُّ على أنّ القبيلة مؤلّفة من عددٍ صغيرٍ جداً من الأسر. وحسب ما كان يؤكّد الأستاذ لبلانك، الذي كان يدّعي أنّه خبير بالموضوع، فإنّ الحد الأدنى في الشابونو الواحدة هو حوالي الخمسين شخصاً ـ فهم لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم بأقلّ من ذلك ـ ونادراً ما يتجاوزون المئتين والخمسين شخصاً. كذلك كان سيزَرْ سانتوس يشكّ بوجود قبائل متفرّقة لم تُرَ بعد، مثلما تأمل الدكتورة تورِّس، والطريقة الوحيدة للوصول إليهم هي عبر الجوّ. عليهم أن يصعدوا

إلى أدغال الهضبة، إلى منطقة الشلالات الساحرة، التي لم يستطِع الغرباء أن يصلوا إليها قبل اختراع الطيران والحوّامات.

وبهدفِ جذب الهنود ربط الدليلُ حبلاً بين شجرتين وعلّق عليه بعض الهدايا: أطواقاً من الخرز، خرقاً ملونة، مرايا، ترهات من البلاستيك. واحتفظ بالحراب والسكاكين والأدوات الفولاذية لوقت آخر، حين تبدأ المفاوضات الحقيقيّة وتبادل الهدايا.

حاول سيزَرْ سانتوس في ذلك المساء الاتصال بالنقيب أريوستو وماوْرو كاريّاس في سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا بالراديو، لكن الجهاز لم يعمل. كان الأستاذ لبلانك يتمشّىٰ في المعسكر غاضباً أمام ذلك العائق، بينما راح الآخرون يتناوبون محاولين عبثاً إرسال أو استقبال أيّ رسالة. أخذت ناديا ألِكسْ جانباً لتحكي له أنّها رأت، في الليلة الماضية وقبل اغتيال الجندي خلال مناوبة كاراكاوِ، الهنديَّ يعبث بالراديو. قالت إنّها نامت حين أنهت نوبة حراستها، لكنّها لم تنم فوراً، واستطاعت أن ترى من أرجوحة نومها كاراكاوِ بالقرب من الجهاز.

ـ هل رأيته بوضوح يا ناديا؟

ـ لا، لأنّ الوقت كان ظلاماً، لكن الوحيدين الذين كانوا واقفين في تلك المناوبة هم الجنديان وكاراكاوِ. أكاد أكون واثقة من أنّه لم يكن أيّاً من الجنديين ـ ردّت ـ أظنُّ أنّ كاراكاوِ هو الشخص الذي ذكره ماوْرو كاريّاس. وربّما كان جزءاً من المخطط أنّ لا نستطيع طلب المساعدة في حال الحاجة إليها.

ـ علينا أن ننبّه أباكِ ـ قرّر ألِكس.

لم يتلقّ سيزَرْ سانتوس الخبر باهتمام، واقتصر على تنبيههم بأن عليهما أن يكونا واثقين قبل أن يتّهما أحداً. فهناك أسباب كثيرة يمكن أن تجعل جهازاً قديماً كهذا لا يعمل. ثمّ ما الدافع الذي يجعل كاراكاوِ يُخرّبه؟ إذ ليس من صالحه أيضاً أن يجد نفسه معزولاً. وطمأنهما أن الدعم سوف يصلهم خلال ثلاثة أو أربعة أيّام.

ـ لسنا ضائعين، بل معزولين فقط ـ خلُص إلى القول.

ـ والبهيمة يا أبي؟ ـ سألت قلقةً.

ـ لا نعرف ما إذا كانت موجودةً يا بُنيّتي. بينما نكاد نكون واثقين من وجود الهنود. عاجلاً أو آجلاً سيقتربون، ونأمل أن يفعلوا ذلك بسلام. في جميع الأحوال نحن مسلّحون بشكلٍ جيّد.

ـ الجندي الذي مات كان يحمل بندقيّة، لكنّها لم تنفعه في شيء ـ دحض ألِكس قوله.

ـ لقد شرد. من الآن فصاعداً علينا أن نكون حذرين جدّاً. من المؤسف أنّنا أصبحنا ستّة بالغين فقط للحراسة.

ـ أنا أعتبر نفسي بالغاً ـ أكّدَ ألِكس.

ـ حسناً، لكنّ ناديا ليست كذلك. فهي تستطيع أن تُرافقني في مناوبتي فقط ـ حسم سيزَرْ سانتوس الأمر.

في ذلك اليوم اكتشفت ناديا قرب المخيّم شجرةَ أوروكو بّود فقطفت عدداً من ثمارها، التي تبدو لوزاً مقشوراً، وفتحتها وأخرجت منها عدداً من البذور الحمراء. حين هصرتها بين أصابعها وخلطتها بقليل من اللعاب شكّلت عجينة حمراء لها قوام الصابون، هي ذاتها التي يستخدمها الهنود مع صباغات نباتية أخرى لتزيين الجسد. رسمت ناديا وألِكس خطوطاً ودوائر ونقاطاً على وجهيهما. ثمّ ربطا ريشاً وبذوراً حول أذرعهما. أصرّ تيموثي بروس وكات كولدْ حين رأياهما أن يلتقطا لهما صوراً، وألحت وأمَيْرة تورِّسْ على أن تسرّح شعر الصغيرة المجعد وتزيّنه بأوركيديا صغيرة. بينما لم يُسرّ سيزَرْ سانتوس لذلك: فمشهد ابنته مزيّنة مثل فتاة من سكان البلد الأصليين بدا أنّه ملأه بالحزن.

حين خفّ النور، قدّروا أنّ الشمسَ تُسارع في مكان ما إلى المغيب في الأفق مُفسحة المجالَ لليل؛ فهي نادراً ما تظهر تحت قبّة الأشجار، وبهاؤها كان باهتاً وهو يتسرّب من تخاريم الطبيعة الخضراء. ولا تُشاهَد عينُ السماء الزرقاء بوضوح إلاّ أحياناً حيث سقطت شجرة. في تلك الساعة كانت ظلال النباتات قد بدأت تلفهم

مثل الأسوار، وخلال ساعة ستصبح الغابة سوداء ثقيلة. طلبت ناديا من ألِكسْ أن يعزف لها على الناي كي يُسلّيهم، وسرعان ما غزت الموسيقى الرقيقةُ والشفافةُ الأدغالَ. كان القردُ بوروبا يتابع اللحن مُحرّكاً رأسه على وقع النغمات الموسيقية. وكان سيزَرْ سانتوس وأُمَيْرَة تورُس يجلسان القرفصاء بجانب النار، يشويان بعض الأسماك للعشاء، بينما كات كولْدْ وتيموثي بروس وأحد الجنديين منهمكين في تقوية الخيام وحماية المؤن من القرود والنمل؛ وكاراكاوِ والجنديّ الآخر مسلّحان يراقبان بيقظة. وكان الأستاذ لبلانك يُملي الأفكار التي تخطر بباله على مسجلة جيب يحملها معه وهي في متناول يده دائماً، فقد تخطرُ بباله فكرة خطيرة، يجب ألا تخسرها البشرية، وهوَ ما كان يتكرّر حدوثه بحيث أنّ الفتيين المنزعجين كانا ينتظران الفرصة المناسبة كي يسرقا له البطاريات. وبما أن بوروبا قد بدّل تركيزه بعد خمس عشرة دقيقة من لحن الناي، وبدأ يقفز مضطرباً ويشدّ صاحبته من ثيابها، فقد حاولت ناديا في البداية أن تتجاهله، لكنّ الحيوان لم يتركها بسلام حتى نهضت على قدميها. ثمّ وبعد أن سرقت النظر باتجاه الدغل نادت ألِكسْ بإيماءة منها وقادته بعيداً عن دائرة نور الصلاء، دون أن تلفت انتباه الآخرين.

- هس - قالت ذلك وقد وضعت إصبعها على شفتيها.

كان ما يزال هناك بعض من نور النهار، لكن الألوان لا تكاد تُمَيَّزُ والعالم يظهر بتدرجات الرماديّ والأسود. منذ أن خرج ألِكسْ من سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا صار يشعر بنفسه مراقباً باستمرار، لكنّ إحساسه بأنّهم يتجسّسون عليه زال عنه في ذلك المساء بالتحديد وداهمه شعور بالسكينة والأمان لم يشعر بهما منذ أيّام كثيرة. كما أن الرائحة النفاذة التي رافقت مقتل الجنديّ في الليلة الماضية قد اختفت. توغّل الفتيان وبوروبا عدّة أمتار بين النباتات وانتظرا هناك بفضول أكثر مما بقلق. افترضا، دون أن يُصرّحا، أنّه لو كان هناك هنودٌ حولهم وأرادوا أن يؤذوهم لفعلوا ذلك، لأنّ رجال البعثة، المضائين جيّداً بصلاء المعسكر كانوا في متناول سهامهم ونبالهم المسمومة.

انتظرا ساكنين وهما يشعران كأنهما يغوصان في ضباب قطنيّ، وضاعت مع هبوط الليل أبعاد الواقع. عندئذٍ راح أَلِكسْ يرى شيئاً فشيئاً الكائنات التي تحيط بهما واحداً واحداً. كانوا عراةً، موسومين بالخطوط والبقع، على أذرعهم ريش وسيور جلدية، صامتين، خِفافاً، جامدين. وعلى الرغم من أنّهم كانوا بجانبهما إلاّ أنّه كان من الصعب عليهما رؤيتهم، فقد تماهوا تماماً بالطبيعة حتى صاروا غير مرئيين، كأنّهم أشباح باهتة. وحين استطاع أَلِكسْ تمييزهم قدّر أنّهم بحدود العشرين، جميعهم رجال، ويحملون في أيديهم أسلحتهم البدائية.

ـ أيا ـ همست ناديا بهدوء كبير.

لم يُجبها أحد، لكنّ حركة بين الأوراق، لا يُحسّ بها إلاّ بصعوبة، دلّت على أنَّ الهنود يقتربون. لم يكن أَلِكس في شبه الظلمة واثقاً مما كان يرى، لكنّ قلبه أسلم العنان للخبب المجنون وشعر بالدم يطرق صدغيه. لفّه إحساس مبهر بأنّه يعيش حلماً، هو ذاته الذي شعر به بحضور الجغوار الأسود في فناء ماوْرو كاريّاس. التوتر ذاته، كما لو أنّ الأحداث تجري في فقاعة من زجاج يمكن أن تتشظى في أيّة لحظة. كان الخطر في الجوّ، تماماً كما كان مع الجغوار، لكنّ الفتى لم يخف. فهو لم يعتقد أنّه مهدَّد من تلك الكائنات الشفافة التي تطفو بين الأشجار. لم يخطر بباله أن يُخْرِجَ سكينه أو يصيح طالباً النجدة. بالمقابل مرّ في ذهنه، مثل برق، مشهدٌ كان قد رآه قبل سنوات في السينما: لقاء طفل بسكانٍ من كواكب أخرى. الحالة التي كان يعيشها في تلك اللحظة مشابهةٌ. فكّر مفتوناً بأنّه لا يبدّل تلك التجربة بأيّ شيء في العالم.

ـ أيّا ـ كرّرت ناديا.

ـ أيّا ـ همس بدوره.

لم يأت أي جواب.

انتظر الفتيان دون أن يفلت أحد منهما يدَ الآخر، جامدَيْن مثل تمثالين، وكذلك بوروبا التزم الهدوء مترقِّباً، كما لو أنّه يعلم أنه

يشارك في لحظة رائعة. مرّت دقائق لا تنتهي، وهبط الليل بسرعة كبيرة ولفّهما تماماً. أخيراً انتبها إلى أنّهما وحيدين، والهنود تبخّروا بالخفّة التي انبثقوا فيها من العدم.

ـ من تراهم كانوا؟ ـ سأل ألِكس حين عادا إلى المُخيّم.

ـ لا بدّ أنّهم «أهل الضباب» اللامرئيون، أقدم سكان الأمازون وأكثرهم غموضاً. يُعرف أنّهم موجودون، لكنّ، في الحقيقة لا أحد تكلّم معهم.

ـ ماذا يريدون منّا ـ سأل ألِكس.

ـ ربّما أن يروا كيف نحن... ـ ارتأت.

ـ وأنا أريد الشيء ذاته ـ قال.

ـ لن نقول لأحدٍ أنّنا رأيناهم يا جغوار.

ـ غريب أنّهم لم يُهاجمونا، ولم يقتربوا تجذبهم الهدايا التي علّقها أبوكِ ـ علّق الفتى.

ـ هل تعتقد أنّهم هم الذين قتلوا الجنديّ في الزورق؟ ـ سألت ناديا.

ـ لا أدري، لكن إذا كانوا هم أنفسهم، فلماذا لم يُهاجمونا اليوم؟

في تلك الليلة قام ألِكس بحراسته إلى جانب جدّته دون خوف، لأنّه لم يشعر برائحة البهيمة ولم يشغله الهنود. بعد اللقاء الغريب معهم أصبح على قناعة بأنّ فائدة بعض المسدسات قليلة جدّاً إذا أرادوا أن يهاجموهم. فكيف يمكن التسديد على كائنات غير مرئية؟ كان الهنود يتلاشون مثل الأشباح في الليل، أشباح خرساء يمكن أن تُباغتهم وتقتلهم في ما لا يتعدّى اللحظة دون أن يتمكنوا من الانتباه لذلك. ومع ذلك كان متأكّداً في أعماقه أنّ مقاصد أهل الضباب لم تكن تلك.

10

مخطوفان

مرَّ اليوم التالي بطيئاً ومزعجاً، كان المطر من الغزارة بحيث أنّهم لا يكادون يُجفّفون ثيابهم حتى يهطل وابل آخر. في تلك الليلة بالذات اختفى الجنديان في أثناء مناوبتهما، وسرعان ما اكتشفوا أنّ الزورقَ أيضاً غير موجود. الرجلان اللذان أصيبا بالذعر منذ موت زميليهما هربا في النهر. أوشكا أن يتمرّدا حين لم يسمحوا لهما بالعودة إلى سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا في الزورق الأوّل، وقالا إنه لاأحد يدفع لهما مقابل مخاطرتهما. ورد عليهما سيزر سانتوس بأن المراقب الذي يدفع لهما هو من أجل ذلك بالضبط: أَلَيْسا جنديّين؟ قرار الهرب يمكن أن يكلّفهما غالياً، لكنّهما كانا يُفضّلان المثول أمام محكمة عسكرية على الموت على أيدي الهنود أو البهيمة. كان ذلك الزورق يمثّل بالنسبة إلى بقيّة أعضاء البعثة الإمكانية الوحيدة المتاحة للعودة إلى الحضارة؛ ومن دونه وبتعطل الراديو سيكونون معزولين نهائيّاً.

ـ يعرف الهنودُ أنّنا هنا. لا يمكن أن نبقى ـ صاح الأستاذ لبلانك.

ـ إلى أين تريد أن تذهب يا أستاذ؟ إذا تحرّكنا وجاءت المروحيات فلن يجدونا. من الجوّ لا تُرى سوى بقعة خضراء! لن يعثروا علينا أبداً ـ وضّح سيزَرْ سانتوس.

ـ ألا نستطيع اتباع مجرى النهر ومحاولة الوصول إلى سانتا ماريّا دِ لا ليبوبيا، بوسائلنا الخاصّة؟ ـ اقترحت كات كولْدْ

ـ من المحال ذلك سيراً على الأقدام. هناك عوائق وانحرافات أكثر من اللازم ـ ردّ الدليل.

ـ هذه خطيئتكِ يا كولْدْ! كان علينا أن نعودَ جميعاً إلى سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا، كما اقترحتُ ـ علّل الأستاذ.

ـ حسناً جداً، إنّها خطيئتي. ماذا ستفعل بهذا الخصوص؟ ـ سألت الكاتبة.

ـ سأفضحُكِ! سأدمّر سمعتك المهنية!

ـ ربّما كنتُ أنا من سيُدمّر سمعتك يا أستاذ ـ ردّت هي دون أن تتبدّل.

قاطعهما سيزَر سانتوس قائلاً إنّه عليهم، بدل أن يتجادلوا، أن يوحّدوا قواهم ويُقيّموا الوضع: فالهنود لا يثقون بهم ولا يُبدون اهتماماً بالهدايا، ويكتفون بمراقبتهم، لكنّهم لم يهاجموهم.

ـ هل يبدوا لك قليلاً ما فعلوه بذلك الجنديّ المسكين؟ ـ سأل لبلانك مستهزئاً.

ـ لا أظنّ أنهم الهنود، ليست هذه طريقتهم في القتال. وإذا حالفنا الحظّ يمكن أن تكون هذه القبيلة مُسالِمة ـ ردّ الدليلُ.

ـ لكنّهم سيأكلوننا إذا لم يُحالِفنا الحظّ ـ دمدم الأنثروبولوجي.

ـ سيكون هذا شيئاً رائعاً يا أستاذ. بذلك تستطيع أن تبرهن عن نظريّتك حول شراسة الهنود ـ قالت كات.

ـ حسناً، يكفي تُرّهات. علينا أن نُقرِّر. نبقى أم نذهب... ـ قاطعهم المُصوِّر تيموثي بورس.

مرّت ثلاثة أيّام على ذهاب الزورق الأوّل. وبما أنّه ذهب مع التيار، وماتوّ يعرف الطريق، فلا بدَّ أنهم وصلوا إلى سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا. غداً أو بعد يومين كحدّ أقصى ستصل مروحيات النقيب

أريوستو، لذلك علينا أن نُبْقي على النار مشتعلة، كي يروا الدخان. الوضع صعب، كما قلتُ، لكنّه ليس خطيراً، هناك كثيرون يعرفون أين نحن، سيأتون للبحث عنّا ـ أكَّد سيزَر سانتوس.

كانت ناديا مطمئنّة، وهي تحتضن قِردَها، كما لو أنّها لا تُدرِك هول ما يجري. بينما توصّل أَلِكس إلى أنّه لم يجد نفسه في مثل ذلك الخطر ولا حين بقي معلّقاً في الكابيتان، تلك الصخرة شديدة الانحدار التي لا يجرؤ على تسلّقها إلا أكثر المتسلّقين خبرة. ولو لم يكن مربوطاً بحبلٍ إلى خصر والده لكان مات.

كان سيزَر سانتوس قد حذّر رجالَ البعثة من مختلف حشرات الغابة وحيواناتها، بدءاً من العناكب السامة وحتى الأفاعي، لكنّه نسي أن يَذْكر النملَ. كان أَلِكس قد تخلّى عن استخدام الجزمة، ليس لأنّها دائماً رطبة وكريهة الرائحة وحسب، بل لأنّها تضغط على قدميه أيضاً؛ وكان يعتقد أنّها انكمشت بفعل الماء. ومع أنّه لم يخلع الخُفَّ العتيق الذي أعطاه له سيزَر سانتوس في الأيام الأولى، فقد امتلأت قدماه بالقشور والكنَب.

ـ هذا المكان ليس للأقدام الناعمة ـ كان هذا التعليق الوحيد الذي أبدته جدّته حين أراها التشققات الدامية في قدميه.

لكن لامبالاتها تحوّلت إلى قلقٍ حين لسعت حفيدَها نملة نار. لم يتمكّن الفتى من إخفاء صرخته: فقد شعر بأنّهم يحرقونه بسيجارة في كعبه. تركت النملة علامة بيضاء صغيرة تحوّلت بعد دقائق قليلة إلى حمراء منتفخة مثل حبّة كرز. وصعد الألم على شكل لهبٍ في ساقه، ولم يستطع أن يخطو بعدها خطوة واحدة. حذّرته الدكتور أُمَيْرَةْ تورِّس من أنّ السمّ سيأخذ مفعوله بعد ساعات، وعليه أن يتحمّله دون أيّ مُسكّنٍ غير كمادات الماء الساخن.

ـ آملُ ألا تتحسَّسَ، لأنّ التبعات في هذه الحالة ستكون أخطر ـ أبدت الدكتورة رأيها.

لم يكن أَلِكس يتحسّس، لكنّ اللسعة خرَّبت عليه جزءاً كبيراً من

يومه. ففي المساء لم يحرّك قدمه ويخطو عدّة خطواتٍ إلاّ بمشقّة، وقد حَكَتْ له ناديا أنه بينما كان الجميع منشغلين بشؤونهم رأت كاراكاوِ يُفتِّش صناديق اللقاح. وحين انتبه الهنديّ إلى أنّها اكتشفته أمسكها من ذراعيها بوحشيّة تركت أثر أصابعه ظاهرة في جلدها وحذّرها من أنّها ستدفع الثمن غالياً إن هي قالت كلمة واحدة بذلك الخصوص. كانت واثقة من أنّ ذلك الرجل ينفّذ تهديداته، لكنّ ألِكس رأى أنّهما لا يستطيعان السكوت، ويجب تنبيه الدكتورة. ناديا، المولعة مثل أبيها بالدكتورة وبدأ يداعب خيالها تصوّرُ أن تراها زوجة لأبيها، رغبت بأن تحكي لها عن الحوار الذي جرى بين ماؤرو كاريّاس والنقيب أريوستو، الذي سمعاه في سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا. كانت ما تزال على قناعة بأنّ كاراكاوِ هو الشخص المعيّن لتنفيذ مخططات كاريّاس المشؤومة.

ـ لن نقول أيّ شيء من هذا الآن ـ طلب ألِكس منها.

انتظرا اللحظة المناسبة، حين ابتعد كاراكاوِ ليصطاد في النهر، وطرحا المسألة على أُمَيْرَة تورِّس. أصغت إليهما باهتمامٍ كبير، وظهرت علامات القلق عليها لأوّل مرّة منذ عرفاها. فحتى في أكثر لحظات المغامرة مأساوية لم تفقد الدكتورة الساحرة هدوءَها؛ فقد كانت لها أعصاب ساموراي قويّة جدّاً. هذه المرّة أيضاً لم تتوتّر، لكنّها أرادت أن تعرف التفاصيل. وحين علمت بأنّ كاراكاوِ فتح الصناديق دون أن يتعرّض لخاتم العبوات، تنفّست الصعداء.

ـ هذه اللقاحات هي أمل الهنود الوحيد بالحياة. علينا أن نعتني بها كما لو أنّها كنز ـ قالت.

ـ راقبنا أنا وألِكس كاراكاوِ؛ ونعتقد أنّه عطّل الراديو، ولكنّ أبي يقول أنّنا لا نستطيع أن نتّهمه دون إثباتات ـ قالت ناديا.

ـ علينا ألاّ نشغل أباك بهذه الشكوك يا ناديا، فعنده من المشاكل ما يكفي. نستطيع أنا وأنتما أن نحيّد كاراكاوِ. لا ترفعا عيونكما عنه أيّها الفتيان ـ طلبت أُميْرَة تورِّس منهما فوعداها بذلك.

انقضى النهار دون مستجدّات، وبقي سيزَر تورِّس مصرّاً على

إصلاح جهاز الإرسال، لكن دون نتيجة. كان تيموثي بروس يملك راديو أفادهم في سماع أخبار ماناوس خلال القسم الأوّل من الرحلة، ولكنّ الموجة لم تكن تغطّي أكثر من ذلك. أُصيبوا بالملل لأنّه لم يكن لديهم ما يفعلونه بعد اصطياد بعض الطيور والأسماك لذلك اليوم، وكان من العبث أن يصطادوا أكثر، لأنّ اللحم يمتلئ بالنمل أو يفسد في عدّة ساعات. أخيراً استطاع أَلِكس أن يَفهَم عقلية الهنود، الذين لا يراكمون شيئاً. تناوبوا من أجل الإبقاء على النار مشتعلة، كعلامة في حال أنّهم يبحثون عنهم، مع أنّ الوقت كان ما يزال باكراً على ذلك، حسب رأي سيزَر سانتوس. أخرج تيموثي بروس حزمة ورق لعب مهترئة ولعبوا البوكر والبلاك جاك والجين رومي حتى راح النور يتلاشى. وما عادوا يشعرون برائحة البهيمة النافذة.

.

ذهبت ناديا وكات كولْدْ والدكتورة إلى النهر ليغتسلن ويقضين حاجاتهنّ. وكانوا قد اتفقوا ألا يُغامِر أيٌّ منهم منفرداً بعيداً عن المخيّم. الثلاثة كنّ يذهبن معاً لقضاء الحاجات الخاصّة جدّاً، أمّا بقيّة الأمور فيتناوب عليها الجميع مثنىً مثنىً. وكان سيزَر سانتوس يتدبّر أمره دائماً بحيث يكون دائماً مع أُمَيْرَة تورِّس، وهو ما كان يبقي على تيموثي بروس منزعجاً كفاية، لأنّ الإنكليزيّ كان يشعر أيضاً بأنّه مسحور بالدكتورة. وبقي يصوّرها خلال الرحلة إلى أن رفضت الاستمرار بالوقوف أمام آلة التصوير على الرغم من أنّ كات كولْدْ نبّهته إلى أنّ عليه أن يخبّئ الفيلم للبهيمة والهنود. فقد كانت الكاتبة وكاراكاوِ الوحيدين اللذين لا يبدو أنّهما مذهولين بجمال المرأة الشابّة. فقد غمغمت كات بأنّها صارت من الشيخوخة إلى حدٍّ لا يسمح لها بالنظر إلى وجهٍ بمثل ذلك الجمال، التعليق الذي اشتمّ منه أَلِكس نوعاً من الغيرة لا يليق بامرأة بنباهة جدّته. الأستاذ لبلانك، الذي لم يكن باستطاعته أن ينافس وقاراً كوقارِ سيزَر سانتوس ولا شباباً كشباب تيموثي بروس، كان يُحاول أن يدهِش المرأة بثقل شهرته، فلا يضيع فرصة يقرأ لها فيها بصوت عالٍ

مقاطِع من كتابه تروي بالتفصيل الأخطارَ المرعبة التي واجهها بين الهنود. كان يصعب عليها أن تتصوّر لبلانك الهيّاب مرتدياً مئزراً لا يستر غير عورته، يصارع بيديه الهنود والضواري، ويصطاد بالسهام، ويعيش دون مساعدة من أحدٍ وسطَ كلّ أنواع الكوارث الطبيعية التي يرويها. في جميع الأحوال كانت المنافسة بين رجال المجموعة على لفت انتباه أُمَيْرة تورّسْ قد خلقت بعضَ التوتر الذي راح يتفاقم مع مرور الساعات العصيبة بانتظار المروحيات.

نظر ألِكس إلى كعبه: كان ما يزال يؤلمه، وقد انتفخ قليلاً، لكنّ حبّة الكرز التي ظهرت حيث لسعته النملة خفّت؛ فقد أعطت كمادات الماء الساخن نتائج جيّدة. ولكي يتسلّى أخذ نايه وبدأ يعزف لحن أمّه المُفضَّل، وهو موسيقى عذبة ورومانسية لمؤلّف موسيقيّ أوروبّي مات منذ أكثر من قرن، لكّن لها وقع متناغم مع الغابة حوله. لقد كان جدّه جوزيف كولْدْ على حقّ: الموسيقى لغة كونية. ومع أوّل نغمة جاء بوروبا يقفز وجلس عند قدميه بجدّية ناقدٍ، وبعد لحظات عادت ناديا مع الدكتورة وكات كولْدْ. انتظرت الصغيرة حتى انشغل الآخرون بتحضير المخيّم لليل وأشارت لألِكس بأن يتبعها خفيةً.

ـ إنّهم هنا من جديد يا جغوار ـ همست في أذنه.

ـ الهنود...؟

ـ نعم، أهل الضباب. أظنّ أنّهم جاؤوا من أجل الموسيقى. لا تصدر جلبة واتبعني.

توغّلا عدّة أمتار في الدغل، وانتظرا كما فعلا من قبل ساكنين. وعلى الرغم من تحديق ألِكس الشديد إلاّ أنّه لم يميّز أحداً بين الأشجار؛ كان الهنود يذوبون في محيطهم. فجأة شعر بيدين تمسكان بذراعيه بقوّة وحين التفت وجد أنهما، هو وناديا، محاصران. لم يبق الهنود على مسافةٍ معيّنة، كما في المرّة السابقة. هذه المرّة كان باستطاعة ألِكس أن يشعر برائحة أجسادهم الحلوة. ومن جديد لاحظ قصر قامتهم ونحولهم، لكنّه استطاع هذه المرّة أن

يتأكّد من أنّهم أيضاً أقوياء جدّاً وأن في موقفهم شيئاً من الضراوة. هل كان لبلانك على حقّ حين يؤكّد أنّهم عنيفون وقساة؟

ـ أيا ـ حيّا بإغواء.

أغلقت يدٌ فمه قبل أن يستطيع أن يُدرِك ما كان يجري. وشعر بنفسه مرفوعاً من كعبيه وإبطيه في الهواء. بدأ يتلوى ويصارع، لكنّ الأيدي لم تفلته. شعر بهم يضربونه على رأسه، لا يدري بقبضاتهم أم بحجر، لكنّه سرعان ما أدرك أنه من الأفضل له أن يتركهم يحملونه وإلاّ سينتهي بهم الأمر إلى تعذيبه أو قتله. فكّر بناديا وما إذا كانوا يجرّونها أيضاً بالقوّة. وبدا له أنّه يسمع صوت جدّته تناديه من بعيد، بينما الهنود يحملونه ويتوغّلون به في الظلمة مثل أرواح الليل.

كان ألِكساندر كولْدْ يشعر بوخز حارق في كعبه، في المكان الذي لسعته فيه النملة، وحيث تضغطها يد أحد الهنود الأربعة الذين يحملونه في الهواء. كان خاطفوه يمضون خبباً، فيترنّح جسد الفتى بقسوة مع كلّ خطوة، وكتفاه يؤلمانه كما لو أنّهم يخلعون مفاصله. كانوا قد نزعوا عنه قميصه القصير وربطوا به رأسه، مغمضين عينيه وكاتمين صوته، فلا يكاد يستطيع أن يتنفس ويشعر بنبض في رأسه، في المكان الذي ضربوه عليه، لكنّه ارتاح لأنّه لم يفقد الوعي، وهذا يعني أنّ المحاربين لم يضربوه بقوّة ولا يريدون قتله، على الأقل الآن... بدا له أنّهم قطعوا مسافة طويلة جدّاً حتى توقّفوا أخيراً، وتركوه يسقط مثل كيس من البطاطا. الراحة في عضلاته وعظامه كانت فوريةً تقريباً، على الرغم من أنّ كعبه ما يزال يحرقه بشكل مريع. لم يجرؤ على رفع القميص القصير الذي كان يُغطّي رأسه، كيلا يثير حفيظة المعتدين عليه، لكن وبما أنهّ لم يحدث شيء بعد برهةٍ من الانتظار فقد اختار أن ينتزعه. لم يوقِفه أحد، وحين ألفت عيناه ضوءَ القمر الخفيف وجد نفسه وسط الغابة مرمياً على فراش الدُبال، الذي يُغطّي الأرض. وشعر بوجود الهنود من حوله في دائرة

ضيقة، وإن كان لا يستطيع أن يراهم تحت ذلك الضوء الخفيف دون نظارته. تذكّر سكينه، سكين الجيش السويسري، وحمل يده بحذر إلى خصره بحثاً عنها، لكنّه لم يتمكن من إتمام الحركة: امتدّت يد قويّة وأمسكت به من معصمه. عندئذ سمع صوت ناديا وأحسّ بيدي بوروبا الصغيرتين والرقيقتين على شعره. أطلق صيحة قوية لأنّ القرد وضع أصابعه على ورم في رأسه تسبّبت له به الضربة.

ـ اهدأ يا جغوار وإلاّ فإنّهم سيؤذوننا ـ قالت الفتاة.

ـ ماذا جرى؟

ـ خافوا، ظنّوا أنّك ستصرخ، لذلك اضطروا إلى حملك بالقوّة. هم فقط يريدوننا أن نذهب معهم.

ـ إلى أين؟ لماذا؟ ـ تمتم الفتى محاولاً أن يجلس. كان يُحسّ برأسه يدوّي مثل طبلٍ.

ساعدته ناديا على النهوض وسقته ماءً من قرعةٍ. كانت عيناه قد ألفتا العتمة، ورأى أنّ الهنود يراقبونه عن قرب ويعلّقون بصوتٍ عالٍ، دون خوف من أن يُسمَعوا أو يُدرَكوا. افترض ألِكس أنّ بقية أعضاء البعثة يبحثون عنهما، وإن كان لا أحد يجرؤ على أن يُغامر بعيداً في وسط الليل. وفكّر أنّ جدّته ستكون للمرة الأولى قلقة؛ إذ كيف ستوضّح لابنها جون كولْدْ أنّها أضاعت حفيدها في الغابة؟ يبدو أنّ الهنود قد عاملوا ناديا برقّة أكبر، لأنّ الصبية كانت تتحرّك بينهم بثقة. وحين نهض شعر بشيء دافئ يسيل على صدغه الأيمن ويقطر فوق كتفه. مرّ بإصبعه عليه وحمله إلى شفتيه.

ـ فجّوا رأسي ـ همس خائفاً.

ـ تظاهرْ بأنّه لا يؤلمك يا جغوار كما يفعل المحاربون الحقيقيون ـ نبّهته ناديا.

خلُص الفتى إلى أنّ عليه أن يبرهن عن شجاعته. نهض على قدميه محاولاً ألاّ تُلاحَظَ رعشةُ ركبتيه، انتصب بأكثر ما استطاع من استقامة وضرب على صدره كما رآهم يفعلون في أفلام طرزان، وفي الوقت نفسه أطلق زمجرة من زمجرات كينغ كونغ التي لا تنتهي.

تراجع الهنود خطوتين وشهروا أسلحتهم مذهولين. فكرّر الضربات على صدره والزمجرة، واثقاً من أنّه أثار استنفاراً في صفوف أعدائه، لكنّهم وبدل أن يشرعوا بالجري خائفين بدؤوا يضحكون. ناديا ابتسمت أيضاً وبوروبا قفز وكشر عن أسنانه مجنوناً من الضحك. ازداد حجم الضحكات، بعض الهنود كان يسقط جالساً، وآخرون يسقطون على ظهورهم ويرفعون أرجلهم باستمتاع كامل، وآخرون قلّدوا الفتى بعواء مثل عواء طرزان. استمرّت القهقهات برهة طويلةً. أخيراً هدؤوا وجفّفوا دموعهم وتبادلوا ربتات الصداقة.

أحد الهنود الذين كانوا يبدون في الظلمة أصغر حجماً وأكبر سنّاً ويتميّز بتاجٍ مدوّر من الريش، الزينة الوحيدة التي تُزيّن جسده العاري، بدأ بخطابٍ مسهب. التقطت ناديا المعنى لأنّها كانت تعرف عدّة لغات هندية، وعلى الرغم من أنّه كان لأهلَ الضباب لغتهم الخاصّة بهم، إلاّ أنّ هناك كلمات كثيرة متشابهة. كانت على ثقة من أنّها تستطيع أن تتفاهم معهم. من شتائم رجلِ تاج الريش فهمت أنّه كان يُشير إلى الراهاكاناريوا، روحِ آكلِ لحم البشر الذي ذكره وَاليماي، والناهاب، كما يسمون الغرباء وتشامان الجبّار. وعلى الرغم من أنّه لم يُسمِّه، لأنّه لو فعل لكان في ذلك قلّة احترام من طرفه، استنتجت ناديا أنّ الأمر يتعلّق بوَاليماي. وبالاستفادة من الكلمات والإشارات التي تعرفها، أشارت الصبية إلى العظم المحفور الذي كان يتدلّى من عنقها، هديّة الساحر. تفحص الرجل، الذي كان يتصرّف كزعيم قبيلةٍ، الطلّسمَ دقائق طويلة مبدياً إعجابه واحترامه، ثمّ تابع خطابه، متوجّهاً هذه المرّة إلى المحاربين، الذين اقتربوا واحداً فواحداً ليحيّوا التميمة.

جلس الهنود بعد ذلك في حلقة وتابعوا أحاديثهم، وراحوا يوزّعون قطعاً من عجينة مطبوخة، تبدو كأنّها خبز من دون خميرة. انتبه أَلِكس إلى أنّه لم يأكل منذ ساعاتٍ طويلة وإلى أنّه يتضوّر جوعاً، فأخذ حصّته من العشاء دون أن يمعن النظر في قذارة الطعام أو يسأل ممّا هي مصنوعة. كان غنجه تجاه الطعام قد أصبح من

الماضي. سرعان ما أدار الرجال بينهم مثانة حيوانٍ فيها سائل لزج له رائحة زنخة وطعم خلّ، بينما راحوا يرتلون نشيداً يتحدّون به الأشباحَ التي تسبّب الكوابيس ليلاً. لم يقدّموا الشرابَ إلى ناديا، لكنّهم تلطّفوا وتقاسموه مع ألِكسْ، الذي لم ينفر من الرائحة ولا من فكرة مشاركة الآخرين الوعاءَ. تذكّر القصّة التي رواها سيزَر سانتوس عن قبيلة أصيبت بعدوى مرض من جرّاء مجة سيجارة من صحافيّ غريب. وآخر ما كان يرغب به هو أن ينقل جراثيمه إلى أولئك الهنود، الذين كان جهاز مناعتهم لا يُقاومها، لكنّ ناديا نبّهته إلى أنّ عدم قبوله يُعتبر إهانة. أخبرته أنّه ماساتو، وهو مشروب مخمَّر يُصنع من المنيهوت الممضوغ مع اللعاب، ولا يشربه إلاّ الرجال. اعتقد ألِكسْ أنّه سيتقيّأ حين شرحت له ذلك، ولكنه لم يجرؤ على رفضه.

ومع ضربة الرأس التي تلقاها على رأسِهِ والماساتو انتقل الفتى دون عناء إلى كوكب الرمال الذهبية والأقمار الستّة في السماء المتلألئة التي رآها في فناء ماورو كاريّاس. أخذ الاختلاط والتسمّم منه كلّ مأخذٍ فلم يعد باستطاعته أن يخطو خطوة واحدة، ومن حسن الحظّ أنّه لم يحتج للقيام بذلك، لأنّ المحاربين شعروا بتأثير المشروب فاضطجعوا على الأرض وراحوا يشخرون. اعتقد ألِكس أنّهم لن يتابعوا طريقهم حتى يظهر بعض النور. وواسى نفسه بالأمل المبهم بأنّ جدّته سوف تُدركه عند الفجر. استسلم للحلم متكوّراً على الأرض، لا يتنكّر أشباحَ الكوابيس، أو نملَ النار، أو العناكب، أو الأفاعي. كما لم يُصَب بالذعر حين اجتاحت رائحة البهيمة المريعة الجوَّ.

الوحيدان اللذان كانا متزنَيْنِ ومستيقظين حين ظهرت البهيمة هما ناديا وبوروبا. تجمّد القرد تماماً مثل حجر، وتمكّنت هي من لمحِ هيئة ضخمة تحت ضوء القمر قبل أن تُفقدَها الرائحةُ وعيَها. وسوف تروي بعد ذلك لصديقها ما قاله الأب بالدومِرو تماماً: كان مخلوقاً له رأسٍ صغير لا يتناسب مع حجم جسده وهيئة إنسان منتصب بطولٍ يقارب الأمتار الثلاثة، وذراعان جبّارتان تنتهيان

ببراثن معقوفة مثل سيوف عريضة. بدا لناديا أنّه يتحرّك ببطء شديد، لكن كان باستطاعته لو أراد أن ينتزع أحشاءهم جميعاً. فالنتن الذي كان يصدره ـ أو ربّما الهلع المطلق الذي كان ينزله بضحاياه ـ كان يشلّ كأنّه مخدِّر. أرادت قبل أن يغشى عليها أن تصرخ أو تهرب، لكنّها لم تستطع أن تُحرِّك عضلة من عضلاتها، وبلمح البصر رأت جسم الجندي مشقوقاً طولياً مثل دابّة، واستطاعت أن تتخيل ذعرَ الرجل وعجزه وموته المرعب.

استيقظ ألِكس مشوَّشاً وحاول أن يتذكّر ما جرى وهو خائر الجسد من مشروب ونتن الليلة الفائتة، الذي ما زال يعمّ الجوّ. رأى ناديا متربّعةً ونظرتها تائهة في العدم وبوروبا محتمياً في حضنها. حبا الفتى إليها وهو يكتم بمشقّة كبيرة تلوّي أحشائه.

ـ رأيتها يا جغوار ـ قالت ناديا بصوت ناءٍ، وكأنّها تُحتضَر.

ـ ماذا رأيتِ؟

ـ البهيمة. كانت هنا. إنّها هائلة، عملاقة...

ذهب ألِكس إلى جوار نبتة سرخس وأفرغ معدته، فشعر ببعض الراحة، على الرغم من أنّ رائحةَ نتن الجوّ أصابته بالغثيان من جديد. حين عاد كان المحاربون جاهزين للشروع بالمسير. استطاع تحت نور الفجر أن يراهم لأوّل مرّة. كان مظهرهم المخيف ينطبق تماماً على وصف لبلانك لهم: عراة، أجسادهم مصبوغة بالأحمر والأسود والأخضر، يضعون أساور من ريش، وشعرهم مقصوص بشكل دائريّ، ومحلوق في وسط الرأس مثل الرهبان المستجدين، يحملون أقواساً وسهاماً مربوطة إلى ظهورهم وقرعة ملفوفة بقطعة من الجلد، تحتوي، حسب قول ناديا، على الكورارِ القاتل من أجل السهام والنبال. ويحمل عددٌ منهم هراوات غليظة، وجميعهم يتزينون بندوب في رؤوسهم تعادل أوسمة الحرب التي يعتزّ بها الآخرون: فالشجاعة والقوّة تقاس بآثار ضربات الهراوات التي يتحملها المحارب.

كان على ألِكس أن يهزّ ناديا كي يُخرجها من ذهولها، لأن

الذعر من رؤية البهيمة في الليلة الفائتة تركها مخبولة. استطاعت الفتاة أن تشرح ما رأته فأصغى إليها المحاربون باهتمامٍ، لكنّهم لم يُبدوا أيَّ اندهاش، كما لم يُعلّقوا على الرائحة.

وعلى الفور شرعت المجموعة بالمسير تغذ الخطى في صفّ خلف الزعيم، الذي قرّرت ناديا أن تسمّيه موكاريتا، لأنها لا تستطيع أن تسأله عن اسمه الحقيقيّ. وبالحكم من خلال حال جلده وأسنانه وقدميه المشوّهتين كان موكاريتا أكثر شيخوخة مما ظنّ ألِكس حين رآه في شبه العتمة، لكنّه يمتلك رشاقة ومقاومة المحاربين الآخرين ذاتها. وكان هناك فتى يتميّز عن الآخرين بطوله وصلابة عوده، وهو بخلاف الآخرين كان مصبوغاً بكامله بالأسود باستثناء ما يشبه القناع الأحمر حول عينيه وعلى جبينه، يسير دائماً بجانب الزعيم، كما لو أنّه نائبه ويُشير إلى نفسه باسم تاهاما. علمت ناديا وألِكس فيما بعد أنّه لقب شرف منح له لأنّه أفضل صيّادٍ في القبيلة.

وعلى الرغم من أنّ المنظر بدا غير متبدّل، وأنه لا توجد نقاط علاّم فالهنود كانوا يعرفون أين هم بالضبط. ولم يلتفتوا مرّة واحدة ليروا ما إذا كان الفتيان الأجنبيان يتبعانهم: فهم يعرفون أنّه ليس أمامهما من سبيل غير أن يفعلا ذلك وإلاّ ضاعا. كان يبدو لألِكس أحياناً أنّهما وحدهما، لأنّ أهل الضباب يضيعون بين النباتات، لكنّ هذا الانطباع لم يكن ليدوم كثيراً، فكما كانوا يتبخّرون لا يلبثون أن يظهروا في أيّة لحظة، كما لو أنّهم يُمارِسون فنون التحول إلى لامرئيين. خلُص ألِكس إلى أنّ هذه الموهبة في الاختفاء لا يمكن أن تُعزى للطلاء الذي يموهون به أجسادهم فقط، بل كانت حالة ذهنيّة أيضاً. كيف يفعلون ذلك؟ قدّر كم هي مفيدة حيلة الاختفاء في الحياة، وقرر أن يتعلّمها. وفَهِمَ في الأيام التالية أنّ المسألة ليست وهماً، بل موهبة تُدرَك بكثير من الممارسة والتركيز، مثلها مثل عزف الناي.

لم يتبدّل إيقاع الخطوُ السريع خلال عدّة ساعات، ولم يتوقّفوا إلاّ بين الحين والآخر عند الجداول كي يشربوا ماءً. كان ألِكس يشعر بالجوع، لكنّه كان ممتنّاً لأنّ كعبه، حيث لسعته النملة ما عاد

يؤلمه. كان سيزَر سانتوس قد حكى له أنّ الهنودَ يأكلون متى استطاعوا ـ وليس دائماً كلّ يوم ـ وجهازهم معتاد على تخزين الطاقة؛ بينما برّاد بيته بالمقابل مليء دائماً بالأغذية، على الأقل حين كانت أمّه في عافيتها، وإذا ما فاتته وجبة في أحد الأيام شعر بالإنهاك. لم يستطع إلاّ أن يبتسم من اختلال عاداته. فهو بين أشياء أخرى لم يُنظّف أسنانه بالفرشاة، أو يُبدِّل ملابسه منذ عدّة أيَام. قرَّر أن يتجاهل فراغ معدته، أنْ يقضي على الجوع باللامبالاة. ونظر في مناسبتين إلى بوصلته، فاكتشف أنّهم يسيرون باتجاه الشمال. هل سيأتي أحد لإنقاذهم؟ كيف يستطيع أن يترك علاماتٍ في الطريق؟ هل سيرونهم من المروحية؟ لم يشعر بالتفاؤل، فقد كان وضعهما حرجاً في الحقيقة. أدهشه أنّ ناديا لم يَبْدُ عليها أيّ مظهرٍ من مظاهر التعب، بل بدا أنّ صديقته منسجمة تماماً مع المغامرة.

بعد أربع أو خمس ساعاتٍ ـ من المستحيل قياس الزمن في ذلك المكان ـ وصلوا إلى نهر صافٍ وعميق. تابعوا طريقهم على الضفّة قرابة الميلين، وفجأة انبثق أمام عيني ألِكس المذهولتين جبلٌ شاهق وشلاّلٌ يسقط مُحْدِثاً دويّاً كدويّ المعركة، مشكّلاً في الأسفل سحابة من الزبد والماء المذرّى.

ـ إنّه النهر الذي يهبط من السماء ـ قال تاهاما.

11

الضيعة الخفيّة

أَذِن موكاريتا، الزعيم ذو الريش الأصفر، للمجموعة بالراحة برهةً قبل أن يشرعوا بصعود الجبل. كان رصيناً وطيّباً وله وجه خشبيّ، وجلد مشقّق مثل لحاء شجرة.

ـ أنا لا أستطيع الصعود ـ قالت ناديا حين رأت الصخرة السوداء، الملساء والرطبة.

تلك كانت المرّة الأولى التي يراها فيها ألِكس مهزومة أمام عائق، وتعاطف معها، لأنه كان خائفاً أيضاً، على الرغم من أنّه تسلّق لسنواتٍ جبالاً وصخوراً. كان جون كولْدْ واحداً من المتسلقين الأكثر تجربة وجرأةً في الولايات المتحدة، فقد نزل إلى أماكن عصيّة، بل واستُدعِيَ مرّتين لإنقاذ أناس حوصروا في أعالي قمم النمسا وتشيلي. كان يعلم أنّه لا يملك مهارة أبيه أو شجاعته، فكيف بتجربته، كما لم يرَ قط صخرة لها انحدار التي أمامهم. إنّ التسلق على جانبي الشلال ودون حبل أو مساعدة أمر محال عملياً.

اقتربت ناديا من موكاريتا وحاولت أن تشرح له بالإشارات والكلمات المشتركة بينهما أنّها ليست قادرة على الصعود. فبدا الزعيم منزعِجاً جدّاً، وراح يصرخ ويهزّ غصونه ويومئ. كان الهنود الآخرون يُقلِّدونه ويحيطون بناديا مُهدِّدين. فوقف ألِكس إلى جانب صديقته وحاول أن يُهدِّئ المحاربين بالإشارات، لكن الشيء الوحيد

الذي حصل عليه هو أن تاهاما أخذ ناديا من شعرها وبدأ بشدّها منه مجرجراً إياها نحو الشلال، بينما بوروبا يُحرّك يديه ويزعق. وبنوع من الإلهام ـ أو القنوط ـ انتزع الناي من زناره وبدأ يعزف. وعلى الفور توقّف الهنود وكأنّهم مُغنطوا، وأفلت تاهاما ناديا وأحاطوا جميعاً بألِكس.

وما إنّ هدأت النفوس قليلاً حتى أقنع ألِكس ناديا بأنّه يستطيع أن يُساعدها على الصعود إذا وجدوا حبلاً. وكرّر عليها ما سمعَ أباه يقوله مرات ومرات: « قبل أن تهزم الجبلَ عليك أن تتعلّم استخدامَ الخوف».

ـ تُرعبني المرتفعات يا جغوار، فهي تُصيبني بالدوار. في كلّ مرّة أركب فيها في طائرة أبي أمرض... ـ أنَّتْ ناديا.

ـ يقول أبي إنّ الخوف شيءٌ جيّد، إنّه نظام إنذار في الجسد، يعلمنا بالخطر، لكن لا بدّ من الخطر أحياناً، وعندئذٍ يجب السيطرة عليه.

ـ لا أستطيع.

ـ أصغي إليّ يا ناديا ـ قال ألِكس ممسكاً بذراعيها ومجبراً إيّاها على النظر إلى عينيه ـ تنفّسي بعمق، اهدئي. سأُعلّمك استخدام الخوف. ثِقي بنفسِك وبي. سأُساعِدك على الصعود، سنقوم بذلك معاً، أعدُك بذلك.

وكجواب على كلّ ذلك انفجرت ناديا بالبكاء ورأسها على كتف ألِكس. لم يدرِ الفتى ما يفعل، فهو لم يكن قط على مثل هذا القرب من فتاة. في خياله كان قد عانق سيسيليا بورنز، حبيبته على مدى الحياة، آلافَ المرّات، لكنّها لو لمسته عملياً لراح يجري. كانت سيسيليا بورنز بعيدة عنه جدّاً، كأنّها غير موجودة. لم يكن باستطاعته تذكّر وجهها. أحاط ذراعاه بناديا بحركة آلية. وشعر بقلبه يخفق في صدره مثل إجفال الجواميس، لكنّ بصيرته وافته لينتبه إلى تفاهة الحالة. فهو وسط الأدغال، يحيط به محاربون مطليون بالألوان، ومعه فتاة مسكينة مذعورة بين ذراعيه، فبماذا

كان يُفكِّر؟ بالحبّ! استطاع أن يقاوم وينفصل عن ناديا ليواجهها بحزم.

ـ دعيكي من البكاء وقولي لهؤلاء السادة إنّنا بحاجة إلى حبل ـ أمرها مشيراً إلى الهنود ـ ثمّ تذكّري أنك تتمتّعين بحماية الطلسم.

ـ واليماي قال إنّه سيجميني من الرجال، والحيوانات والأشباح، لكنّه لم يذكر خطر أن أسقط وتُقصف رقبتي ـ وضّحت ناديا.

ـ كما تقول جدّتي سنموت بعلّة ما ـ واساها صديقُها مُحاوِلاً أن يبتسم. ثمّ أضاف ـ: ألم تقولي لي إنّ علينا أن نرى بالقلب؟ هذه مناسبة جيّدة كي نفعل ذلك.

تدبّرت ناديا أمرها كي تُبلِغَ الهنود طلب الفتى. وما إن فهموا عليها أخيراً حتى انهمك عدد منهم بالعمل، وسرعان ما صنعوا حبلاً من الليانة المجدولة. وحين رأوا ألِكس يربط خصرَ الصبية بالحبل ويلفّ الباقي على صدره أبدوا فضولاً كبيراً. لم يستطيعوا أن يتصوّروا لماذا يفعل الغرباء شيئاً بمثل تلك الحماقة: فإذا انزلق أحدهم جرّ معه الآخر.

اقتربت المجموعة من الشلال، الذي كان يسقط حرّاً من علوّ يتجاوز الخمسين متراً، وينفجر في الأسفل في غمامة من الماء مدهشة يتوّجها قوس قزح هائل. وهناك مئات الطيور السوداء تعبر الشلال في كلّ الاتجاهات. حيّا الهنود النهرَ الذي يهبط من السماء، صارخين وملوّحين بأسلحتهم: فقد اقتربوا من بلدهم. فهم حين يصعدون إلى الأراضي المرتفعة يشعرون بالأمان من كلّ خطر. ابتعد ثلاثة منهم في الغابة برهة وعادوا ومعهم بعض الكرات، التي حين تفحّصها الفَتَيان وجدا أنّها راتنج أبيض، كثيف ودبق جدّاً. فركا راحات أيديهم وأقدامهم بتلك العجينة مقلّدَين الآخرين. فراح الدُبالُ مع الاحتكاك بالأرض يلتصق بالراتنج مكوّناً نعلاً غير مستوٍ. كانت الخطوات الأولى صعبة، لكن ما إن دخلا تحت رذاذ الشلال

حتى أدركا فائدته، كان كمن ينتعل جزمة ويلبس قفازات من المطاط اللاصق.

داروا حول البحيرة التي تشكّلت في الأسفل ووصلوا بسرعة مُبلّلين إلى الشلال، ستار صلب من الماء، بعيد عن الجبل عدّة أمتار. دويّ الماء وصل حدّاً جعل من المحال عليهما أن يتواصلا بالكلام، كما لم يستطيعا أن يفعلا ذلك بالإشارات. فالرؤية معدومة ورذاذ الماء حوّل الهواء إلى زبد أبيض، وقد أحسوا أنهم يتقدمون ويتلمسون طريقهم وسط الضباب. وقد التصق بوروبا بأمرٍ من ناديا بجسد ألِكس مثل جِلدة مشعرة وحارّة، بينما راحت هي تسير خلفهما لأنّها مثبتة بالحبل، ولولا ذلك لتراجعت. كان المحاربون يعرفون المنطقة جيِّداً، ويتابعون طريقهم ببطء، لكن دون تردُّدٍ، ويُقدِّرون أين يضعون أقدامهم. تبعهم الفتَيان قريبين منهم قدر استطاعتهما، لأنّه يكفي أن يبتعدا عنهم خطوتين حتى يضيعوا عن نظرهم تماماً. تصوَّر ألِكس أنّ اسم تلك القبيلة ـ أهل الضباب ـ جاء من الضباب الكثيف الذي يتشكّل من الرذاذ عند انفجار الماء.

هذا الشلال وشلالات أخرى في الألتو أورينوكو هزمت الغرباء دائماً، لكنّ الهنودَ حوّلوها إلى حليفة لهم. كانوا يعرفون تماماً أين يضعون أقدامهم، فهناك فجوات طبيعية أو منحوتة من صنعهم يستخدمونها منذ آلاف السنين. كانت هذه الثلمات في الجبل تشكّل درجاً خلف الشلال يصعد حتى القمة. وكان من المحال الصعود عبر هذه الجدران الملساء والمبللة والزلقة، وخلفها شلالها الذي يصمّ الآذان، دون أن يعرف المرءُ بوجوده وموقعه الدقيق. فتَعَثُّرٌ واحدٌ يليه سقوطٌ، فالموت الأكيد وسط دويّ الزبد.

تمكّن ألِكس، قبل أن يجدوا أنفسهم معزولين بالصخبِ، من أن يعطي تعليماته لناديا بألّا تنظر إلى الأسفل، وأنَّ تركِّز وتحاكي حركاته متشبّثة حيث يتشبّث، تماماً كما يقلّد هو تاهاما، الذي يتقدّمه. كذلك وضّح لها أنّ القسم الأوّل هو الأصعب نظراً للضباب الذي يتسبّب به انفجار الماء على الأرض، ولا شكَّ أنّهم كلّما صعدوا كلّما خفّ الانزلاق وأمكنهم أن يروا بشكلٍ أفضل. لم يشجّع هذا

ناديا، فمشكلتها الأسوأ لم تكن في الرؤية بل في الدوار. حاولت أن تتجاهل الارتفاع ودويّ الشلال الذي يصمُّ وتفكّر بأنّ الراتنج على يديها وقدميها سوف يساعدها على الالتصاق بالصخرة المبللة. كان الحبل الذي يربطها بألِكس يمنحها بعض الأمان، مع أنّه كان من السهل التكهن بأنّ أيّ خطوة ناقصة من أيّ منهما ستلقي بهما معاً إلى الفراغ. حاولت أن تتبع تعليمات ألِكس بأن تركّز ذهنها في الحركة التالية، وفي المكان الدقيق الذي عليها أن تضع فيه قدمها أو يدها، حركة واحدة في كلّ مرّة، دون استعجال ودون إضاعة للإيقاع. ما إن كانت تتمكّن من الاستقرار حتى تتحرّك بحذر باحثة عن فجوة أو نتوء أعلى، ثمّ تتلمس بقدم أخرى حتى تقع على آخر وتتمكّن بهذا الشكل من دفع جسدها عدّة سنتيمترات إلى الأعلى. ثلمات الجبل كانت عميقة بما يكفي للاستناد إليها، والخطر الأكبر يكمن في فصل الجسد، إذ عليها أن تتحرّك ملتصقة بالصخرة. وبلمح البصر مرّ بذهنها بوروبا: إذا كانت هي مرعوبة فكيف سيكون حال القرد السيئ الحظّ المتدلي من ألِكس.

كلّما صعدوا أكثر ازدادت الرؤية وضوحاً، لكنّ المسافة بين الشلال والجبل تتقلّص. والفَتَيان يشعران بالماء أقرب إلى ظهريهما. في اللحظة التي كان يتساءل فيها ألِكس وناديا ماذا سيفعلان للاستمرار بالصعود إلى القسم الأعلى من الشلال انحرفت الفجوات في الصخرة نحو اليمين. تلمَّس الفتى بأصابعه فوقع على سطح أملس، عندئذٍ شعر بأنّهم يمسكون به من معصمه ويشدّونه إلى الأعلى. اندفع بكلّ ما أوتيَ من قوّة وحطّ في كهفٍ في الجبل، حيث تجمَّعَ المحاربون. شدّ الحبل ورفع ناديا التي سقطت على وجهها فوقه، طائشة من الجهد والرعب. لم يتحرّك بوروبا السيئ الحظ وبقي ملتصقاً بظهره مثل لُزَّيق، متجمّداً من الذعر. كان يسقط أمام باب الكهف ستار كتيم من الماء تخترقه الطيورُ السوداء المستعدة لحماية أعشاشها من الغزاة. دُهِشَ ألِكس من شجاعة الهنود الأوائل، الذين ربّما قاموا بالمغامرة خلف الشلال منذ ما قبل التاريخ. وعثروا على بعض الفجوات ونحتوا أخرى، واكتشفوا الكهف وشقّوا الطريق لأحفادهم.

كان الكهف طويلاً وضيقاً لا يسمح بالوقوف وعليهم أن يحبوا أو يزحفوا؛ وسطوعِ الشمس يتسرّب أبيضَ حليبياً عبر الشلال، لكنّه لا يكاد يضيء مدخلَ الكهف. بعدها كان الداخل مظلماً. رأى ألِكس الذي كان يضمّ ناديا والقرد إلى صدره تاهاما يقتربُ منه وهو يومئ ويشير إلى سقوط الماء. لم يكن باستطاعته أن يسمعه، لكنّه فهم أنّ أحداً ما انزلق أو بقي في الخلف. أشار تاهاما إلى الحبل، ففهم أخيراً أنّه يريد استخدامه للهبوط والبحث عن الغائب. كان الهنديّ أثقل منه وزناً، ومهما كانت خبرته فهو لم يكن يملك تجربة الإنقاذ في الجبل العالي. هو أيضاً لم يكن خبيراً، لكنّه رافق أباه بمناسبتين في مهمّتين كانتا تنطويان على مخاطرة، ويعرف استخدام الحبل، وقد قرأ كثيراً حول الموضوع. كان شغوفاً بالتسلّق ولا يمكن أن يقارَنَ إلاّ بحبّه للناي. أشار للهنود أنّه سيذهب إلى حيث يسمح له الحبل. فك الحبل عن ناديا، وأشار إلى تاهاما والآخرين أن يُنزلوه في الهوّة.

بدا لألِكس أنَّ الهبوطَ متدلياً من حبلٍ هشّ إلى الهاوية، وبحرٍ من الماء يزمجر من حوله، أسوأ من الصعود، فهو لا يرى ألاّ قليلاً جدّاً ولا يعرف من هو الذي انزلق ولا أين سيبحث عنه. كانت المناورة مجازفة غير مجدية عملياً، لأنّ شخصاً داس دوسة ناقصة أثناء الصعود لا بدّ أنّه انسحق في الأسفل. ماذا كان سيفعل أبوه في مثل تلك الظروف؟ لا بدّ أنّ جون كولْدْ كان سيفكّر بالضحية، ثمّ بنفسه. جون كولْدْ لا يستسلم للهزيمة قبل أن يُجرّب كلّ الوسائل الممكنة. جَهِدَ، بينما كانوا يُنزلونه، بأن يرى أبعد من أنفه ويتنفّس، لكنّه لا يكاد يستطيع أن يفتح عينيه ويشعر برئتيه مليئتين بالماء. كان يتأرجح في الفراغ آملاً ألاّ يخذله حبل الليانة.

فجأة اصطدمت إحدى قدميه بشيء طريّ، وبعد ثوان راح يتلمّس بأصابعه هيئة رجلٍ متعلق ظاهرياً بالعدم. وبضيق مخيف أدرك أنّه الزعيم موكاريتاً. عرفه من قبعة الريش الأصفر، التي كانت ما تزال ثابتة على رأسه، على الرغم من أن العجوز البائس كان معلّقاً، مثل ذبيحة، من نتوء سميك يبرز من الجبل أوقف سقوطه

بما يشبه المعجزة. لم يكن هناك من مكان يستند إليه ألِكس، وخاف أن يستند إلى النتوء فينكسر ويسقط موكاريتا إلى الهاوية. قدّر أنّه لا يملك سوى فرصة واحدة للإمساك به، ولذا من الأفضل أن يفعل ذلك بدقّة، وإلاّ فإنّ الرجل المبلل، كما كان حاله، سوف ينزلق من بين أصابعه مثل سمكة.

اندفع ألِكساندر متأرجحاً دون هدى، وأمسك بقدمي وذراعي الرجلِ المنهك. شعر المحاربون في الكهف بالشدّ وبدؤوا يقطرونَ الحبلَ بحذرٍ وبطءٍ شديدين كي يتفادوا أن يقطع الاحتكاكُ الحبلَ ويصفق التأرجحُ ألِكس وموكاريتا بالصخور. لم يعرف الفتى كم استغرقت العملية، قد تكون دقائق فقط، لكنّها بدت له ساعاتٍ. شعر أخيراً بأن عدّة أيدٍ أمسكت به ورفعته إلى الكهف. واضطر الهنود إلى أن يتصارعوا معه كي يُفلِتَ موكاريتا. فقد كان متشبّثاً به بقوّة بيرانا.

سوّى الزعيم وضعيّةَ الريشِ ورسم ابتسامة واهنة. خيوط من دم كانت تنبثق من أنفه وفمه، فيما عدا ذلك بدا سليماً. أبدى الهنودُ اندهاشاً كبيراً بعملية الإنقاذ ومرّروا الحبل من يدٍ إلى يد بإعجاب، لكنّه لم يخطر لأحدٍ منهم أن ينسب إنقاذ الزعيم إلى الشاب الغريب، بل راحوا يُهَنّئون تاهاما على فكرته. تمنّى ألِكس المنهك والمتألّم لو أنّ أحداً فقط شكره، لكنّ حتى ناديا تجاهلته. فهي المتكوّرة مع بوروبا في زاوية لم تنتبه حتى لعمل صديقها البطولي، لأنّها كانت ماتزال تستعيد وعيَها من صعود الجبل.

جاءت بقيّةُ الرحلة أسهل، لأنّ النفق كان ينفتح إلى مسافة قصيرة من الماء على مكان كان صعوده أقل مخاطرة. رفع الهنود موكاريتا بالحبل، لأنّ ساقيه خارتا، وكذلك فعلوا مع ناديا لأنّ معنوياتها انهارت. لكنّ الجميع التقوا أخيراً على القمّة.

ـ ألم أقل لك أنّ الطلسم يفيد لأخطار المرتفعات أيضاً ـ سخر ألِكس.

ـ صحيح! ـ اعترفت ناديا مقتنعةً.

ظهرت أمامهم «عينُ العالم،» كما كان يُسمّي أهل الضباب بلدهم. كانت جنّة من جبالٍ وشلالاتٍ رائعة، وغابةٍ مترامية الأطرافِ، مسكونة بالحيوانات والطيور والفراشات، طقسها معتدل، وخاليةٍ من سحائب البعوض التي تعذّب الناس في الأراضي المنخفضة. في البعيد كانت ترتفع تشكيلات غريبة كأنّها أسطوانات من الغرانيت الأسود والتربة الحمراء. أشار إليها موكاريتا الخائر على الأرض باحترام:

ـ إنّها التِبّوي، مساكن الآلهة ـ قال بصوت ناحل.

عرفها ألِكس على الفور: تلك الهضاب المدهشة مماثلة للأبراج الرائعة التي شاهدها حين واجه الجغوار الأسود في فناء ماؤرو كاريّاس.

ـ إنّها أقدم جبال الأرضِ وأكثرها غموضاً ـ قال.

ـ كيف عرفت؟ هل رأيتها من قبل؟ ـ سألتْ ناديا.

ـ رأيتها في أحد أحلامي ـ أجاب ألِكس.

لم يُبدِ الزعيم الهنديّ أيّة علامات ألم، كما يجب على محارب من مقامه، لكن لم يبق لديه إلا القليل من القوّة، فهو يُغمض عينيه بين فينة وأخرى ويبدو في غيبوبة. لم يعرف ألِكس ما إذا كان عنده عظام مكسورة أو جروح داخليّة لا حصر لها، لكن من الواضح أنّه لا يستطيع أن ينتصب على قدميه. تمكّن من جعل الهنود يرتجلون نقّالة من عصوين طويلتين وعدد من حبال الليانة المجدولة وفوقها لحاء أشجار، مستفيداً من ناديا كمترجمة. وقد اتبع المحاربون، المرتبكون من وَهن العجوزِ الذي قاد القبيلةَ عقوداً عديدة، تعليماتِ ألِكس دون نقاش. أمسك اثنان منهم بطرفي النقالة وتابعوا مسيرتهم لمدّة نصف ساعة على ضفّة النهر، يقودهم تاهاما حتى أشار إليهم موكاريتا بالتوقّف برهة للاستراحة.

دام الصعود على أطراف الشلال ساعات عدّة، وعندئذٍ أخذ التعبُ والجوعُ من الجميع كلَّ مأخذ. توغّل تاهاما ورجلان آخران

في الغابة وعادوا بعد برهة قصيرة ببعض الطيور ومدرّع وقرد صادوها بسهامهم. كان القردُ ما يزال حيّاً، لكنّه مشلول بالكورارِ، قتلوه بضربة حجر على رأسه أمام ذعر بوروبا الذي هرع ليلوذ تحت قميص ناديا القصير. صلوا النار بحكّ حجرين ـ وهو ما حاوله ألِكس دون جدوى حين كان كشّافاً ـ وشووا الفرائس التي غرسوها في عيدان. الصياد لا يمكنه أن يتذوق لحمَ ضحيَّتِهِ، فهذا سوء تربية وسوء حظ، وعليه أن ينتظر أن يُقدِّم له صياد آخر من صيده. كان تاهاما قد صادها كلّها باستثناء المدرع، ولهذا استغرق تناول العشاء برهة طويلة بينما هم ينفذون طقوس تبادل الطعام الصارمة. أخيراً حين أصبحت حصّته في يده التهمها ألِكس دون أن يتوقّف عند بقايا الريش أو الشعر التي ما تزال ملتصقة باللحم، وبدت له لذيذة.

كان ما يزال هناك عدّة ساعات على مغيب الشمس، وفي الهضبة حيث قبّة النباتات أقل كثافة كان نور النهار يدوم أكثر مما في الوادي. بعد مشاورات كثيرة مع تاهاما وموكاريتا تابعت المجموعة طريقها.

ظهرتْ تابّيراوَا ـ تيري، ضيعة أهل الضباب، فجأة وسط الغابة كما لو أنّ لها خصائص سكانها ذاتها فتظهر وتختفي بإرادتها، تحميها مجموعة من أشجار الكستناء العملاقة، أطول أشجار الغابة، وجذوع بعضها يتجاوز محيطه عشرة أمتار. تُغطّي قببها القرية مثل مظلات هائلة. كانت تابّيراوا ـ تيري مختلفة عن الشابونو النموذجية، وهو ما أكّد شكَّ ألِكسْ بأن أهل الضباب مختلفون عن بقية الهنود، وربّما كان احتكاكهم ببقية قبائل الأمازون قليلاً جدّاً. لم تكن الضيعة تتكون من كوخ دائري وحيد بفناء في الوسط، حيث تعيش القبيلة، وإنّما من غرف صغيرة من الطين والعيدان والقشّ تُغطيها الأغصان والشجيرات، فتختلط تماماً بالطبيعة. ويمكن أن يكون المرء على بعد أمتارٍ قليلة منها دون أن يفكّر بأنّه توجد هناك

أبنية بشرية. أدرك ألِكس أنّه إذا كان من الصعب جدّاً على المرء أن يُميِّز القرية الفقيرة وهو في وسطها، فسيكون من المحال أن تُرى من الجوّ كما يُرى سطح الشابونو الهائل الدائري والفناءَ الخالي من النباتات. لا بدّ أن هذا هو السبب الذي مكّن أهل الضباب من البقاء معزولين تماماً. وتبخّر أمله بأن تنقذهما حوّامات الجيش أو طائرة سيزَر سانتوس.

كانت الضيعة وهمية مثلها مثل الهنود. وكما أنّ الأكواخ كانت خفيّة كذلك كانت بقية الأشياء تبدو مبهمة أو شفافة. فالأشياء، كما الأشخاص، تفقد هناك معالمها المحدّدة، وتبقى موجودة على مستوى الوهم. وصلت النسوة والأطفال كالأشباح، منبثقين من الهواء، لاستقبال المحاربين. كانوا قصار القامة، بشرتهم فاتحة أكثر من هنود الوادي وعيونهم عنبرية، يتحرّكون بخفّة عجيبة، يطفون، حتى لا يكاد يكون لهم قوام مادي. لباسهم لا يتعدّى بعض الرسومات المطلية على أجسادهم وبعض الريش أو الأزهار المربوطة إلى أذرعهم أو المغروسة في آذانهم. الأطفال الصغار الذين خافوا من مظهر الغريبين راحوا يبكون، بينما بقيت النسوةُ بعيدات وخائفات، على الرغم من وجود رجالهم المسلحين.

ـ اخلع ثيابك يا جغوار ـ أشارت إليه ناديا، بينما راحت تتخلّص من بنطلونها وقميصها القصيرين، بل وحتى من ثيابها الداخلية.

قلّدها ألِكس حتى دون أن يفكّر بما يفعل. فكرة أن يتعرّى بحضور آخرين كانت سترعبه قبل أسبوعين، لكنّ الأمرَ كان طبيعياً في ذلك المكان، فالبقاء بالملابس غير لائق بينما الجميع عراة. كما لم يبدُ له غريباً أن يرى جسد صديقته عارياً، على الرغم من أنّه لو حدث ومَثُلَتْ قبل ذلك أيٌّ من أختيه أمامه دون ملابس لاحمرّ خجلاً. وسرعان ما زال الخوف عن النسوة والأطفال، وراحوا يقتربون شيئاً فشيئاً منهما. لم يروا قط أشخاصاً بمثل تلك المظاهر الفريدة، خاصّة الفتى الأمريكي، شديد البياض في بعض المناطق من جسده. شعر ألِكس أنّهم يتفحّصون بفضولٍ خاص اختلافَ اللون بين

المناطق التي تُغطيها عادة ثياب الاستحمام وبقية الجسد، البرونزية بفعل الشمس. فركوه بأصابعهم ليروا ما إذا كان طلاءً وراحوا يضحكون مقهقهين.

وضع المحاربان نقّالة موكاريتا على الأرض، فأحاط به أهلُ الضيعة على الفور. تواصلوا همساً وبنبرة حزينة، مقلّدين أصوات الغابةِ والمطرِ والماءِ على حجارة النهر، تماماً كما كان يتكلّم واليماي. انتبه ألِكس المذهول إلى أنّه يستطيع أن يفهم جيّداً، ما دام لا يُجهد نفسه بذلك، إذ عليه أن «يسمع بقلبه». لم تكن الكلمات، حسب قول ناديا، هي المهمّة حين تُفْهَمُ النوايا.

اقتربت إيومي، زوجة موكاريتا، الهرمة أكثر منه. فأفسح لها الآخرون الطريق باحترام وركعت بجانب زوجها، دون أيّ دمعة، هامسةً بكلمات عزاء في أذنه، بينما شكّلتْ بقيّةُ النسوةِ جوقةً حولهما، جدّيات وصامتات، يشددن من عزيمة الزوجين بوجودهن إلى جانبهما، لكن دون أن يتدخّلن.

سرعان ما حلَّ الليل وبرد الجوُّ. عادة ما يكون في الشابونو طوق من النيران المشتعلة، دائماً تحت السقف المشترك الكبير، للطهي وتأمين الدفء، لكن النار في تابيراوا ـ تيري كانت مموّهة أيضاً مثل بقية الأشياء. فالمواقد الصغيرة تُشعل ليلاً وداخل الأكواخ فقط، فوق مذبح من الحجارة، كي لا يلفتوا انتباه الأعداء المحتَمَلين أو الأرواح الشريرة. أما الدخان فيتسرَّب من خلال فتحات السقوف ويتبدَّد في الجوّ. فكّر ألِكس في البداية أنّ الأكواخَ موزّعة اعتباطاً بين الأشجار، لكنّه سرعان ما أدرك أنّها مرتبة بشكلٍ غامِض على شكل دائرة، مثل الشابونو، وترتبط فيما بينها بأنفاق أو سقوف من الأغصان، مضفية على الضيعة طابع وحدة متكاملة. ويستطيع سكانها أن يتنقّلوا بوساطة هذه الشبكة من الدروب المخفية، فتحميهم في حالة التعرض للهجوم وتقيهم من المطر والشمس.

كان الهنود يتجمّعون في أسرٍ، لكنّ الفتية البالغين والرجال العازبين يعيشون منفصلين في غرفة مشتركة، حيث توجَدُ أراجيح النوم المعلقة إلى الدعائم والحصائرُ على الأرض. هناك وضعوا

ألِكس، بينما حملوا ناديا إلى منزل موكاريتا. كان الزعيم الهندي قد تزوّج في سنّ الحلم من إيومي، رفيقة حياته كلّها، لكنّه يملك أيضاً زوجتين شابتين وعدداً كبيراً من الأولاد والأحفاد. لم يكن يحسب ذرّيته، لأنّه في الحقيقة لم يكن مهمّاً من يكون الآباء: فالأطفال يترعرعون معاً، يحميهم ويعتني بهم أبناء الضيعة.

تحقّقت ناديا من أنّه كان شائعاً بين أهل الضباب أن يكون لهم عدد من الزوجات أو الأزواج: لا أحد يبقى وحده. وإذا مات رجل يتبنى على الفور أبناءَهُ وزوجاتِهِ رجلٌ آخرُ يستطيع أن يحميهم ويزوّدهم بما يحتاجون إليه. تلك كانت حالة تاهاما، الذي لا بدّ كان صياداً جيّداً، فقد كان يأخذ على مسؤوليته عدداً من النساء وبضعة عشر طفلاً. بدورها تستطيع أمّ، زوجها صيّاد سيّئ، أن تحصل على أزواج آخرين ليساعدوها على إطعام أولادها. وعادة ما يتعهّد الآباء بزواج بناتهم عند ولادتهنّ، لكن ما من فتاة تُجبَرُ على الزواج أو البقاء بجانب رجل بالإكراه. كان التعسّف ضدّ النساء والأطفال محرّماً، ومن يمارسه يفقد أسرته ويُدان بالنوم وحيداً، لأنّه أيضاً لا يُقبَل في كوخ العازبين. كان العزلُ هو العقاب الوحيد عند أهل الضباب: فهم لا يخافون شيئاً مثل خوفهم من أن يُلفظوا من الجماعة. فيما عدا ذلك لم يكن لفكرة الثواب والعقاب وجود عندهم؛ الأطفال يتعلّمون بتقليد البالغين، لأنّهم إن لم يفعلوا حكموا على أنفسهم بالهلاك. عليهم أن يتعلموا صيد البرّ والنهر، أن يزرعوا ويحصدوا، ويحترموا الطبيعةَ والآخرين، ويُساعدوا ويحافظوا على موقعهم في الضيعة. كلٌّ يتعلم بإيقاعه وحسب قدرته.

أحياناً لم يكن يولد ما يكفي من الأطفال خلال جيل من الأجيال، فينطلق الرجال في رحلات طويلة بحثاً عن زوجات. وكانت الفتيات من ناحيتهنّ يستطعن أن يحصلن على أزواج في المناسبات النادرة التي يزرن فيها مناطق أخرى. كما كانوا يختلطون ويتبنون عائلاتٍ مهجورة من قبائل أخرى بعد إحدى المعارك، لأنّ جماعة صغيرة جدّاً لا تستطيع أن تستمرّ بالحياة في الأدغال. أحياناً يضطرّون لأن يشنوا حرباً على شابونو أخرى، إذ هكذا يقوى المحاربون

ويتبادلون الزّوجات. وكان محزناً جدّاً وداع الشباب حين يُغادرون للعيش في قبيلة أخرى، لأنّهم نادراً ما يعودون ليروا عائلاتهم. كان أهل الضباب يحفظون سرّ ضيعتهم بحذرٍ، ليقوا أنفسهم من أيّ هجوم ومن عادات الغرباء. فقد عاشوا هكذا آلافَ السنين ولا يرغبون بأن يتبدلوا.

كان ما تحتويه الأكواخ قليلاً جدّاً: أراجيح نوم، أواني من القرع المجوف، فؤوس حجرية، سكاكين مصنوعة من أنياب أو مخالب حيوانات، وعدد من الحيوانات الداجنة التي تعود ملكيتها للجماعة، تدخل وتخرج على هواها. في مخدع العازبين تُحفظ الأقواس والسهام والسرباتانات والنبال. لم يكن يوجد أيّ شيء غير ضروريّ، أو أشياء فنّية، فقط ما هو جوهري للعيش الصارم، وما عدا ذلك تمدّهم به الطبيعةُ. لم يرَ ألِكس أيّة أداةٍ معدنية تشير إلى الاتصال بالعالم الخارجي، فتذكّر كيف أنَّ أهل الضباب لم يلمسوا الهدايا التي علّقها سيزَرْ سانتوس كي يجذبهم. وبهذا كانوا يختلفون أيضاً عن قبائل المنطقة الأخرى، التي كانت تستسلم الواحدة بعد الأخرى للطمع بالفولاذ وممتلكات الأجانب.

حين انخفضت درجة الحرارة ارتدى ألِكس ثيابه، لكنّه بقي يرتعد كما لو أنه لم يفعل. رأى في الليل أنّ رفاقه في المسكن ينامون مثنىً مثنىً في الأراجيح أو متكوّمين على الأرض كي يُدخلوا الدفء إلى بعضهم بعضاً، لكنّه كان قادماً من ثقافة لا تسمح بالاحتكاك الجسدي بين الذكور، فالرجال لا يحتكون إلاّ في نوبات العنف أو في أكثر الرياضات قسوة. استلقى منزوياً في زاوية، شاعراً بأنّه تافه وأقل من برغوث. كانت تلك الجماعة البشرية في تلك الضيعة المتناهية الصغر من الأدغال خفيّة في ذلك الفضاء الفلكي الهائل. زمن حياتهم كان أقلّ من جزء من الثانية من المطلق. أو ربّما لم يكن لهم وجود، ربّما كانت الكائنات البشرية والكواكب وبقية الخلق أحلاماً وأوهاماً. ابتسم بتواضع حين تذكّر أنّه قبل أيّام قليلة كان ما يزال يُفكّر بأنه مركز الكون. كان بردانا وجائعاً،

وظنّ أنّ الليلةَ ستكون طويلة جدّاً، لكنّه وفي أقل من خمس دقائق نام كما لو أنّهم خدَّروه.

استيقظ متكوّراً فوق حصيرة من القشّ، محصوراً بين محاربين قويّين يشخران وينفخان في أذنه كما كان يفعل كلبه بّونتشو عادةً. أفلت من أذرع الهنديين بصعوبة ونهض بحذر، لكنّه لم يمضِ بعيداً لأنّ بوا سمينة، طولها أكثر من مترين، كانت تقطع عتبة الكوخ. تجمّد دون أن يجروءَ على التقدّم خطوة واحدة، على الرغم من أنّ الزاحفة لم تبدِ ما يبرهن على أنّها حيّة: فهي ميتة أو نائمة. سرعان ما نفض الهنودُ عنهم النومَ وبدؤوا نشاطاتهم بأكبر قدر من الهدوء، قافزين فوق الأفعى دون أن يولوها اهتماماً. كانت بوا عاصرة مدجّنة، مهمّتها القضاء على الجرذان والخفافيش والعقارب وإبعاد الأفاعي السامّة. بين أهل الضباب كان يوجد كثير من الطواطم: قرود تترعرع مع الأطفال، وكلاب صغيرة ترضعها الأمهات كما يرضعن أبناءهن، وطوقانات، وببغاوات، وإغوانات، بل وحتى جغوار هرم أصفر، مسالم، يعرج من إحدى سيقانه. كانت أفاعي البوا حسنة التغذية وعامّة ما تكون سباتية، تترك الأطفال يلعبون بها. فكّر ألِكس كم ستكون أخته نيكول سعيدة وسط تلك الحيوانات الغريبة، المروضة.

مضى قسم كبير من النهار في التحضير للاحتفال بعودة المحاربين وزيارة الروحين البيضاوين كما سموا ناديا وألِكس. الجميع شارك، إلا رجلاً بقي جالساً، منعزلاً عن البقية في طرف الضيعة. كان الهندي يُقيم طقس التطّهر ـ اليونوكايمو ـ الإجباري لكل من يقتل كائناً بشرياً آخر. وقد علم ألِكس أنّ اليونوكايمو يقوم على الصيام والصمت والثبات التام لعدّة أيّام، وهكذا فإنّ روح الميت، التي خرجت من منخري الجثّة لتلتصق بقصّ القاتل، تنفك شيئاً فشيئاً عنه. أمّا إذا تناولَ القاتلُ أيَّ طعام فإنّ شبح الضحية يسمن وينتهي بأن يسحقه بثقله. كان يوجد أمام المحارب، الذي يقوم بالتطهر، سبطانة من الخيزران (سرباتانا) مزخرفة برموز

غريبة مماثلة لتلك التي على النبلة المسمومة التي اخترقت قلب أحد جنود البعثة أثناء الرحلة في النهر.

انطلق بعض الرجال للقيام بالصيد البرّي والنهري، يقودهم تاهاما، بينما مضت عدّة نسوة بحثاً عن الذرة والموز من البساتين الصغيرة المموّهة في الغابة، وانهمكت أخريات بدقّ المنيهوت. الأطفال الأصغر سناً مضوا يجمعون نملاً وحشرات أخرى للطبخ، بينما راحَ الكبار يقطفون جوزاً وثماراً، وآخرون يصعدون بخفّة مُدهِشة إلى إحدى الأشجار ليجنوا العسلَ من أحد أقراص النحل، مصدر السكر الوحيد في الأدغال. يتعلّمُ الأطفال التسلّقَ، منذ أن يتمكّنوا من الانتصاب على أقدامهم، فهم يقدرون على الركضِ فوق أعلى أغصان الأشجار دون أن يفقدوا توازنهم. ومجرّد رؤيتهم معلّقين على هذا الارتفاع مثل القرود جعل ناديا تشعر بالدوار.

سلّموا ألِكس سلّة وعلّموه كيف يربطها معلقةً إلى رأسه وأشاروا إليه أن يتبع شبّاناً آخرين من عمره. ساروا برهة كبيرة داخل الغابة، وعبروا النهر ممسكين بالعصي والنباتات المتسلقة، ووصلوا إلى جانب بعض أشجار النخيل الشاهقة، المليئة جذوعها بالأشواك الحادّة. تحت قممها وعلى ارتفاع أكثر من خمسة عشر متراً تلمع أغداق ثمر أصفر يُشبِهُ الدراق. ربط الشبّان بعض العصي لصنع صليبين ثابتين، أحاطوا الجذع بواحد منهما ووضعوا الآخر فوقه. تسلّق واحد منهم الصليبَ الأوّلَ ودفع الصليبَ الثاني إلى الأعلى، صعد إليه ومدّ يده ليرفع الصليب الأدنى، وهكذا راح يصعدُ بخفّة لاعب جمباز حتى القمّة. كان ألِكس قد سمع عن هذه المأثرة، لكنّه لم يفهم كيف يمكن للمرء أن يصعد دون أن يُجرح بالأشواك حتى رآها. رمى الهنديّ الثمار من الأعلى فالتقطها الآخرون بالسلال. فيما بعد دقّتها النسوة في الضيعة مخلوطةً بالموز، لصنع حساء، مستحسن جدّاً عندَ أهل الضباب.

على الرغم من أنّ الجميع كانوا منهمكين بالتحضيرات إلاّ أنّ جوّاً من الاسترخاء والاحتفالية كان سائداً. لا أحد كان يتعجل وفاض عنهم الوقت كي يسبحوا مسرورين لعدّة ساعات في النهر.

وبينما كان ألِكسْ يسبح مع شبّان آخرين فكّر أنّه لم يبدُ له العالمُ قطّ بذلك الجمال، كما لن يعود ليكون بمثل تلك الحريّة. بعد الحمام الطويل حضّرت بعض الفتيات أصبغة نباتية من مختلف الألوان وزخرفن جميع أعضاء القبيلة، بمن فيهم الأطفال الرضّع بأشكالٍ متشابكة. في هذه الأثناء كان الرجال المتقدمون في العمر يدقّون ويخلطون أوراق ولحاء أشجار مختلفة للحصول على يوبو(*) الاحتفالاتِ السحري.

(*) Yopo مسحوق نباتي مسكر ومهلوِس.

12

طقس الابتداء(*)

في المساء بدأ الاحتفال الذي استمرَّ طوال الليل. غنّى الهنود المطليون من أقدامهم وحتى رؤوسهم ورقصوا وأكلوا حتى أتخِموا. كان من عدم اللباقة أن يرفض مدعوٌّ تقدمة الطعام أو الشراب، فملأ ألِكس ونادِيا معدتيهما، مقلِّدين الآخرين حتى عانيا من الهواع(**) وهو ما كان يُعتبَرُ دليلاً على الآداب الحسنة. كان الأطفال يجرون بفراشات كبيرة وخنافس مضيئة مربوطة بشعر طويل. وبدأت النسوةُ، المزينات بالحباحب وأزهار الأوركيديا والريش في آذانهنّ وعيدان رفيعة تخترق شفاههنّ، الاحتفالَ منقسمات إلى فريقين متقابلين، مغنياتٍ بتنافسٍ حميم. بعدها دَعَوْنَ الرجالَ للرقص، مستلهمات حركات الحيوانات حين تتزاوج في فصل الأمطار. بعدها برع الرجالُ وحدهم وهم يدورون في حلقة، مقلّدين القرود والجغوارات والتماسيح الأمريكية، وسرعان ما قدّموا عرضاً للقوّة والمهارة ملوِّحين بأسلحتهم، قافزين قفزات استعراضية. أما نادِيا وألِكس فقد راح رأساهما يدوران، وداخا من المشهد ودويّ الطبول والغناء والصياح وصخب الأدغال من حولهما.

(*) iniciauion أخذنا معنى الكلمة من مفهوم المدرسة الابتدائية، حيث يبتدئ الإنسان بتلقي المعارف الأوّلى.

(**) التجشؤ.

وُضِع موكاريتا في وسط الضيعة، حيث راح يتلقّى التحيات الاحتفالية من الجميع. وعلى الرغم من أنّه كان يتذوّق جرعات من الماساتو إلاّ أنّه لم يستطع أن يذوق الطعام. ثم مَثُلَ أمامه شيخ آخر، مشهور بأنّه طبيب شعبي، تعلوه طبقة من الطين الجاف وراتنج ألصقوا به ريشاً أبيضَ، مما أضفى عليه مظهر طائر غريب، حديث الولادة. بقي الطبيب الشعبي برهةً طويلة وهو يقفز ويصيح لإبعاد الشياطين التي دخلت جسد الزعيم. ثم مصَّ عدّة مناطق من بطنه وصدره وهو يقوم بحركة من يسحبُ الأمزجةَ السيّئة ويبصقُ بها بعيداً. كما دلك المحتَضَرَ بعجينة البّاراناري، النبتة المستخدمة في الأمازون لعلاج الجروح، ومع ذلك لم تكن جروح موكاريتا ظاهرة والعلاج لم يُعطِ أيةَّ نتيجة. افترض ألِكس أنّ السقطة قد تسبّبت بانفجار أحد أجهزة الزعيم الداخلية، ربّما يكون الكبد فالعجوز راح يضعف مع مرور الساعات أكثر وأكثر، بينما خيط من دم يخرج من أحد شدقيه.

عند الفجر استدعى موكاريتا ناديا وألِكس إلى جانبه، وشرح لهما بما تبقى عنده من قوّة أنّهما الغريبان الوحيدان اللذان وطئا تابّيراوَا ـ تيري منذ تأسيس القرية.

ـ أراوح أهل الضباب وأسلافنا يقطنون هنا. الناهاب يتكلّمون كذباً ولا يعرفون العدالة، ويمكن أن يدنسوا أرواحَنا ـ قال.

كانا قد دُعيا، أضاف، من قبل التشامان الكبير، الذي نبّههم إلى أنّ ناديا مكرَّسة لمساعدتهم. ولم يكن يعرف الدور الذي سيلعبه ألِكس في الأحداث القادمة، لكنّه يُرحِّب به كرفيق للصغيرة في تابيراوَا ـ تيري. وأدرك ألِكس وناديا أنّه كان يقصد واليماي ونبوءته حول الراهاكاناريوَا.

ـ ما الشكل الذي يتخذه الراهاكاناريوَا ـ سأل ألِكس.

ـ أشكالاً كثيرة. إنّه طائر مصاص للدماء. ليس بشرياً، ويتصرّف كمعتوه. لا يُعرف أبداً ما سيفعل، فهو متعطِّش دائماً للدماء، يَغْضَب فيعاقِب ـ وضَّح موكاريتا.

ـ هل رأيتم طيوراً كبيرة؟ ـ سأل ألِكسْ.

ـ رأينا الطيور التي تُحدث صخباً وريحاً، لكنّها لم ترنا. نحن نعلم أنّها ليست الراهاكاناريوَا، وإنِ كانت تُشبهه كثيراً. طيورُ الناهاب هذه تَطير نهاراً، ولا تطير ليلاً أبداً، لذلك نحن حذرون حين نُشعِلُ النارَ، كيلا يرى الطائرُ الدخان، ونعيش مختبئين. ولذلك نحن الشعب اللامرئي ـ ردَّ موكاريتا.

ـ سيصل الناهاب عاجلاً أو آجلاً، لا مفرّ من ذلك. فماذا سيفعل أهل الضباب عندئذٍ؟

ـ وقتي في «عين العالم» في طور الانتهاء. الزعيم الذي سيأتي بعدي هو من يجب أن يُقرِّر ـ ردّ موكاريتا بوهنٍ.

مات موكاريتا عند الفجر. جوقة من النحيب هزّت تابّيراوَا ـ تيري على مدى ساعات. لم يكن باستطاعة أحدٍ أن يتذكّر الزمنَ السابقَ على ذلك الزعيم، الذي قاد القبيلةَ عقوداً كثيرة. وُضع تاجُ الريش الأصفر على عمودٍ إلى حين تعيين خليفته، وخلال ذلك خلَعَ أهلُ الضباب زيناتهم وتغطوا بالوحل والفحم والرماد كدليل على الحداد. ساد سكون كبير، لأنّهم يعتقدون أنّ الموت نادراً ما يحضر لأسبابٍ طبيعية، السبب غالباً ما يكون عدوّاً استخدم السحرَ لإيقاع الأذى. والوسيلة الوحيدة لتهدئةِ روحِ الميت هي العثور على العدوِّ والقضاءُ عليه، وإلاّ فإنّ شبحه يستمرّ في العالم ويزعج الأحياء. فإذا كان العدوُ من قبيلة أخرى فهذا يمكن أن يؤدّي إلى معركة، لكنّه إذا كان من القبيلة ذاتها، فيمكن قتله رمزياً بإقامةِ احتفالٍ مناسب. كان المحاربون الذين قضوا الليلَ وهم يشربون الماساتو مثارين بفكرة قهر العدو المسبب لموت موكاريتا. فاكتشافه وهزيمته مسألة شرف. لا أحد كان يتطلّع للحلول محلّه، لأنّه لا توجد بينهم مراتِب، وليس هناك أحد أهمّ من الآخر، الزعيم فقط تقع عليه واجباتٌ أكثر من الآخرين. لم يكن موكاريتا محترماً بسبب موقعه القيادي، بل لأنّه عجوز جدّاً، وهذا يعني تجربة ومعرفة أكبر. إذ يمكن للرجال

الثملين والمضطرِمين حماسةً أن يصبحوا بين لحظة وأخرى عنيفين.

ـ أظنّ أنّ لحظة استدعاء واليماي قد حانت ـ همست ناديا لإلِكس.

انسحبت إلى طرف من أطراف الضيعة وخلعت التميمة من عنقها وراحت تنفخها. نعيب البومة الحاد الذي كان يصدره العظمُ المنقوشُ جاء غريباً في ذلك المكان. كانت ناديا تتصوّر أنّه يكفي أن تستخدم الطلسم حتى ترى واليماي يظهر أمامها بفعل السحر، لكنّ التشامان ورغم كلّ ما نفخته لم يحضر.

في الساعات التالية راح التوتر في الضيعة يزداد. اعتدى أحد المحاربين على تاهاما فردّ هذا له الحركة بضربة من هراوته على رأسه تركته ملقى ونازفاً على الأرض. واضطر عددٌ من الرجال للتدخّل للفصل بين المهتاجين وتهدئتهما. أخيراً قرّروا أن يحلوا الصراع بوساطة اليوبّو، وهو مسحوق أخضر، مثله مثل الماساتو لا يستخدمه إلاّ الذكور. زودوا كلّ اثنين بقصبة طويلة وجوفاء، محفورة في رأسها، ينفخ الواحدُ من خلالها المسحوقَ في أنف الآخر مباشرة. فينفذُ اليوبّو إلى الدماغ بقوّةِ ضربةِ هراوةٍ فيسقطُ الرجل إلى الخلف صارخاً من الألم ويبدأ بالتقيؤ على الفور، ينطُّ ويزمجر ويرى رؤى، بينما المخاطُ الأخضر يخرج من منخريه وفمه. لم يكن مشهداً لطيفاً، لكنّهم يستخدمونه للانتقال إلى عالم الأرواح. تحوّل بعض الرجال إلى شياطين، وتقمَّصَ آخرون روح حيوانات مختلفة، ثم تنبّأ آخرون بالمستقبل، لكن شبح موكاريتا لم يظهر لأحدٍ كي يُعيِّنَ خليفةً له.

ظنّ ألِكس وناديا بأنّ ذلك الجحيم سوف ينتهي بالعنف، وفَضَّلا البقاءَ بعيدين وصامتين، على أمل ألاّ يتذكرهما أحد. لم يُحالفهما الحظّ، لأنّه سرعان ما رأى أحدُ المحاربين أنّ عدوّ موكاريتا، الذي تسبّب بموته إنّما هو الفتى الغريب. وفي الحال اجتمع البقية لمعاقبة قاتل الزعيم المفترض، وشهروا الهراوات وخرجوا خلف ألِكس. لم تكن تلك لحظة للتفكير بالناي كوسيلة لتهدئة النفوس،

فراح الفتى يجري مثل غزال. ميّزته الوحيدة هي يأسه، الذي منحه أجنحة، وأنّ مطارديه ليسوا في أحسن أحوالهم. الهنود المسمّمون راحوا يتعثرون، ويتدافعون بفوضى ويضرب بعضهم بعضاً بالعصي، بينما النسوة والأطفال يجرون حولهم مشجّعين. ظنّ ألِكس أنّ ساعة موته قد حانت، فمرّت صورة أمّه بذهنه مثل البرق بينما هو يجري ويجري في الغابة.

لم يكن باستطاعة الفتى الأمريكي أن ينافس المحاربين المحليين بالسرعة ولا بالمهارة، لكنّ أولئك كانوا مخدّرين وراحوا يتساقطون على الطريق واحداً بعد الآخر. أخيراً استطاع أن يلوذ تحت شجرة لاهثاً منهكاً. وحين ظنّ أنّه أصبح في مأمن شعر بنفسه محاصراً، وقبل أن يستطيع الشروعَ بالجري من جديد وقعت نسوة القبيلة فوقه. كنَّ يَضحكن، كما لو أنّ صيده مجرَّد مزحة ثقيلة، لكنّهنّ أمسكنَ به بقوّةٍ على الرغم من لطمه ورفسه، وجررنه فيما بينهن عائداتٍ به إلى تابّيراوَا - تيري، حيث ربطنه إلى شجرة. أكثر من فتاة دغدغته وأخريات دفعن بقطعة ثمرة في فمه، لكن وعلى الرغم من هذه العناية، فقد عقدن الأربطةَ جيّداً. عندئذ بدأ اليوّبو يفقد مفعوله وراح الرجال يغادرون رؤاهم شيئاً فشيئاً ليعودوا إلى الواقع منهكين. وكان لا بدّ أن تمرّ ساعات عدّة قبل أن يستعيدوا صفاءهم الذهني وقواهم.

ألِكس المتوجّع من الجرّ على الأرض والمهان من سخرية النساء منه، تذكّر قصص الأستاذ لودفيك لبلانك المقشعرة للبدن. إذا كانت نظريّته صحيحة فسوف يأكلونه. وماذا سيحدث لناديا؟ شعر بأنّه مسؤول عنها. فكّر بأنّه في الأفلام والروايات، ستكون تلك هي لحظة وصول الحوّامات لإنقاذه ونظر إلى السماء دون أمل، لأنّ الحوّامات لا تصلُ في الواقع أبداً في الوقت المناسب. كانت ناديا قد اقتربت في هذه الأثناء من الشجرة دون أن يوقفها أحد، لأنّه ما من محارب كان باستطاعته أن يتصوّر أنّ فتاة تتجرّأ على تحدّيه. وكان ألِكس وناديا قد ارتديا ثيابهما عند حلول برد الليلة الأولى، وبما أنّ أهل الضباب اعتادوا على رؤيتهما بملابسهما لم يشعروا بالحاجة

لنزعها عنهما. كان أَلِكس يضع زناره الذي علّق إليه نايه وبوصلته وسكيّنه، التي استخدمتها ناديا لفكّه. في السينما تكفي أيضاً حركة واحدة لقطع الحبل، لكنّها اضطرّت لأن تحزَّ برهة طويلة السيورَ الجلديةَ، التي تشدّه إلى العمود، بينما هو يتصبّب عرقاً من نفاد الصبر. اقترب أطفال وبعض نسوة القبيلة ليروا ما كانت تفعله، مذهولين من جرأتها، لكنّها تصرّفت بثقة وهي تهزّ السكين في وجوه الفضوليين بحيث أنّ أحداً لم يجروٌ على التدخّل، وبعد عشر دقائق أصبح أَلِكس طليقاً. بدأ الصديقان يتراجعان بحذرٍ، دون أن يجروٌا على الجري، كيلا يلفتوا انتباه المحاربين. تلك هي اللحظة التي كان من الممكن لفن الاختفاء أن يفيدهما كثيراً.

لم يتمكّن الشابان الغريبان من الوصول بعيداً، لأنّ واليماي دخل الضيعة. ظهر الساحر العجوز ومعه مجموعته من الأكياس الصغيرة المعلقة إلى عكّازه ورمحه القصير وأسطوانة الكوارتز التي لها صوت جلجل. كانت تحتوي على حصى من المكان الذي سقطت فيه الصاعقة، وكان ذلك رمز الأطباء الشعبيين والتشامان وتمثل قوّة الشمسِ الأبِ. جاء تُرافِقه فتاة شابّة، لها شعر مثل دثار أسود يتدلّى حتى خصرها، منتوفة الحاجبين، وتلف جسدها بعقود من الخرز، وبعض العيدان المصقولة تخترق الخدّين والأنف. كانت جميلة جدّاً وتبدو عليها السعادة، ومع أنّها لا تنبس بكلمة واحدة إلاّ أنها دائمة الابتسام. أدرك أَلِكس أنّها زوجة التشامان، الملاك، فسعِدَ لأنّه صار باستطاعته أن يراها، وهذا يعني أنّ شيئاً قد تفتّح في فهمه أو في حدسه. تماماً كما علّمته ناديا: كان عليه أن «يرى بقلبه». كانت قد حكت له أنّه منذ سنوات كثيرة خلت، حين كان واليماي شابّاً، وجد نفسه مجبراً على قتل الفتاة، بجرحها بسكين مسمومة، كي يعتقها من العبودية. لم تكن جريمة، بل معروفاً فعله لأجلها، لكن روحها بقيت في جميع الأحوال ملتصقة بصدره. فهرب واليماي إلى أعمق أعماق الأدغال، حاملاً معه روحَ الشابّةِ حيث لا أحد يستطيع العثور عليها أبداً. نفّذ هناك طقوسَ التطهّر الإجبارية،

الصوم والثبات. ومع ذلك وخلال الرحلة عشقا هو والمرأة كلّ منهما الآخر. وما إن انتهى طقس التطهّر «اليونوكايمو»، حتى رفضت روحها أن تنفصل عنه وفضّلت البقاء في هذا العالم إلى جانب الرجل الذي تُحبّ. حدث هذا منذ قرن تقريباً. ومنذ ذلك الوقت وهي ترافق واليماي دائماً، بانتظار اللحظة التي يستطيع أن يطير معها متحوّلاً بدوره إلى روح.

خفّف حضور واليماي من التوتر في تابّيراوَا ـ تيري والمحاربون الذين كانوا قبل قليل مستعدّين لأنّ يقتلوا أَلِكس، صاروا يُعاملونه الآن بلطف. فالقبيلة تحترم وتهابُ التشامان الكبير، لأنّه يملك المهارة الخارقة لتفسير العلامات والرموز. جميعهم كانوا يحلمون ويرون رؤى، لكن وحدهم المختارون، من أمثال واليماي، يسافرون إلى عالم الأرواح العليا، حيث يتعلّمون معنى الرؤى ويستطيعون أن يقودوا البقية ويغيّروا مجرى الكوارث الطبيعية.

أعلن العجوز أنّ للفتى روح الجغوار الأسود، الحيوان المقدّس، وقد جاء من مكان قصيّ ليساعد أهل الضباب. ووضّح أنّ تلك كانت أزمنة غريبة جدّاً، أزمنة الحدودُ فيها بين العالم هنا وعالم الماوراء مبهمة، أزمنة يمكن لراهاكاناريوَا أن يلتهم فيها الجميع. ذكّرهم بوجود الناهاب، الذين لا يَعرفُهم غالبيتهم إلا من خلال الحكايات التي كان يحكيها أخوته من القبائل الأخرى في الأراضي المنخفضة. كان محاربو تابّيراوَا ـ تيري قد تجسّسوا أيّاماً على بعثة الإنترناشيونال جيوغرافيك، لكن أحداً لم يفهم أعمال هؤلاء الغرباء الغريبين ولا عاداتهم. واليماي، الذي رأى خلال قرن من حياته كثيراً، حكى لهم ما كان يعرفه.

ـ الناهاب كالأموات، فقد فرّت الروح من صدورهم ـ قال ـ الناهاب لا يعرفون شيئاً من شيء، ولا يستطيعون أن يطعنوا سمكة برمح، أو يصيبوا قرداً بنبلة، أو يتسلقوا شجرة. وهم لا يمضون مرتدين مثلنا الهواءَ والنور، بل يستخدمون ثياباً نتنة. لا يستحمون في النهر، ولا يعرفون قواعد الحشمة ولا اللباقة، لا يتقاسمون

طعامهم ولا أولادهم ولا نساءهم فيما بينهم. عظامهم طريّة وتكفي ضربة عصا صغيرة لتحطيم جماجمهم. وهم يقتلون الحيوانات ولا يأكلونها، يتركونها مرميَّةً كي تفسد. حيث يمرّون يُخلّفون قذارة وسمّاً، بما في ذلك الماء. الناهاب مجانين إلى حدٍّ أنّهم يريدون أن يحملوا الحجارةَ من الأرض والرملَ من النهر والأشجارَ من الغابة. بعضهم يريد الأرض. نقول لهم إنّ الأدغال على ظهورهم مثل تابير ميت، لكنّهم لا يصغون. يُحدِّثوننا عن آلهتهم ولا يريدون أن يسمعوا شيئاً عن آلهتنا. إنّهم مثل التماسيح، لا يشبعون. هذه الأشياء الفظيعة رأيتها بأمِّ عيني وسمعتها بأمّ أذني ولمستها بيديّ.

ـ لن نسمح أبداً لهؤلاء الشياطين أن يصلوا إلى عين العالم، سنقتلهم بنبالنا وسهامنا حين يصعدون عبر هذا الشلال، كما فعلنا مع بقية الذين حاولوا ذلك منذ أيّام أجداد أجدادنا ـ أعلن تاهاما.

ـ لكنّهم سيأتون في جميع الأحوال. فالناهاب يملكون طيوراً تحدث صَخَباً وريحاً، ويستطيعون أن يطيروا فوق الجبال. سيأتون لأنّهم يريدون الحجارةَ والأشجارَ والأرض ـ قاطعه ألِكس.

ـ أيضاً يستطيع الناهاب أن يقتلوا بالأمراض. قبائل كثيرة ماتت بهذه الطريقة، لكنّ أهل الضباب يستطيعون أن ينقذوا أنفسهم ـ قالت ناديا.

ـ هذه الطفلة، العسليةُ البشرةِ تعرف ما تقول، وعلينا أن نصغي إليها. الراهاكاناريوَا عادة ما يتخذ شكل الأمراض القاتلة ـ أكّد واليماي.

ـ هل هي أقوى من الراهاكاناريوَا؟ ـ سأل تاهاما غير مصدّق.

ـ أنا لا، لكن هناك امرأة مُقتَدِرة جدّاً، معها اللقاحات التي يمكن أن تحول دون الأوبئة ـ قالت الفتاة.

أمضت ناديا وألِكس الساعة التالية في محاولة إقناع الهنود بأنّه ليس جميع الناهاب شياطيناً مشؤومين، فبعضهم أصدقاء، مثل الدكتورة أمَيْرَة تورّس. فكان يجتمع إلى محدودية اللغة اختلاف الثقافات. كيف تستطيع أن تشرح لهم مما يتكوّن اللقاح؟ فهما

نفساهما لا يفهمان ذلك تماماً، وهكذا اختارا أن يقولا إنّه سحر قويّ المفعول.

ـ الخلاص الوحيد هو في مجيء تلك المرأة لتلقيح جميع أهل الضباب ـ بيّنت ناديا. «بهذه الطريقة حتى ولو جاء الناهاب أو الراهاكاناريوَا المتعطشون للدماء، فلن يستطيعوا أن إيذاءهم بالأمراض».

ـ يمكن أن يُهدِّدونا بطرقٍ أخرى. وعندئذٍ نذهب للحرب ـ أكّد تاهاما.

ـ الحرب ضدّ الناهاب فكرة سيّئة... ـ غامرت ناديا.

ـ الزعيم المقبل هو من يُقرِّر ذلك ـ خَلُص تاهاما.

أخذ واليماي على عاتقه أن يديرَ الشعائرَ الجنائزية لموكاريتا حسب أقدم التقاليد. وعلى الرغم من خطر أن يُشاهَدوا من الجوّ، فقد أشعل الهنودُ ناراً عظيمة لحرق الجسد، ونفدت بقايا الزعيم خلال ساعات، بينما سكّان الضيعة يندبون أنفسهم لفقدانه. حضّر واليماي شراباً سحرياً، الأياهواسكا الجبّار، ليساعد رجالَ القبيلة على رؤية عمقَ قلوبهم. ودُعي الفتيَان الغريبان لأنّ عليهما أن ينفّذا مهمّة بطولية أهم من حياتهما، الأمر الذي لا يحتاجان فيه لمساعدة الآلهة فقط، بل لمعرفة قواهما الخاصّة أيضاً. لم يجروًا على الرفض، على الرغم من أنَّ طعم ذلك الشراب كان مقزّزاً، وكان عليهما أن يبذلا جهداً كبيراً كي يبتلعاه ويبقيا عليه في معدتيهما. لم يشعرا بتأثيراته إلا بعد برهة طويلة، حين تفككت الأرض تحت أقدامهما وامتلأت السماءُ بالأشكال الهندسية والألوان البراقة، وبدأ جسداهما يدوران ويتلاشيان والرعبُ يستحوذُ على آخر مسام فيهما. وفي اللحظة التي ظنّا أنّهما أدركا الموت شعرا بأنهما مدفوعان بسرعة مدوّخة عبرَ غرفٍ لا حصر لها من النور، ونجأة فُتِحَت أبوابُ مملكة الآلهة الطوطمية داعية إيّاهما للدخول بتوعد.

شعر ألِكس بأطرافه تطول وبحرارة ملتهبة تغزوه من الداخل.

نظر إلى يديه فرأى أنّهما ساقان تنتهيان بمخالب حادّة، فتح فمه كي يصيح فخرج من بطنه زئير مخيف. رأى نفسه وقد تحوّل إلى سنوّر كبير أسود وبراق: الجغوار الفحل الرائع الذي رآه في فناء ماورو كاريّاس. لم يكن الحيوان في داخله، ولا هو في الحيوان، بل كلاهما انصهر في كائن واحد، كلاهما كان الفتى والضاري في آنٍ معاً. تقدّم الِكسْ خطوات وهو يتمطّى مجرّباً عضلاتِهِ فأدرك أنّه يملك خفّةَ وسرعةً وقوّة الجغوار. كان يجري بقفزات هرٍّ كبير في الغابة، ممسوساً بطاقة خارقة للطبيعة. تسلق شجرةً بقفزة واحدة ومن هناك تأمَّلَ المنظرَ بعينيه الذهبيتين، وهو يُحرّك ذيله الأسود في الهواء. عرف انّه جبّارٌ، مهيبٌ، وحيدٌ، لا يُقهر، ملكُ أدغال أمريكا الجنوبية. ولم يكن هناك من حيوان له ضراوته.

ارتفعت ناديا إلى السماء خلال لحظات وزال عنها الخوفُ من المرتفعات التي كانت تضايقها دائماً. أجنحتها الجبّارة التي لأنثى نسرٍ لا تكاد تتحرّكُ، فالهواء البارد يحملها وتكفي حركة بسيطة جداً حتى تُبَدِّلَ اتجاهَ أو سرعةَ طيرانها. كانت تحلّق على ارتفاع شاهق، هادئة، لا مبالية، طليقة، تراقب الأرض في الأسفل البعيد دون فضول. كانت ترى الأدغال وقمم التِبُوي المنبسطة، التي تغطّي الكثير منها الغيومُ فتبدو متوّجة بالزبد. كما كانت ترى عمودَ دخان النار الضعيف حيث تحترق بقايا الزعيم موكاريتا. لقد كان النسر المعلق في الريح منيعٌ، مثل الجغوار على الأرض: لا أحد باستطاعته أن يطالهما. قامت الطفلةُ الطائرُ بعدّة تحليقاتٍ أولمبيةٍ فوق عين العالم، متفحّصة حياةَ الهنود من فوق. ريشُ رأسها انتصب مثل مئات الهوائيات، ملتقطةً حرارةَ الشمس، سعةَ الريح وانفعالَ الأعالي المأساوي. وعلمت أنّها حاميةُ الهنود، الأمُ النسرُ لأهل الضباب. حلّقت فوق ضيعة تابيّراوَا ـ تيري فغطّى ظلُّ جناحيها الرائعين كالدثار سقوفَ مساكنِها الصغيرة شبه الخفية في الغابة. أخيراً توّجه الطائرُ العظيمُ إلى إحدى قِمم اِلتبُوي، أعلى الجبال، حيث تلمع ثلاثُ بيوض بلوريَّةٍ في عشّها المعرّض لكلِّ الرياح.

في صباح اليوم التالي، حين عاد الفتيان من عالم الحيوانات الطوطمية، روى كلٌّ منهما تجربَتَهُ.

ـ ماذا تعني البيوض الثلاث؟ ـ سأل ألِكس.

ـ لا أدري، لكنها مهمّة. هذه البيوض الثلاث لي يا جغوار، وعليَّ أن أحصل عليها كي أُنقِذَ أهل الضباب.

ـ لا أفهم. ما علاقة هذه البيوض الثلاث بالهنود؟

ـ أعتقد أنّ لها كلّ العلاقة... ـ ردّت ناديا، مشوّشةً مثله.

حين خَمَدَ جمرُ النار الجنائزية، عزلت إيومي، زوجة موكاريتا، العظامَ المتفحّمة، دقّتها بحجر حتى صارت مسحوقاً ناعماً، وخلطتها بالماء والموز وصنعت منها حساءً. انتقلت القرعةُ التي تحتوي على ذلك المرق من يدٍ إلى أخرى وشرب منها الجميع جرعةً، بمن فيهم الأطفال. طمروا بعد ذلك القرعةَ، ونُسيَ اسمُ الزعيم، كيلا لا يعود ليذكره أحداً أبداً. ذكراه وكذلك جُزيئات شجاعته وحكمته، التي صارت رماداً انتقلت إلى أخلافه وأصدقائه. وهكذا يبقى جزءٌ منه حيّاً دائماً بين الأحياء. أيضاً أعطوا ناديا وألِكس ليشربا من حساء العظام، كنوع من التعميد فصارا الآن ينتميان للقبيلة. حين رفعه الفتى إلى شفتيه تذكّرَ أنّه قرأ عن مرضٍ يُسبّبه «أكلُ مخّ الأسلاف». ولكنه أغمض عينيه وشرب باحترام.

بعد الانتهاء من الشعائر الجنائزية، دعا واليماي القبيلةَ لاختيار زعيمها الجديد. وحدهم الرجال يستطيعون، حسب التقليد، أن يتطلّعوا إلى ذلك الموقع، لكنّ واليماي وضّح أنّ الاختيارَ يجب أن يتمّ هذه المرّة بأقصى حدود الحكمة، لأنّهم يعيشون أوقاتاً غريبةً جدّاً وتتطلّب زعيماً قادراً على فهم ألغاز العوالم الأخرى، ويتواصل مع الآلهة ويبقي الراهاكاناريوَا على الحدّ. قال إنّها أزمنة من ستّة أقمار في قبة السماء، أزمنة اضطُرّت فيها الآلهةُ إلى مغادرة منازلها. وعند ذكر الآلهة رفع الهنودُ أيديهم إلى رؤوسهم وبدؤوا يتمايلون إلى الأمام والخلف، يرتّلون في أُذُنَيّ ناديا وألِكس شيئاً يشبه الصلاةَ.

ـ الجميع في تابّيراوَا ـ تيري، بمن فيهم الأطفال، يجب أن يُشاركوا في اختيار الزعيم الجديد ـ أطلع واليماي القبيلةَ.

بقيت القبيلة النهار كلّه تقترح مُرشَّحين وتتفاوض. وفي المساء نامت ناديا وأَلِكس، منهكَيْن، جائعَين وضجرَين. عبثاً حاول الفتى الأمريكيُّ أن يشرح لهم طريقة الاختيار بالتصويت، كما في الديمقراطية، لأنَّ الهنود لم يكونوا يعرفون العدَّ، ومفهوم التصويت جاء مبهماً مثله مثل اللقاحات. هم كانوا يختارون بـ «الرؤى».

واليماي هو الذي أيقظ الشابين في هزيع متأخّرٍ من الليل على خبر أن أقوى رؤيا كانت رؤيا إيومي، وبذلك أصبحت أرملة موكاريتا الآن هي الزعيمة في تابّيراوَا ـ تيري. كانت المرّة الأولى، منذ أن صار باستطاعتهم أن يتذكّروا، تشغلُ فيها امرأةٌ هذا المنصب.

أولّ أمرٍ أصدرته إيومي العجوز بعد أن اعتمرت قبّعةَ الريش الأصفر، التي استخدمها زوجها سنوات كثيرة، هو تحضير الطعام. وعلى الفور تمّ الامتثال للأمر، فقد مضى على أهل الضباب يومان لم يتناولوا فيهما غير رشفة حساء العظام. انطلق تاهاما وصيّادون آخرون بأسلحتهم إلى الأدغال وعادوا بعد عدّة ساعات ومعهم دبّ آكل نملٍ ووعل، قطّعوهما وشووهما على الجمر. في هذه الأثناء صنعت النسوة خبز المنيهوت وطبيخ الموز. وحين أتخِمت البطون دعت إيومي شعبها للجلوس في دائرة وأصدرت أمراً ثانياً.

ـ سوف أسمّي زعماء آخرين. زعيم الحرب والصيد: تاهاما. وزعيم تهدئة الراهاكاناريوَا: الفتاة العسلية اللون، المدعوّة نسر. وزعيم التفاوض مع الناهاب وطيور الصخبِ والريح: الغريب المدعو جغوار. وزعيم زيارة الآلهة: واليماي. وزعيمة الزعماء: إيومي.

وبهذه الطريقة وزّعت المرأة الحكيمة السلطة ونظّمت أهل الضباب لمواجهة الأزمنة الرهيبة التي تقترب. وهكذا رأت ناديا

وألِكس أنّهما يتقلّدان مسؤولية ما من أحدٍ منهما كان يشعر بأنّه مؤهّل لها.

أعطت إيومي أمرها الثالث هناك بالذات. قالت إنّ على الطفلة النسر أن تُحافظ على «روحها بيضاء» كي تُواجِه الراهاكاناريوَا، لأنها الطريقة الوحيدة لتفادي أن يلتهمها الطائر آكل لحوم البشر، لكن على الشاب الغريب، جغوار، أن يُصبح رجلاً ويتلقّى أسلحة المحارب. فكلّ ذكرٍ قبل أن يقبض على سلاحه ويُفكّر بالزواج يجب أن يموت كطفلٍ ويُولَدَ كرجل. لم يكن يوجد مُتّسعٌ من الوقتِ للقيام بالاحتفال التقليدي، الذي كان يدوم ثلاثة أيّام ويضمّ كلّ فتيان القبيلة الذين أدركوا سنّ البلوغ. وفي حالة جغوار عليهم أن يرتجلوا طقوساً مقتضبة، قالت إيومي، لأنّ الشابّ سيُرافق النسرَ في رحلته إلى جبل الآلهة، وأهل الضباب عرضة للخطر، ولا أحد يستطيع أن يأتيهم بالخلاص غير الغريبين، ولذلك عليهما أن ينطلقا على الفور.

وقع على عاتق واليماي وتاهاما تنظيم شعيرة الابتداء لألِكس، التي لا يُشارِك فيها غير الرجال البالغين. بعدها روى الفتى لناديا أنّه ربّما لو عرف مما يتكوّن الاحتفال لبدا له أقل رعباً. حَلَقَت له النسوةُ برعاية إيومي قمّةَ رأسه بحجرٍ مسنون، وهي طريقة آلمته جدّاً، لأنّ جرحه في المنطقة التي ضربوه عليها حين خطفوه لم يكن قد اندمل بعد. وعند ما مرّرن الحجر عليه انفتح، لكنّهنّ وضعن عليه طيناً فتوقّف بعد برهة قصيرة عن النزيف. طلته النسوة بعجينة سوداء من الشمع والفحم من قدميه وحتى رأسه. بعدها اضطرّ لأن يودِّعَ صديقته وإيومي، لأنّه لا يمكن للنساء حضور الاحتفال، وقد ذهبتا لقضاء النهار مع الأطفال في الغابة. ولن تستطيعا العودة إلى الضيعة حتى يحلّ الليل، حين يكون المحاربون قد اختبروا قسماً من ابتدائه وتعليمه.

أخرج تاهاما ورجاله الآلات الموسيقية المقدّسة، التي لا تُستخدم إلاّ في الاحتفالات الذكرية، من طين النهر. وكانت عبارة عن أسطوانات غليظة بطول متر ونصف، تُصدِرُ حين تُنفخ صوتاً أجشّ وثقيلاً، مثل نفخات الثور الهائج. النسوة والفتيان الذين لم يبتدئوا

بعد لا يستطيعون رؤيته تحت طائلة المرض والموت بوسائل سحرية. كانت تلك الأدوات تمثّل القوّة الذكورية في القبيلة، والرابطة بين الآباء والأبناء الذكور. ودون هذه الأبواق تبقى كلّ تلك القوّة في النساء اللواتي يملكن القدرة الإلهية لإنجاب الأولاد أو «صنع الناس» كما يقولون.

بدأت الشعيرة في الصباح، وكان يجب أن تدوم الليل والنهار بطولهما. أطعموه توتاً مرّاً وتركوه منسياً على الأرض بوضعيّةِ الجنين، ثمّ توزّعوا حوله في حلقة مضغوطة بقيادة واليماي، مطليين ومزيّنين بخصائص الشياطين، وهم يرفسون الأرض بأقدامهم ويدخّنون سجائر من أوراق نباتية. وسرعان ما شعر ألِكس بين التوت المرّ والخوفِ والدخانِ، بنفسه مريضاً.

بقي المحاربون يرقصون حوله ويرتّلون أناشيدهم وينفخون في الأبواق المقدّسة الثقيلة، التي كانت تلامس نهايتها الأرض. كان الصوت يُدوّي في دماغ الفتى المشوّش. وقد سمع لساعات الأناشيد تكرّر قصّةَ الشمسِ الأبِ التي تقع فيما وراء الشمس اليومية التي تُضيء السماءَ، وكانت ناراً خفيّة، منها يأتي الخلقُ، وسمع عن قطرة الدم التي انفصلت عن القمر كي تعطي الإنسان الأوّل، غنّوا لنهر الحليب، الذي يحتوي على كلّ بذور الحياة، كما يحتوي أيضاً على التعفن والموت، والذي يقود إلى مملكة التشامان، من أمثال واليماي، ويلتقي بالأرواح والكائنات الأخرى فوق الطبيعية ليتلقى الحكمةَ وقوّةَ المعالجة. وقالوا إنّ كلّ ما هو موجود حلمت به الأرضُ الأمُّ، فكلّ نجم يحلم بسكانه، وكلّ ما يجري في الكون وهم وأحلام خالصة ضمن أحلام أخرى. شعر ألِكساندر كولْدْ في جوّ الرعب الذي هو فيه بأنّ تلك الكلمات تشير إلى مفاهيم هو نفسه كان قد أحسّ بها، وعندئذ تخلّى عن التفكير واستسلم لتجربة «التفكير بالقلب» الغريبة.

مرّت الساعات وراح الفتى يفقد فيها إحساسه بالزمن، بواقعه ذاته، ويغوص في حالة من الرعب والتعب العميق. شعر في لحظة ما

أنّهم يرفعونه ويُجبرونه على الرحيل، فانتبه إلى أنّ الليل قد حلّ. توجّهوا في موكب إلى النهر، يعزفون على آلاتهم ويلوّحون بأسلحتهم. هناك غطّسوه بالماء عدّة مرات، حتى ظنّ أنه مات اختناقاً. فركوه بأوراق كاشطة كي يزيلوا الطلاء الأسود، ثمّ وضعوا فلفلاً حارّاً على جلده الملتهب. ضربوه، وسط صخب يصمُّ الآذان، بالحمّاض على ساقيه وذراعيه وصدره وبطنه، لكن دون رغبة بإيذائه، هدّدوه برماحهم، ملامسين جسده برؤوسها أحياناً، دون أن يجرحوه. كانوا يُحاولون بكلّ الوسائل الممكنة أن يدبّوا الخوفَ في نفسه وتمكّنوا من ذلك، لأنّ الفتى الأمريكيّ لم يكن يفهم ما كان يجري ويخاف من أن يفقد مهاجموه السيطرة على أيديهم في أيّة لحظة فيقتلونه حقيقة. كان يحاول أن يحمي نفسه من ضربات الأيدي والدفع التي يقوم بها محاربو تابّيراوَا ـ تيري، لكنّ غريزته كانت تقول له ألاّ يحاول الهرب، لأنّه لن يُجْدِهِ نفعاً، فليس هناك من مكان يذهب إليه في تلك المنطقة المجهولة والمعادية. كان قراراً صائباً، لأنّه لو فعل لظهر أنّه جبان، النقيصة التي لا يمكن أن تُغفر لمحارب.

حين أوشك ألِكس أن يفقد السيطرةَ على نفسه ويُجنَّ، تذكّر فجأة حيوانه الطوطم. لم يضطر لبذل جهدٍ خارق ليدخل في جسد الجغوار الأسود، فالتحوّل تمّ بسرعة وسهولة: الزئير الذي خرج من حنجرته كان ذاته الذي مرّ به من قبل، ضربة مخالبه كان يعرفها، القفز على رأس عدّوه كان عملاً طبيعياً. احتفل الهنود بوصول الجغوار بصيحات تصمّ الآذان وقادوه على الفور في موكب مهيب إلى الشجرة المقدّسة، حيث كان ينتظره تاهاما بالاختبار الأخير.

طلع الفجرُ في الأدغال. وكان نمل النار محصوراً في أسطوانة أو خرطوم من القشّ المجدول، كذاك التي يستخدمونه لعصر حامض البروسيك للمنيهوت، الذي كان تاهاما يُمسك به بعصوين، كي يتفادى الاحتكاك بالحشرات. ألِكس المُنهَك بعد تلك الليلة الطويلة والمرعبة، تأخّر لحظة حتى أدرك ما يُنتظَرُ منه. عندئذٍ استنشق بعمق مالئاً رئتيه بالهواء البارد، واستحضر لمساعدته شجاعةَ أبيه،

متسلِّقِ الجبال، ومقاومةَ أمِّه، التي لم تسمح قط بأن تُهزم، وقوّةَ الحيوان الطوطم، وأدخلَ على الفور ذراعَهُ اليسرى حتى مرفقه في الأسطوانة.

تنزّهَ نمل النار لثوانٍ على جلده قبل أن يلسعه. وحين فعل شعر كما لو أنّهم يحرقونه بحامِضٍ حتى العظام. أرعبه الألم الرهيب للحظات، لكنّه أبقى بإرادة وحشيةٍ على ذراعِهِ في الخرطوم. تذكّر كلمات ناديا حين حاولت أن تُعلِّمه التعايشَ مع البعوض: لا تُدافع عن نفسك، تجاهله. كان من المحال عليه أن يتجاهل نمل النار، لكنّه وبعد دقائق من اليأس المطلق أوشك خلالها على أن يطلق ساقيه للريح ويرمي بنفسه في النهر، انتبه إلى أنّ السيطرة على دافع الهرب ممكنة، وحبس الصرخة في صدره، وانفتح على العذاب دون أن يُقاومه، وسمح له بالنفوذِ حتى آخر مسامةٍ من كيانه ووعيه. عندئذٍ اخترقه الألم الكاوي مثل سيف خرج من ظهره واستطاع تحمّله بأعجوبة. لن يستطيع ألِكس أبداً أن يفسّر انطباعَ القوّة الذي داهمه خلال هذه المعاناة. شعر بأنّه قويّ ومنيع كما كان حين تقمّصَ هيئةَ الجغوار الأسود، وحين شرب مشروب واليماي السحري. تلك كانت المكافأة التي تلقاها لأنّه تخطّى الامتحان. وبالفعل شَعَرَ أنّ طفولته صارت من الماضي وصار باستطاعته، بدءاً من تلك الليلة، أن يعتمد على نفسه.

ـ أهلاً بك بين الرجال ـ قال تاهاما، ساحباً الخرطوم من ذراع ألِكس.

حمل المحاربون الشابَّ شبهَ فاقدٍ للوعي، عائدين به إلى الضيعة.

13

الجبل المُقدَّس

مستحمّاً بالعرق، موجوعاً ومحموماً بالحرارة، جاب ألِكساندر كولْد الجغوار، ممرّاً طويلاً أخضر، عبر عتبة باب من الألمنيوم ورأى أمّه. كانت ليزا كولْدْ منحنية بين وسائد الكرسيّ الكبير، تغطّيها ملحفة، في غرفةٍ النورُ فيها أبيضُ، كضوء القمر. تضع على رأسها الأصلع قبّعةَ صوف أزرق وعلى أذنيها سماعاتٍ، كانت شديدة الشحوب وعجفاء وحول عينيها ظلال داكنة. وهناك مسبار رفيع موصول بوريد تحت الترقوة يقطر منه سائلٌ أصفر من كيس بلاستيكي. تنفذ كلّ قطرة منه إلى قلب الأمّ مباشرةً مثل نار النمل.

على بعد آلاف الأميال وفي أحد مستشفيات تكساس، كانت ليزا كولْدْ تتلقّى العلاج الكيمياوي. تحاول ألاّ تُفكّر بالدّواء، الذي يدخل مثل السمّ في عروقها ليصارع سمَّ المرض الأسوأ. ولكي تسلو نفسها كانت تُركّز على كلّ نغمة من نغماتِ لحنِ الناي الذي تستمع إليه، وهو نفسه الذي طالما سمعت ابنها يتدرّب عليه. في اللحظة التي كان يحلم فيها ألِكس هاذياً بها وسطَ الأدغال، رأت ليزا ابنَها بكلّ وضوح. رأته واقفاً في عتبة باب غرفتها وهو أطولُ وأقوى بنية، أكثر نضجاً ووسامةً مما تتذكّره. من كثرةً ما نادته ليزا في تفكيرها لم تستغرب أن تراه يصل. لم تسأل كيف ولا لماذا جاء، فقط استسلمت لسعادة أنها تراه بجانبها، *ألِكساندر، ألكساندر*... همست. مدّت يديها فاقترب حتى لامسها، ركع بجانب كرسيها ووضع رأسه

على ركبتيها. بينما كانت ليزا كولد تُردِّدُ اسم ابنها وتداعب رقبته سمعت بالسماعتين، بين نغمات الناي النقية، صوتَه يطلب منها أن تُقاوِمَ، ألا تستسلم أمام الموت، ويقول لها مرَّة وأخرى أحبُّك ياأمّي.

يمكن أن يكون اللقاء بين ألِكساندر وأمه قد استمرَّ لحظة أو عدّة ساعاتٍ، ما من أحد منهما عرف ذلك بيقين. أخيراً حين ودّع أحدهما الآخر، عاد كلاهما إلى العالم المادي قويّاً. بعد قليل دخل جون كولْدْ إلى غرفة زوجته وفوجئ بها تبتسم وقد عاد اللون إلى وجنتيها.

ـ كيف تشعرين بنفسك يا ليزا؟ ـ سأل بحرص.

ـ سعيدة يا جون، لأنّ ألِكسْ جاء لرؤيتي ـ أجابته.

ـ ماذا تقولين يا ليزا.... ألِكساندر في الأمازون مع أمّي، ألا تذكرين؟ ـ همس زوجها، مفزوعاً من الأثر الذي يمكن أن يكون للأدوية على زوجته.

ـ نعم، أتذكّر، لكن هذا لايلغي من أنّه كان هنا منذ لحظة.

ـ هذا غير ممكن... ـ دحض زوجها قولها.

ـ لقد كبر، يبدو أطول وأقوى، لكنَّ ذراعه اليسرى منتفخة جدّاً... ـ حكت له وأغمضت عينيها كي ترتاح.

في وسط القارّة الأمريكية الجنوبية، في عين العالم، استيقظ ألِكساندر كولْدْ محموماً. تأخّر عدّة دقائق حتى عرف الفتاة الذهبية التي كانت تنحني بجانبه لتقدّم له الماء.

ـ ها قد أصبحت رجلاً يا جغوار ـ قالت ناديا مرتاحة لرؤيته وقد عاد إلى عالم الأحياء.

أعدَّ واليماي معجوناً من النباتات الطبية ووضعه على ذراع ألِكس، وهو ما جعل الحمّى والورم يتراجعان. شرح له التشامان أنّه وكما يوجد في الأدغال سموم تقتل دون أن تترك أثراً، كذلك توجد

آلاف وآلاف الأدوية الطبيعية التي تشفي. وصف له الفتى مرضَ أمِّه وسأله عما إذا كان يعرف نبتة قادرة على أن تُخفِّف عنها.

ـ هناك نبتة مقدَّسة يجب أن تُخلط بماء الصحة ـ ردّ التشامان.

ـ وهل أستطيع الحصول على هذا الماء وهذه النبتة؟

ـ يمكن ولا يمكن. يجب المرور بأعمال كثيرة.

ـ سأفعل كلَّ ما هو ضروريّ! ـ هتف ألِكس.

في اليوم التالي، كان الفتى مليئاً بالكدمات وفي مكانِ كلِّ لسعةٍ تلمع حبّة حمراء، لكنّه نهض بشهيةٍ للطعام. وحين حكى لناديا تجربته، قالت له إنّ فتيات القبيلة لا يمررن بطقوس الابتداء، هُنّ لا يحتجنها، فالنساء يعرفن متى يُغادِرنَ الطفولة لأنّ جسدهنّ ينزف ويخبرهنّ بذلك.

كان ذلك يوماً من الأيّام التي لم يحالف فيها الحظُّ تاهاما ورفاقه بالصيد، والقبيلة لا تملك غير الذرة وبعض الأسماك. صمّم ألِكس على أنّه إذا كان قد استطاع في السابق أن يأكلَ أناكوندا مشوية فسيكون بمقدوره أن يجرّب هذا السمك، حتى ولو كان مليئاً بالحراشف والحسك. فوجِئ أنّه أحبّه كثيراً. صاح مع االقمة الثانية: وأنا الذي حرمت نفسي من هذا الصحن اللذيذ خمسة عشر عاماً! أشارت ناديا إليه بأن يأكل كفاية، لأنّهما سينطلقان في اليوم التالي مع واليماي في رحلة إلى عالم الأرواح، حيث قد لا يكون هناك غذاء للجسد.

ـ يقول واليماي إنّنا سنذهب إلى الجبل المقدّس. حيث تعيش الآلهة ـ قالت ناديا.

ـ وماذا سنفعل هناك؟

ـ سنبحث عن البيوض الثلاث التي ظهرت في رؤاي. يعتقد واليماي بأن البيوض سوف تنقذ أهل الضباب.

بدأت الرحلة مع الفجر حين لم يكد يظهر خيط النور الأول في قبّة السماء. كان واليماي يمضي أمامهم، ترافقه زوجتُهُ، الملاك

الجميلة، التي كانت تمسك بين الفينة والأخرى بيد التشامان وتُحلِّقُ بين فينة وأخرى مثل فراشة فوق رأسه، صامتة ومبتسمة طوال الوقت. كان ألِكساندر يستعرض مزهوّاً قوساً وسهاماً، الأسلحة الجديدة التي سلّمه إيّاها تاهاما عند انتهاء شعيرة الابتداء. كانت ناديا تحمل قرعة تحوي حساء الموز وبعض عجّة المنيهوت، التي أعدتّها لهما إيومي للطريق. لم يكنِ الساحر بحاجة للمؤن، لأنّه في العمرِ الذي هو فيه لا يأكلُ إلا قليلاً جدّاً، حسب ما قال. لم يكن يبدو كائناً بشرياً: فهو يتغذّى على جرعات من الماء وبعض الجوز الذي يمصّه طويلاً بلثّتيه الخاليتين من الأسنان، لا يكاد ينام، وتفيض عنه قواه للاستمرار بالسير حين يسقط الشابّان من التعب.

راحوا يسيرون في سهوب الهضبة المغطاة بالغابات باتجاه أعلى قمم جبال التِبْوي، التي تشبه البرج الأسود البراّق، المنحوت من الحجر البركاني البلّوري الأسود. نظر ألِكس إلى بوصلته ورأى أنّهم يسيرون دائماً باتجاه الشمال. لم يكن هناك درب مرئي، ومع ذلك كان واليماي يتوغّل في الأدغال بثقة مذهلة، ويحدّد موقعه بين الأشجار والوديان والهضاب والأنهار والشلالات كما لو أنّه يحمل خريطة.

ومع تقدّمهم كانت الطبيعة تتبدّل. أشار واليماي إلى المنظر، قائلاً بأنّه مملكة أم المياه، وفي الحقيقة كان هناك وفرة من الشلالات ومساقط المياه. لم يكن المنقِّبون قد وصلوا إلى هناك بعد بحثاً عن الذهب والحجارة الكريمة، لكنّ المسألة كلّها مسألة وقت. فعمال المناجم يعملون جماعاتٍ من أربعة أو خمسة أشخاص وكانوا أفقر من أن يستطيعوا امتلاك وسيلة للنقل الجوّي، يتحرّكون على أقدامهم في منطقة مليئة بالعوائق أو في الزوارق عبر النهر. ومع ذلك كان هناك أشخاص من أمثال ماورو كاريّاس يعرفون ثروات المنطقة الهائلة وعندهم وسائل حديثة. الشيء الوحيد الذي كان يعيقهم عن استثمار المناجم بخراطيم الماء المضغوط القادرة على أن تسحق الغابة وتحوّل المنظر إلى موحلة، هي القوانينُ الجديدة لحماية البيئة والسكان الأصليين. كانت قوانين حماية البيئة

تُنتهك باستمرار، لكنّه لم يعد سهلاً فعل الشيء ذاته مع قوانين حماية السكان الأصليين، لأنَّ عيون العالم على هنود الأمازون أولئك، الأحياء الوحيدين الباقين من العصر الحجري. ولم يعد باستطاعتهم أن يقضوا عليهم صيداً بالرصاص والنار، كما فعلوا حتى سنوات قليلة خلت، دون أن يُثيروا ردّة فعل دولية.

قدّر ألِكس من جديد أهميّة لقاحات الدكتورة أُمَيْرَة تورّس وتحقيق جدّته الذي تعدّه للإنترناشيونال جيوغرافيك، الذي سيستنفر بلداناً أخرى من أجل حالة الهنود. ماذا كانت تعني بيوض البلّور التي رأتها ناديا في حلمها؟ لماذا كان عليهما أن يقوما بهذه الرحلة مع التشامان؟ بدا له أنّ محاولةَ الاجتماع بالبعثة واستعادة اللقاحات ونشر جدّته لمقالتها أكثر نفعاً. لقد عيَّنته إيومي «زعيماً لمفاوضة الناهاب وطيور الصخب والريح»، لكنّه وبدل أن يقوم بمهمَّته هاهو يبتعد أكثر وأكثر عن الحضارة. لم يكن فيما يقومون به أيّ منطق، فكّر وهو يتنهّد. أمامه كانت ترتفع التِبوي الغامضة والمنعزلة كبنايات في كوكب آخر.

سار المسافرون الثلاثة من طلوع الشمس وحتى مغيبها بخطى حثيثة، يتوقّفون ليُبلّلوا أقدامهم ويشربوا ماء من النهر. حاول ألِكس أن يصطاد طوقاناً كان يرتاح فوق غصنٍ على بعد أمتار قليلة منه، لكنّ سهمه أخطأ الهدف. ثمّ صوَّب على قردٍ كان باستطاعته أن يرى أسنانه الصفراء ولم يتمكّن من صيده أيضاً. ردّ عليه القردُ بحركاتٍ بدتْ له ساخرةً فعلاً. فكّر ما أقلّ ما تفيده أسلحة المحارِب القشيبة، وإذا كان رفيقاه سيعتمدان عليه في طعامهما، فسيموتان جوعاً. أشار واليماي إلى بعض الجوز الذي كان لذيذاً، وإلى ثمار شجرة لم يطلّها الفتى.

كانت أصابع أقدام الهنود متباعدة، قويّة ومرنة، تتيح لهم أن يصعدوا بخفّة عصياً ملساء. تلك الأقدام التي على الرغم من أنّها صلبة مثل جلد تمساح، إلاّ أنّها حساسة جدّاً: يستخدمونها حتى في نسج السلال والحبال. كان الأطفال يشرعون بالتدرّب على التسلّق ما

إن يتمكّنوا من الانتصاب على أقدامهم، بينما ألِكساندر، ورغم كلّ تجربته في تسلّق الجبال، لم يتمكّن من أن يصعد الشجرة ليقطف ثمرها. سالت دموعُ واليماي وناديا وبوروبا من الضحك من فشله وجهده، ولم يُبدِ أيّ منهم تعاطفاً معه حين سقط جالساً من علوٍّ مُعتَبَر، وراضياً عجزه وكبرياءه. كان يشعر بنفسه ثقيلاً وبطيء الحركة مثل صفيقات الجلد.

في المساء، وبعد ساعات من السير، أشار واليماي إلى أنّهم يستطيعون أن يرتاحوا. دخل في الماء حتى ركبتيه، وبقي ساكناً وصامتاً حتى نسيت الأسماك وجوده وبدأت تدور حوله. وحين أصبحت إحدى الفرائس في متناول سلاحه شكّها برمحه القصير وسلّم إلى ناديا سمكةً فضيةً جميلةً كانت ما تزال تُحَرِّكُ ذيلها.

ـ كيف يقوم بذلك بكلّ هذه السهولة؟ ـ أراد ألِكس أن يعرف، وهو يشعر بالإهانة من حالات فشله السابقة.

ـ تطلب إذناً من السمكة، توضّح لها بأنّك مضطرّ لقتلها نتيجة الحاجة، بعدها تشكرها لأنّها تُقدّم حياتها كي نعيش نحن ـ وضّحت الصبية.

فكّر ألِكساندر أنّه لو حدث ذلك في بداية الرحلة لضحك من الفكرة، لكنّه راح يصغي الآن باهتمامٍ إلى ما تقوله صديقته.

ـ والسمكة تفهم الأمرَ لأنّها أكلت غيرَها قبل ذلك، وجاء دورُها الآن لتؤكَل. هكذا هي الأمور ـ أضافت.

حضّر التشامان ناراً صغيرة ليشوي سمكة العشاء، التي أعادت إليهما قواهما، لأنَّ التشامان لم يذق شيئاً غير الماء. نام الفتيان متكوِّرين بين جذور شجرة قوية ليحميا نفسيهما من البرد، إذ لم يملكا الوقت لتحضير أراجيح النوم من لحاء الشجر كما يفعلون في الضيعة، فقد كانا تعبين وعليهما أن يتابعا رحلتهما باكراً جدّاً. في كلّ مرّة كان يتحرّك أحدهما يتكيّف الآخر معه كي يبقى ملتصقاً به قدر استطاعته، وهكذا أدخلا الدفء الواحد في الآخر خلال الليل. بينما أمضى العجوز واليماي الساعات وهو يتأمّل السماء جالساً

القرفصاء، بلا حراك، تسهر إلى جانبه زوجته كأنّها جنيّة شفافة، لا يكسوها غير شعرها الداكن. حين استيقظ الشابّان كان الهنديّ ما يزال في وضعيته التي رأياه عليها في الليلة السابقة، منيعاً على البرد والتعب. سأله أَلِكس كم عاش، ومن أين يستمدّ طاقته وصحّته العظيمة. فوضّح العجوز له أنّه رأى أطفالاً كثيرين يولدون ويتحوّلون فيما بعد إلى أجداد، كما رأى هؤلاء الأجداد يموتون ويولد أحفادهم. كم سنة؟ هزّ كتفيه، لم يكن ذلك يهمّه أو أنّه لا يعرف. قال إنّه رسولُ الآلهة، ويذهب عادةً إلى عالم الخالدين، حيث لا وجود للأمراض التي تقتل البشر. تذكّر أَلِكس أسطورة مدينة إِلْدورادو، التي لم تكن تحتوي على ثروات هائلة فحسب، بل وعلى نبع الشباب الخالد أيضاً.

ـ أميّ مريضة جدّاً... ـ همس أَلِكس، متأثّراً بذكراها. فتجربة انتقاله ذهنيّاً إلى المستشفى في تكساس ليكون معها كانت حقيقيّة إلى حدّ أنّه لا يمكن أن ينسى التفاصيلَ، بدءاً من رائحة الأدوية في الغرفة وحتى ساقي ليزا كولْدْ الهزيلتين تحت الملاحف، حيث أسند جبينه.

ـ جميعنا سنموت ـ قال التشامان.

ـ نعم، لكنّها شابّة.

ـ بعضنا يذهب شابّاً، وبعضنا الآخر عجوزاً. أنا عشتُ أكثر من اللازم، وبودّي أن ترتاح عظامي في ذاكرة آخرين ـ قال واليماي.

وصلوا في ظهيرة اليوم التالي إلى قاعدةِ التِبوّي في «عين العالم»، وكان الجبل هائلاً تضيع قمّته في تاج كثيف من الغيوم البيضاء. وضّح واليماي أنّ القمّة لا تنجلي عنها الغيوم أبداً وأنّه ما من أحد، ولا حتى الراهاكاناريوَا الجبار زار ذلك المكان دون دعوةٍ من الآلهة. وأضاف أنّه ومنذ آلاف السنين، منذ بدء الحياة، حين صُنِع البشرُ من حرارةِ الشمسِ الأبِ ودم القمر وطينِ الأرضِ الأمّ، وأهل الضباب يعرفون بوجود منزل الآلَهة في الجبل. في كلّ جيل

هناك شخص، هو دائماً تشامان مرٌّ بأفعالٍ تطهُّرٍ كثيرة، يُعَيَّنُ لزيارة التِبوي ويكون رسولاً. وكان هذا الدور من نصيبه، وقد حضر إلى هناك مرات كثيرة، فعاش مع الآلهة وعرف عاداتها. قال لهما إنّه كان قلقاً، لأنّه لم يُدرِّب خليفتَه بعد. فمن سيكون الرسول بعده إذا مات؟ بحث عنه في كلّ رحلة من رحلاته، لكن ما من رؤيا جاءت لمساعدته. ليس باستطاعةِ أيّ شخص أن يتدرّب، يجب أن يكون شخصاً وُلِد بروح تشامان، شخصاً يملك القدرة على المداواة، وتقديم النصائح وتفسير الأحلام؛ ويُظهِر منذ شبابه ذكاءً. يجب أن يكون مدرّباً على ضبط النفس تماماً كي يستطيع قهر الإغواءات والتحكّمَ بجسده: فالتشامان الجيّد ليس عنده رغباتٍ ولا حاجات. هذا هو باختصار ما فهمه الشابان من الخطاب المُسهب للساحر، الذي كان يتكلّم على شكلِ حلقاتٍ، مكرِّراً كأنّه يُنْشِدُ قصيدةً لا نهاية لها. ومع ذلك توضّح لهما أنّه ما من أحدٍ مخوّل لاجتياز عتبة عالم الآلهة غيره، على الرغم من أنَّ هنوداً آخرين اجتازوها في مناسبتين استثنائيتين. وهذه هي المرّة الأولى منذ بداية الأزمنة التي يُقبل فيها زوار غرباء.

ـ وكيف هو حِظار الآلهة؟ ـ سأل ألِكس.

ـ أكبرُ من أكبرِ شابونو، برّاق وأصفر مثل الشمس.

ـ إلْدورادو! تراها مدينة الذهبِ الأسطوريّة تلك، التي بحث عنها الفاتحون الإسبان؟ ـ سأل الفتى مُتَلَهِّفاً.

ـ يمكن ولا يمكن ـ أجاب والِيماي، الذي لم يكن عنده معلومات ليعرف ماذا تعني المدينةُ أو الذهبُ أو ليتصوّر الفاتحين.

ـ وكيف هي الآلهة؟ هل هي مثل المخلوق الذي نُسميه نحن بالبهيمة؟

ـ يمكن ولا يمكن.

ـ ولماذا جئت بنا إلى هنا؟

ـ من أجل الرؤى. يمكن أن يُخلِّصَ نسرٌ وجغوار أهل الضباب، لذلك أنتما مدعوان إلى منزل الآلهة السرّيّ.

ـ سنكون أهلاً لهذه الثقة. ولن نكشف عن المدخل أبداً ـ وعد ألِكس.

ـ لن تستطيعا. ستنسيانه إذا ما خرجتما حيَّين، ـ ردَّ الهندي ببساطة.

إذا ما خرجتُ حيّاً... لم يَضَعْ ألِكساندر قط نفسَهُ في حالة أن يموت شابّاً. في أعماقه كان يعتبر الموتَ شيئاً أقرب إلى الإزعاج يصيب الآخرين. لم يخطر له قط، على الرغم من الأخطار التي واجهها في الأسابيع الأخيرة، أنّه لن يعود ليجتمع بأسرته. بل وكان يحضِّر الكلماتِ ليروي لهم مغامراتِهِ، وإن كان أملُهُ بأن يُصدِّقوه قليلاً. مَنْ مِنْ أصدقائه يستطيع أن يتصوّر أنّه كان بين كائنات من العصر الحجريِّ، بل وأنَّ من الممكن أيضاً العثور على إلْدورادو؟

انْتَبَهَ عند قدم التِبْوي إلى أنّ الحياة مليئة بالمفاجآت. لم يكن يؤْمن من قبل بالقدر، الذي كان يبدو له مفهوما جُبريّاً، كان يؤْمن بأنّ كلّ امرئ حرّ في أن يمارس حياتَهُ كما يحلو له، وكان عازماً على أن يعمل من حياته شيئاً جيّداً، أنْ ينجح ويكون سعيداً. كلّ هذا صار يراه الآن سخيفاً. ما عاد يثق بالعقلِ وحده، فقد دخل مجال الأحلام والحدس والسحر الملتبِس، فالقدر كان موجوداً وعلى المرء أن ينطلق أحياناً إلى المغامرة ويعود ليستقرّ مرتجلاً الحلّ بأي طريقة، تماماً كما فعل حين دفعته جدّته إلى الماء وهو في الرابعة من عمره فاضطُرّ لأن يتعلّم السباحة. لم يبق أمامه غير أن يغوص في الألغاز التي تُحيط به. فقد وعى مرّة أخرى حجم المخاطر. كان وحيداً وسط أبعد منطقة على الكوكب، حيث لا عمل للقوانين المعروفة. كان عليه أن يعترف: لقد صنعت له جدّته معروفاً هائلاً حين انتزعته من أمان كاليفورنيا وأطلقته في هذا العالم الغريب. لم يكن تاهاما ونماله النارية من أدخله في عالم البالغين، فكات كولْدْ فائقة الوصف فعلت ذلك أيضاً.

ترك واليماي رفيقي رحلته يرتاحان بجانب جدول، وأمرهما أن ينتظراه وانطلق وحيداً. كانت النباتات في تلك المنطقة من الهضبة أقلَّ كثافةً، وشمس النهار تسقط مثل الرصاص على الرؤوس. ألقت

ناديا وألِكس بنفسيهما إلى الماء، مبعدَيْن أسماك الحنكليس المكهربة والسلاحفَ التي كانت ترقد في القاع، بينما بوروبا يصطاد الذباب ويحكّ قرصات براغيثه على الضفّة. كان الفتى يشعر بنفسه مرتاحاً تماماً مع الصبية، يمرح معها ويثق بها، لأنّها كانت أكثر معرفة منه بذلك الجوّ. بدا له غريباً أن يشعر بالإعجاب بشخصٍ كان بعمر أخته. كان يقع أحياناً في إغواء مقارنتها بسيسيليا بورنز، لكنّه لم يكن يدري من أين يبدأ، فقد كانتا مختلفتين تماماً.

فسيسيليا بورنز ستضيع في الأدغال ضياعَ ناديا سانتوس في المدينة. وسيسيليا قد كبرت مبكراً وأصبحت امرأة شابة وهي في الخامسة عشرة من عمرها، ولم يكن هو عاشقها الوحيد، فجميع شبّان المدرسة توهّموا الشيءَ ذاته. بالمقابل كانت ناديا ما تزال طويلة ونحيلة مثل قضيب أسل، دون تكورات أنثوية، كانت مجرد عظم وجلد برونزيّ خالصين، كائناً مخناثاً له رائحة الغابة. لكنّها وعلى الرغم من مظهرها الصبيانيّ توحي بالاحترام: فهي تملك وقاراً وكرامة. ربّما لأنّه ليس لها أخوة ولا أصدقاء من عمرها، تتصرّف كبالغة، فهي جدّية، صموتة، مركّزة، وليس عندها السلوكُ الغليظ الذي كثيراً ما أزعجه عند الأطفال الآخرين. كان يمقت الفتيات حين كنّ يتهامسن ويضحكن فيما بينهنّ، إذ كنّ يُشعِرْنَه بعدم الثقة بنفسه ويفكّر بأنّهن يسخرن منه. «نحن لا نتكلّم عنك ياألِكساندر كولْد، فهناك موضوعات أهم» هذا ما قالته له ذات مرّة سيسيليا بورنز، أمام الصف كلّه. وفكّر بأنّ ناديا لن تهينه أبداً بهذه الطريقة.

عاد التشامان العجوز بعد ساعات، حيويّاً، رزيناً كما هو دائماً، وعودان مدهونان براتنج شبيه بذاك الذي استخدمه الهنود لصعود حوافّ الشلال. بشّرهما بأنّه عثر على مدخل جبل الآلهة، ثمّ وبعد أن أخفى القوس والسهام، التي لم يكن باستطاعتهما استخدامها، دعاهما إلى اللحاق به.

كانت النباتات عند قدم التِبّوي عبارة عن سراخس هائلة تنمو

متشابكة مثل النسيج. كان عليهم أن يتقدَّموا بحذرٍ وبطءٍ، وأن يبعدوا الأوراقَ ويشقوا طريقَهم بصعوبة. وما إن دخلوا تحت تلك النباتات العملاقة حتى توقَّفَ الزمنُ وفقدَ الواقعُ أشكالَه المعروفة. دخلوا متاهةً من الأوراق النابضةِ والندى المعطَّرِ بالمسك والحشرات المضيئة والأزهار الريّانة التي تقطرُ عسلاً أزرقَ كثيفاً. صار الهواءُ ثقيلاً مثل نَفَسِ حيوانٍ ضارٍ، وكان هناك أزيز دائم والحجارة تشتعل مثل جمر وكان للأرض لون الدم. تشبَّث أَلِكساندر بيدٍ بكتف واليماي وأمسك بالأخرى ناديا، واعياً إلى أنّه إذا ما انفصلوا سنتيمتراتٍ عن بعضهم ابتلعتهم السراخِسُ ولن يعودوا ليلتقوا. كان بوروبا يمضي صامتاً متيقّظاً ومتشبّثاً بجسد صاحبته. كان عليهم أن يُبعدوا عن عيونهم نسيج العنكبوت الواهن الموشّى بالبعوض وقطرات الندى، الذي كان يمتدّ بين الأوراق مثل نسيج مطرَّز. بصعوبة كانا يريان أقدامهما، ولذلك لم يعودا يسألان ما تلك المادة الملوّنة، اللزجة والفاترة التي يغوصان فيها حتى كواحلهم.

لم يتصوّر الفتى كيف كان التشامانِ يعرف الطريقَ، ربّما كانت زوجته الروح تهديه، أحياناً كان واثقاً بأنّهم يدورون في المكان ذاته دون أن يتقدّموا خطوةً واحدة. لم يكن هناك نقاط علاّم. وحدها النباتات الشرهة تلفّهم بعناقها البرّاق. أراد أن يعود إلى بوصلته، لكنّ الإبرة كانت تهتزّ مجنونةً مؤكّدة انطباعه بأنّهم يدورون في حلقات. فجأة توقّف واليماي، أبعد سرخساً لا يختلف بشيء عن السراخس الأخرى فوجدوا أنفسهم أمام فتحة في سفح الجبل كأنّها وجار ثعالِب.

دخل الساحر حابياً وتبعاه. كان ممرّاً ضيّقاً طوله ثلاثة أو أربعة أمتار ينفتح على كهف فسيح، يُضيئه بصعوبة شعاع نور قادم من الخارج، حيث استطاعوا أن يضعوا أقدامهم. شرع واليماي بحك حجريه ليشعل النار بصبر، بينما أَلِكس يُفكّرُ بأنّه لن يخرج بعد الآن من بيته دون ثقاب. أخيراً أشعلت شرارة الحجرين قشّةً استخدمها واليماي لإشعال راتنج أحد المشعلين.

تحت النور المتذبذب رأوا سحابة داكنة كتيمة من آلاف وآلاف

الخفافيش ترتفع. كانوا في كهف صخريّ محاطين بالماء الذي يقطر على الجدران ويُغطّي الأرض كأنّه بحيرة داكنة. عدد من الأنفاق الطبيعية كانتِ تتفرَّعُ منه في مختلف الاتجاهات، بعضها أعرض من بعض، مشكِّلة متاهة باطنية متشابكة. توجّه الهنديُّ دون تردُّدٍ نحو أحد الممرات ومعه الفتيان يدوسان على كعبه.

تذكّر ألِكس قصّةَ خيط أدريانا، الذي سمح لتيسيوس، حسبَ الأسطورة الإغريقيةِ، بالعودة من أعماق المتاهة، بعد أن قتل المينوتور المتوحّش. أما هو فلم يكن يملك كبّة خيوطٍ ليُعلِّم الطريق وتساءل كيف سيخرجان من هناك إذا ما فشل واليماي. وبما أنّ إبرة بوصلته كانت تتذبذب دون اتجاه، استنتج أنّهم في مجال مغناطيسي. أراد أن يترك علامات بسكينه على الجدران، لكنّ الصخر كان قاسياً مثل الغرانيت وسيحتاج لساعات كي ينحت حزّاً واحداً. كانوا ينتقلون من نفق إلى آخر وهم يصعدون دائماً داخل التِبّوي، ومعهم المشعل المرتجل كدفاع وحيدٍ في مواجهة الظلمات المطلقة التي تلفّهم. لم يكن يُخيّم في أعماق الأرض صمتُ قبر، كما كان يتصوّر، فقد كانوا يسمعون خفق أجنحة خفافيش، وزعيق جرذان، ووقعَ أقدام حيوانات صغيرة تجري، وتنقيطَ ماء وطرقاً موقّعاً وأخرس، كأنها نبضات قلب، كما لو أنّهم داخل جهاز حيّ، حيوان هائل مرتاح. لا أحد منهم تكلّم، لكنّ بوروبا كان يُطلق أحياناً صرخة فزع فتعيد المتاهة صوته إليهم مضاعفاً. تساءل الفتى ما نوع المخلوقات التي يمكن أن تسكن تلك الأعماق، ربّما أفاعٍ أو عقارب سامّة، لكنّه قرّر ألاّ يُفكِّرَ بأيٍّ من تلك الاحتمالات وأن يُبقي على رأسه بارداً البرودة التي يبدو عليها رأس نادياً، التي تسير خلف واليماي صامتة واثقة.

وشيئاً فشيئاً لمحوا نهاية الممر الطويل. رأوا سطوعاً خفيفاً وأخضر وحين أطلّوا وجدوا أنفسهم في كهف كبير من شبه المحال وصف جماله. كان النور يدخل إلى بعض المناطق فيضيء فسحة واسعة بسعة كنيسة، حيث تنتصب تشكيلات صخرية ومعدنية رائعة

تبدو كالتماثيل. المتاهة التي خلّفوها وراءهم كانت صخراً داكناً، وهم الآن في قاعة دائرية مضاءة، تحت قبّة كاتدرائية، يحيط بهم البلّورُ والحجارة الكريمة. كان أَلِكس لا يعرف إلاّ القليل عن المعادن، لكنّه استطاع أن يعرف الأوبّال والياقوت الأصفر والعقيقَ وقطع الكوارتز والبلق واليشم والتُرمالين. رأى بلوراً كالماس، وآخر حليبيّاً، بعضه يبدو مضاءً من داخله، معرّقاً بالأخضر والبنفسجيّ والأحمر كما لو أنّه معشّق بالزمرّد والجمشت والياقوت الأحمر. نوازل شفافة تتدلى من السقف كأنّها خناجر من جليد تقطر ماءً كلسياً. كان هناك رائحة رطوبة ثمّ فجأةً رائحة أزهار. وكان الخليط أريجاً زنخاً وكثيفاً ونفاذاً، يثير الغثيان قليلاً، خليط عطر وقبر. كان الهواء بارداً وصارّاً كما هو عادة في الشتاء، بعد الثلج.

فجأة رأوا شيئاً يتحرّكُ على الطرف الآخر من الكهف، ثمّ ينسلخ بعد لحظة عن صخرة من البلور الأزرق. بدا طائراً غريباً، يُشبه زاحفاً مجنَّحاً. نشر الحيوان جناحيه مستعدًّاً للطيران، عندها رآه أَلِكس بجلاء: كان شبيهاً برسومات التنينات الخرافية التي شاهدها، لكنّه كان فقط بحجم بجعة كبيرة وجميلة جدّاً. التنينات الرهيبة في الأساطير الأوروبية التي تحرس دائماً كنوزاً أو فتاة أسيرة، قبيحة ومنفِّرة تماماً. لكنّ التنين الذي كان أمامه يشبه التنينات التي شاهدها في احتفالات الحي الصينيّ في سان فرانسيسكو: إنه سعادة وحيوية خالصين. في جميع الأحوال فتح سكينَ الجيشِ السويسري واستعدّ للدفاع عن نفسه، لكنّ واليماي طمأنه بإيماءة منه.

زوجة التشامان، الخفيفة مثل يعسوب، عبرت الكهف طائرة وحطّت على جناحي الحيوان، وامتطته. زعق بوروبا مرعوباً وكشّر عن أسنانه، لكنّ ناديا أسكتته، مذهولة أمام التنين. وحين تمكّنت من استعادة نفسها بما يكفي بدأت تُناديه بلغة الطيور والزواحف بأمل أن تجذبه، لكن الحيوان الخرافيّ تفحّص من بعيد الزوارَ بحدقتيه الملوّنتين وتجاهل نداء ناديا. ثمّ شرع يطير أنيقاً وخفيفاً ليحوم حومةً أولمبية في قبّة الكهف وعلى متنه زوجة واليماي، كما لو أنّه

يريد ببساطة أن يعرض جمال خطوطه وحراشفه المشعّة. عاد أخيراً وحطّ على الصخرة البلورية الزرقاء، طوى جناحيه وانتظر بوضعية قطّ لا يعرف الرحمة.

عادت روحُ الزوجة إلى حيث زوجها وبقيت هناك طافيةً، عالقةً في الهواء. فكّرَ ألِكس كيف سيصف فيما بعد ما تراه عيناه الآن. وكان على استعداد لأن يُقدِّمَ كلّ شيء مقابل أن يملك آلة تصوير جدَّتِهِ كي يترك دليلاً على أنّ ذلك المكان وتلك الكائنات موجودة حقيقةً، وأنّه لم يغرق في عاصفة هذياناته وأحلامه.

غادروا الكهفَ المسحورَ والتنينَ المُجنَّحَ بشيء من الأسف، دون أن يدروا ما إذا كانوا سيعودون ويرونه. كان ألِكس ما يزال يُحاول أن يجد تفسيرات عقلانية لما يحدث، بينما قبلت ناديا العجائبَ دون أن توجِّه أسئلة. افترض الفتى أنّ ذلك التِبّوي، المعزول عن بقية الكوكب، هو آخر معاقل العصر الحجريّ القديم، حيث يحتفظ بأزهار وحيوانات آلاف آلافِ السنين الخالية دون مسٍّ. من المحتمل أنّهم كانوا في نوع من جزر السلاحف، حيث هربت أقدم الأنواع من التحوّل والانقراض. وهذا التنين يجب أن يكون مجرّد طائر مجهول. فهذه الكائنات تظهر في حكايات وأساطير فلكلورية لعددٍ من المناطق. كانت موجودة في الصين، حيث ترمز للحظّ الحسن، وفي إنكلترا حيث تُستخدم لاختبار شجاعة الفرسان من أمثال سان جورج. وخلص إلى أنّه ربّما كانت حيوانات عايشت أوائل الكائنات البشرية على الكوكب، التي تذكرها الخرافة الشعبية كزواحف عملاقة تنفث النار من أنوفها. لم يكن تنين الكهف يصدر لهيباً، بل عطرَ بَغِيٍّ نفاذ. ومع ذلك لم يخطر له تفسير لحالة زوجة والِيماي، تلك الجنّية ذات المظهر البشري، التي كانت تُرافقهم في رحلتهم الغريبة. حسناً ربّما عثر عليه فيما بعد...

تبعا والِيماي في أنفاق جديدة، بينما راح نور المشعل يضعف شيئاً فشيئاً. عبروا كهوفاً أخرى، لكنّ ما من واحد منها كان مذهلاً مثل الكهف الأوّل، ورأوا مخلوقاتٍ أخرى غريبة: طيوراً حمراءَ

الريش بأربعة أجنحة، تنبح مثل الكلاب، وقططاً بيضاء عمياء كادت تُهاجمهم، لكنّها تراجعت حين هدّأتها ناديا بلغة السنّوريات. حين مرّوا بكهف مغمور بالماء ساروا والماء يغمرهم حتى رقابهم والقرد بوروبا على رأس صاحبته، رأوا أسماكاً ذهبية مجنّحة، تسبح بين سيقانهم، ثم لا تلبث أن تطير فجأة وتضيع في ظلمة الأنفاق.

وفي كهف آخر يُطلق ضباباً أُرجوانياً، شبيه ببعض الغسق، تنمو أزهار غامضة على صخر حيّ. لامس واليماي واحدة منها برمحه فخرجت على الفور من نورياتها مجسّات شحمية امتدّت تبحث عن فريستها. وفي منعطفِ أحد الممرّات رأوا، على ضوء المشعلِ البرتقالي المرتعِش، كوّةً في الجدار، فيها ما يُشْبِهُ طفلاً متحجِّراً في راتنج، مثل تلك الحشرات التي تقع حبيسة في قطعة من العنبر. تصوّر ألِكس أنّ ذلك المخلوق بقي في قبره الكتيم منذ فجر البشرية وسيبقى في المكان ذاته لآلاف وآلاف السنين. كيف وصل إلى هناك؟ كيف مات؟

وصلت المجموعة أخيراً إلى آخر الممرات في تلك المتاهة الهائلة. وأطلوا على فضاءٍ مفتوحٍ أعمتهم فيه لثوانٍ دفقةُ نورٍ أبيض. وعندئذ وجدوا أنّهم فيما يشبه الشرفةَ، نتوء صخريّ يطل على داخل جبل أجوف، كأنّه فوّهة بركان. كانت المتاهة التي جابوها تمضي في أعماق التِبْوي رابطةً الخارجِ بالعالم الخرافي المحبوس في الداخل. أدركوا أنّهم صعدوا أمتاراً كثيرة في الأنفاق. وفي الأعلى كانت تنتشر سفوحُ الهضبة العمودية المغطاة بالنباتات الضائعة في الغيوم. لم تكن السماء تُرى، بل مجرّد سقفٍ كثيفٍ وأبيض كالقطن، يتسرّب منه نور الشمس خالقاً ظاهرة بصرية عجيبة: ستة أقمارٍ شفافة تطفو في سماء من حليب. تلك كانت الأقمار التي رآها ألِكس في رؤاهُ. وفي الجوّ تُحلّق طيور لم تُر من قبلُ قط، بعضها شبه شفاف وخفيف مثل رئات البحر، وأخرى ثقيلة مثل الكوندور الأسود وأخرى مثل التنين الذي شاهدوه في الكهف.

إلى الأسفل على بعدِ أمتار كان هناك وادٍ دائريّ يبدو من الارتفاع الذي كانوا فيه حديقة خضراء ضاربة للزرقة يلفّها البخار. شلالات، خيوط من ماء وأنهار صغيرة متناسقة وتامّة لا تبدو معه أنها طبيعية. وفي الوسط ترتفع إلْدورادو مجيدةً متلألئةً مثل تاج. كتمت ناديا وألِكس صيحة اندهاش، وقد أعماهما بهاءُ مدينةِ الذهب العجيب، مقر الآلهة.

ترك واليماي وقتاً للفتيين كي يخرجا من ذهولهما، ثمّ أشار إلى السلالم المنحوتة في الجبل كيف تهبط متعرّجة من النتوء الذي هم فيه إلى الوادي. وكلّما هبطوا لاحظوا أن النباتات أصبحت بروعة الحيوانات التي لمحوها؛ نباتات وأزهار وشجيرات السفوح كانت فريدة من نوعها. وكلّما هبطوا أكثر ازداد الحرّ والرطوبة وبدا الغطاء النباتي أكثر كثافة ووفرةً والأشجار أعلى وأورف والأزهار أكثر عبقاً والثمار ألذّ. الانطباع، وإن كان رائع الجمال، إلاّ أنّه لم يكن وديعاً، بل متوعّداً بشكل غامض، مثل منظر غامض لڤينوس. كانت الطبيعة تنبض، تلهث، تنمو أمام أعينهم وتترصّدُ. رأوا ذباباً أصفر وشفّافاً كأنه ياقوت أصفر، خنافس زرقاء لها قرون، حلزونات كبيرة لها ألوان تجعلها تبدو من بعيد أزهاراً، يرابيع غريبة مخطّطة، قوارض لها أنياب مسنونة ومعقوفة، سناجب دون شعرٍ، تقفز مثل عفاريت عارية بين الأغصان.

عندما وصلوا إلى الوادي، واقتربوا من إلْدورادو، أدرك الرحالةُ أنّها لم تكن مدينةً كما ليست من الذهب. كانت ببساطة تشكيلاتٍ هندسية طبيعية، مثل البلور الذي رأوه في الكهوف. واللون الذهبي ناتج عن الميكا، المعدن الرخيص، والبيريت المسمى بـ «ذهب البُلهاء». رسمَ ألِكس ابتسامة، وفكّر: لو استطاع الفاتحون والمغامرون الكثيرون الآخرون أن يتخطّوا عوائق الطريق اللامعقولة ويصلوا إلى إلْدورادو لخرجوا أفقر مما كانوا عليه حين وصلوا.

14

البهائم

بعد دقائق رأى ألِكس وناديا البهيمة. كانت على بعد ربع فرسخ منهما، تتّجه إلى المدينة. كانت تبدو إنساناً قرداً عملاقاً، طولها أكثر من ثلاثة أمتار، منتصبة على قائمتيها الخلفيّتين، لها ذراعان جبّاران تصلان حتى الأرض ورأس صغير ذو وجه حزين، صغير جدّاً بالنسبة لحجم الجسد. كانت مغطاة بشعر منفوش يُشبه الأسلاك الشائكة، ولها ثلاثة مخالب مسنونة مثل سكاكين معقوفة في كلّ يدّ. كانت تسير ببطء غير معقول، كما لو أنّها لا تتحرّك أبداً. عرفت ناديا البهيمة على الفور، لأنّها رأتها من قبل. بقيا بلا حراك وقد شّلهما الذعر والمفاجأة، يتأملان المخلوق. كان يُذكّرهما بحيوان معروف، لكنّهما لا يستطيعان أن يُحدّداه في الذاكرة.

ـ تبدو كأنّها المُتراخية(*) ـ قالت ناديا أخيراً هامسة.

ـ وعندئذٍ تذكّر ألِكس أنّه رأى في حديقة حيوانٍ سان فرانسيسكو حيواناً يُشبِه القرد أو الدب، يعيش على الأشجار ويتحرّك ببطء البهيمة ذاته، من هنا جاء أسمه المتراخية، أو الكسول. إنّه كائن أعزل، لأنّ السرعة في الهجوم أو الهرب أو الحماية تنقصه، لكنّه لا يملك مغريات كثيرة، فجلده سميك ولحمه

(*) Pereza حيوان ثديي أمريكي أدرد وشديد البطء.

حامِضٌ، إنّه وجبة لا يشتهيها ولا حتى أكثر الحيوانات اللاحمة جوعاً.

ـ والرائحة؟ فالبهيمة التي رأيتها كانت رائحتها مرعبة ـ قالت ناديا دون أن ترفع رأسها.

ـ هذه ليست نتنة، على الأقل لا نستطيع أن نشمّها من هنا... ـ علّق ألِكس ـ يجب أن يكون عندها غدّة، مثل الظربان، وتصدر الرائحة حسب إرادتها، كي تُدافع عن نفسها أو تشلّ فريستها.

وصل همس الفتيان إلى مسمع البهيمة، التي عادت والتفتت ببطء شديد لترى ما المسألة. تراجع ألِكس وناديا، لكنَّ واليماي تقدّم بتؤدة، كما لو أنّه يُقلّدُ بلادةَ المخلوق المدهشة، تتبعه على بعد خطوة منه زوجته الروحُ. كان التشامان رجلاً قصيراً، لا يصل إلى ورك البهيمة، التي كانت تنتصب مثل برج أمام العجوز. هبط وزوجته راكعين على الأرض أمام ذلك المخلوق الخارق، وعندئذٍ سمع الفتيان صوتاً عميقاً وكهفياً يلفظ بوضوح كلماتٍ بلغة أهل الضباب.

ـ إنّها تتكلّم مثل كائن بشري! ـ همس ألِكس، واثقاً من أنّه يحلم.

ـ كان الأبُ بالدومِرو على حقٍّ يا جغوار.

ـ هذا يعني أنّها تتمتع بذكاء بشريّ. هل تعتقدين أنّ باستطاعتك التواصل معها؟

ـ إذا كان واليماي يستطيع ذلك فأنا أيضاً أستطيع، لكنّني لا أجرؤ على الاقتراب منها ـ همست ناديا.

انتظرا برهةً طويلةً، لأنّ الكلمات كانت تخرج من فم المخلوق كلمةً كلمة، بالتمهّل ذاته الذي تتحرّك به.

ـ تسأل من نكون ـ ترجمت ناديا.

ـ فهمتُ هذا. أكاد أفهم كلَّ شيء... ـ همس ألِكس متقدّماً خطوةً. فأوقفه واليماي بإيماءة.

استمرَّ الحوارُ بين التشامان والبهيمة بالتقتير المزعج ذاته، دون أن يتحرَّك أحد، بينما النور يتبدّل في السماء البيضاء، متحوّلاً إلى برتقاليّ. افترض الفتيان أنَّه لا بدَّ أنَّ الشمسَ خارج هذه الفوَّهة بدأت تنحدر نحو الأفق. أخيراً نهض واليماي على قدميه وعاد إليهما.

ـ سينعقد مجلس الآلهة ـ أعلن.

ـ كيف؟ هل هناك مزيد من هذه المخلوقات؟ كم؟ ـ سأل ألِكس، لكنّ واليماي لم يستطع أن يجلي شكوكه، لأنّه لا يعرف العدّ.

قادهما الساحرُ بمحاذاة الوادي داخل التِبّوي حتى وصلوا كهفاً طبيعياً في الصخرة، حيث اتخذا أكثر الوضعيات راحة، انطلق بعدها بحثاً عن الطعام. عاد بثمار ذكيّة الرائحة، لم يرها أيُّ من الفتيين من قبل، لكنّهما كانا من الجوع بحيث أنّهما التهماها دون أي استفسار. هبط الليل فجأة ووجدوا أنفسهم محاطين بأكثر الظلمات عمقاً؛ اختفت فيها مدينةُ الذهب المُزيّف، التي كانت تتلألأ من قبل ببريقها. لم يُحاول واليماي أن يُشعل مشعله الثاني، الذي لا بدّ كان يُخبّئه للعودة عبر المتاهة، ولم يكن هناك نور في أيّ مكان. استنتج ألِكس أنّ تلك المخلوقات، وإن كانت إنسانية بلغتها وربّما في بعض سلوكياتها، إلا أنها أكثر بدائية من سكّان الكهوف، فهي لم تكتشف النار بعد. كان الهنود مقارنةً بالبهيمة أكثر تقدماً بكثير. فلماذا كان أهل الضباب يعتبرونها آلهة إذاً، إذا كانوا هم أكثر تطوّراً منها؟

لم يخفّ الحرُّ والرطوبة، لأنّهما كانا ينبعان من الجبل ذاته، كما لو أنّهما موجودون فعلاً في فوّهة بركان خامِد. لم تكن فكرةُ أنّهم فوق قشرةٍ رقيقةٍ من التربة والصخر، تضطرم تحتها نيرانُ الجحيم، مطمئنةً، لكنّ ألِكس استنتج أنّ البركانَ خامدٌ منذ آلاف السنين، ويدلُّ على ذلك الغطاءُ النباتي في داخله. وسيكون حظّاً في غاية السوء أنّ يثورَ بالضبط في الليلة التي يزورونه فيها. جرت الساعات التالية ببطءٍ شديد. وبصعوبة شديدة استطاع الشابان أن يناما في ذلك المكان المجهول. فقد كانا يتذكّران الجنديَّ الميت. لا

بدّ أن البهيمة استخدمت مخالبها الهائلة حتى انتزعت أحشاءه بتلك الطريقة الفظيعة. لماذا لم يهرب الرجل أو يُطلق النار من سلاحه؟ فبطء المخلوق الشديد كان يمنحه فائضاً من الوقت لذلك. التعليل فقط يمكن أن يكون في النتانة المخدّرة التي يُصدرها. ولا توجد طريقة يمكن أن يحميا بها نفسيهما إذا قرّرت المخلوقات أن تستخدم غدد روائحها ضدّهما. ولم يكن يكفي أن يُغلق المرء أنفه، فالنتن ينفذ عبر كلّ نقطة من مسامات الجسد، ويسيطر على الدماغ والإرادة: إنّه سمّ قاتل مثل الكورار.

ـ هل هي بشر أم حيوانات؟ ـ سأل ألِكس، لكنّ واليماي لم يستطع أن يجيب هذه المرّة أيضاً، لأنّه لم يكن هناك فارق بينهما بالنسبة إليه.

ـ من أين تأتي؟

ـ دائماً كانت هنا، إنّها آلهة.

تصوّر ألِكس أنّ داخل التِبَوي أرشيف بيئي، تعيش فيه أنواع انقرضت في بقية أنحاء الأرض.. فقال لناديا إنّها بالتأكيد أسلاف المتراخيات التي يعرفونها.

ـ لا تبدو كائنات بشرية يا نسر. فنحن لم نر مساكن ولا أدوات ولا أسلحة، لا شيء يوحي بمجتمع ـ أضاف.

ـ لكنّها تتكلّم مثل البشر يا جغوار ـ قالت.

ـ لا بدّ أنّها حيواناتٌ بطيئة الأيض جدّاً، وهي بالتأكيد تعيش مئات السنين. إذا كانت تملك ذاكرة، فهي تستطيع خلال حياتها الطويلة أن تتعلّم أشياء كثيرة، بما في ذلك الكلام، ألا تعتقدين ذلك؟ ـ جازف ألِكس.

ـ إنها تتكلّم لغة أهل الضباب. فمن ابتدعها؟ هل الهنود من علّمها للبهائم؟ أم البهائم علّمتها للهنود؟

ـ في جميع الأحوال، يخطر لي أنّ علاقة تكافلية قد قامت بين الهنود والبهائم ـ قال ألِكس.

ـ ماذا؟ ـ سألت هي التي لم تسمع قط بهذه الكلمة.

ـ يعني أنّ كلاً منهما يحتاجُ للآخر للبقاء على قيد الحياة.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري، لكنّني سأتحقّق من الأمر. قرأتُ مرّةً أنّ الآلهةَ تحتاج للبشر تماماً كما يحتاج البشرُ للآلهة ـ قال ألِكس.

ـ لا بدّ أن اجتماع البهائم سيكون طويلاً ومضجراً. من الأفضل لنا أن نرتاح قليلاً، وبهذا سنكون غداً نشيطين ـ اقترحت ناديا، وهي تستعد للنوم. واضطرّت أن تبعد بوروبا عنها وتجبره على الاستلقاء بعيداً لأنّها لم تحتمل حرارته. كان القرد كأنّه امتداد لكيانها، فكلاهما معتاد على الاحتكاك بجسد بالآخر، بحيث أنّ أيَّ انفصالٍ بينهما، مهما قصر، يجعلهما يشعران به كما لو أنّه استعدادٌ للموت.

في الفجر استيقظت الحياةُ في مدينة الذهب واستنار وادي الآلهة بكلّ أطياف الأحمر والبرتقالي والوردي. ومع ذلك تأخّرت البهائم كثيراً حتى نفضت عنها النوم وانبثقت واحدة فواحدة من أوجارها بين تشكيلات الصخر والبلور. أحصى ألِكس وناديا أحد عشر مخلوقاً، ثلاثة ذكور وثماني إناث، بعضها أطول من بعض، لكنّ جميعها بالغة. لم يريا نماذج شابّة من ذلك النوع الفريد وتساءلا كيف تتكاثر. قال واليماي إنّه نادراً ما يولد واحد منها، وهو شيء لم يحدث في حياته قط، وأضاف أنّه أيضاً لم يرها تموت، على الرغم من أنّه يعرف مغارة في المتاهة ترقد فيها هياكلها العظمية. خلص ألِكس إلى أنّ هذا يتوافق مع نظريته القائلة بأنّها كانت تعيش قروناً، وتصوّر أنّ هذه الثدييات ما قبل التاريخية تنجب ولداً أو ولدين في حياتها، لذلك فإن حضور ولادة واحد منها لا بدّ أنّه حدثٌ نادرٌ جدّاً. عندما تأمّل المخلوقات عن قرب، أدرك أنّه نظراً لضعف قدرتها على الحركة لا تستطيع أن تصطاد، ولا بدّ أنها نباتية. والبراثن الرهيبة ليست للقتل، بل للتسلّق، وهكذا استطاع أن يفسّر أن باستطاعتها الهبوط والصعود عبر الطريق العمودي الذي تسلقوه

في الشلال. كانت البهائم تستخدم فُرَصَ ونتوءات وشقوق الصخر ذاتها التي تفيد الهنود في التسلق. كم يوجد منها في الخارج؟ واحدة أم أكثر؟ كم كان بودّه أن يحمل معه عند العودة دليلاً على ما رآه!

بعد ساعات كثيرة بدأ الاجتماع. اجتمعت البهائم فيما يشبه الدائرة وسط مدينة الذهب ووالبماي والفتيان أمامها. بدوا أقزاماً بين أولئك العمالقة. وتولّد عندهما انطباع بأن المخلوقات كانت تهتزّ وأنّ حوافها غير واضحة، لكن سرعان ما أدركا أنّ قرى بكاملها من الحشرات من مختلف الأنواع كانت تعشّش في جلودها، بعضها يطير حولها مثل بعوض الثمار. وكان بخار الهواء يولّد وهماً بأن سحابة تلفّ البهائم. كانا على بعد أمتار منها، على مسافة كافية كي يرياها بتفاصيلها، ولكنها كافية أيضاً من أجل الهرب إن لزم الأمر، على الرغم من أنّهما كانا يعرفان أنّه لو قرّرت أيّ من هذه الكائنات العملاقة أن تنفث رائحتها فلن يكون هناك قوّة في العالم قادرة على إنقاذهما. كان واليماي يتصرّف بكثير من الوقار والاحترام، لكنّه لا يبدو خائفاً.

ـ هذان هما نسر وجغوار، غريبان صديقان لأهل الضباب. جاءا ليتلقيا التعليمات ـ قال العجوز.

لفّ صمت مطبق هذه المقدمة، كما لو أنّ الكلمات تأخّرت كثيراً حتى تترك أثراً في دماغ هذه الكائنات. ثم أنشد واليماي بعد ذلك قصيدة طويلة مقدّماً أخبار القبيلة، منذ آخر الولادات وحتى وفاة الزعيم موكاريتا، بما في ذلك الرؤى التي ظهر فيها الراهاكاناريوَا، وزيارة الأراضي المنخفضة، ووصول الغرباء، واختيار إيومي زعيمةً للزعماء. بدأ حوار شديد البطء بين الساحر والمخلوقات، فهمته ناديا وألِكس دون صعوبة، لأنّه كان هناك وقت للتفكير والتشاور بعد ذلك حول كلّ كلمة. وهكذا علما أنّ أهل الضباب كانوا يعرفون منذ قرون وقرون بوجود مدينة الذهب، وأنّهم حفظوا السرّ بحذرٍ حامين الآلهة من العالم الخارجي، بينما تحرص هذه الكائنات الرائعة على كلّ كلمة من تاريخ القبيلة. كان هناك لحظات حدثت فيها كوارث، عانت فيها بيئة التِبْوي من التبدّلات، ولم تكفِ النباتات

حاجات الأنواع التي تسكن في داخله. فكان الهنود في تلك العصور يأتون بـ«سكاريفيثيوس»: ذرة وبطاطا ومنيهوت وثمار وجوز. يضعون القرابين بالقرب من التِبّوي، دون أن يدخلوا في المتاهة السرّية، ويرسلون الرسولَ ليخبر الآلهة. وكانت القرابين تتضمّن بيضاً وسمكاً وحيوانات اصطادها الهنودُ، ومع مرور الزمن تبدّلت وجبات البهائم النباتية.

فكّر ألِكس أنّه إذا كانت لهذه المخلوقات البطيئة الذكاء حاجة للمقدّس، فلا شكّ أنّ آلهتها ستكون هنود تابّيراوَا ـ تيري غير المرئيين، فهم الكائنات البشرية الوحيدة التي يعرفونها. فالهنود كانوا بالنسبة إليها فاتنين. كانوا يتحرّكون ويتكاثرون بسرعة وعندهم أسلحة وأدوات، كانوا أسياد النار والعالم الخارجيّ الفسيح، كانوا كلّيي القدرة. لكنّ المتراخيات العملاقة لم تُدرك بعد مرحلة التطور التي يفكّر بها الكائن بموته ذاته، وليست بالتالي بحاجة إلى آلهة. فحياتها الطويلة جدّاً تجري على المستوى المادي المحض.

كانت ذاكرة البهائم تحتوي على كلّ المعلومات التي أمدَّها بها رسل البشر: إنهم أراشيف حيّة. لم يكن الهنود يعرفون الكتابة، لكنّ القصص لم تكن تضيع، لأنّ البهائم لم تكن تنسى شيئاً. فإذا ما سُئلت بأناة وصبر أمكن الحصول منها على ماضي القبيلة منذ العصر الأول، قبل عشرين ألف سنة. إنّ تشامان مثل واليماي كان يزورها كي يطلعها على آخر المستجدات بوساطة قصائد ملحمية ينشدها لها حول تاريخ القبيلة الماضي والحديث. وكان الرسلُ يموتون ويحلّ محلّهم آخرون، لكنّ كلَّ كلمة من تلك القصائد تبقى مخزّنة في أدمغة البهائم.

توغّلت القبيلة داخل التِبّوي منذ بداية التاريخ مرّتين فقط، وفي المناسبتين كلتيهما فعلت ذلك هرباً من عدوّ جبّار. المرّة الأولى حدثت قبل أربعمئة سنة، حين اضطرّ أهل الضباب للاختباء عدّة أسابيع من مجموعة من الجنود الإسبان تمكّنوا من الوصول إلى «عين العالم». وحين رأى المحاربون أنّ الأجانب يقتلون عن بعد

بعصيّ تصدر الدخان والدويّ، دون أيّ جهدٍ، أدركوا أن أسلحتهم لا تنفع ضدّهم. ففكّكوا أكواخهم، وطمروا ممتلكاتهم النادرة، وغطّوا بقايا الضيعة بالتراب والأغصان ومحو آثارهم وانسحبوا مع نسائهم وأطفالهم إلى التِبّوي المقدّس. وهناك بقوا في حماية الآلهة إلى أن مات الأجانب فرداً فرْداً. كان الجنود يبحثون عن إلْدورادو، وقد أعماهم الجشع، وانتهوا إلى أن قتل بعضهم بعضاً. ومن بقي منهم قضت عليه البهائم والمحاربون من أبناء البلد الأصليين. واحد فقط خرج حيّاً من هناك وتمكّن بطريقةٍ ما من العودة للاجتماع بأبناء بلده. وأمضى بقيةِ حياته مجنوناً، مربوطاً إلى عمودٍ في مأوى في نابّاراً يلقي خطباً عن العمالقة الأسطوريين ومدينة الذهب الخالِص. وقد بقيت الأسطورة في صفحات مؤرّخي الإمبراطورية الإسبانية، تغذّي خيال المغامرين حتي هذا اليوم. أما المرّة الثانية فقد حدثت قبل ثلاث سنوات حين حطّت طيور الصخب والريح في «عين العالم». ومن جديد اختبأ أهل الضباب إلى أن رحل الأجانب خائبين لأنّهم لم يعثروا على المناجم التي جاؤوا يبحثون عنها. ومع ذلك فالهنود الذين نبهتم رؤى واليماي كانوا يستعدون لعودتهم. هذه المرّة لن تمرّ أربعمئة سنة قبل أن يُغامر الناهاب من جديد بالعودة إلى الهضبة، لأنّهم يستطيعون الآن أن يطيروا. لذلك قرّرت البهائم الخروج لقتلهم، دون أن تدرِك أنه يوجد منهم ملايين وملايين. فهم معتادون على عدد محصور من النوع، وظنوا أن باستطاعتهم أن يقضو على الأعداء فرداً فرداً.

استمع ألِكس وناديا إلى البهائم تحكي قصّتها وراحوا يستخلصون استنتاجات كثيرة.

ـ لذلك لم يكن هناك قتلى هنود، فقط غرباء ـ أشار ألِكس مندهشاً.

ـ والأب بالدومِرو؟ ـ ذكّرته ناديا

ـ الأب بالدومِرو عاش مع الهنود. وبالتأكيد حدّدت البهيمة الرائحة، ولذلك لم تُهاجمه.

ـ وأنا؟ أيضاً لم تُهاجمني في تلك الليلة... ـ أضافت

ـ كنّا نمضي مع الهنود. لو رأتنا البهيمة حين كنّا مع البعثة، لكنّا متنا مثل الجندي.

ـ أُدْرِكُ جيّداً، البهائم خرجت تُعاقب الغرباء ـ استخلصت ناديا.

ـ بالضبط، لكنّها حصلت على نتائج عكسية. هاأنت ترين ما الذي حدث. لفتت الانتباه إلى الهنود و«عين العالم». وما كنت هنا لولا أنّ جدّتي تعاقدت مع مجلّة كي تكتشف البهيمة ـ قال ألِكس.

هبط المساء، ومن ثمّ الليلُ، دون أن يصل المشاركون في الاجتماع إلى أيّ اتفاق. سأل ألِكس عن عدد الآلهة التي خرجت من الجبل، وقال واليماي إنهما اثنتان، وهذه لم تكن معلومة أكيدة، فقد تكون ستّة أيضاً. وقد تمكّن الفتى من أن يوضّح للبهائم أنّ الأمل الوحيد لخلاصها كان البقاء داخل التِبّوي، وبالنسبة إلى الهنود هو التواصل مع الحضارة بطريقة منضبطة. فالتواصل أمر لا مناص منه، قال، فالحوّامات ستحطّ من جديد، عاجلاً أو آجلاً، في «عين العالم» وسيأتي الناهاب هذه المرّة ليستقرّوا. وقال إن هناك بعض الناهاب يرغبون بتدمير أهل الضباب والاستيلاء على «عين العالم». كان توضيح هذه النقطة صعباً للغاية، فلا البهائم ولا واليماي كانوا يفهمون كيف يمكن لأحد أن يستولي على الأرض. وقال إلِكس إنّ هناك ناهاب يريدون إنقاذ الهنود. وبالتأكيد سيفعلون كلّ شيء للحفاظ على الآلهة أيضاً، لأنّها آخر أبناء نوعها على الكوكب. وذكّرَ التشامان بأنّ إيومي عيّنته زعيماً للتفاوض من الناهاب، وطلب إذناً ومساعدة ليقوم بمهمّته.

ـ لا نظنّ بأنَّ الناهاب أقوى من الآلهة ـ قال واليماي.

ـ أحياناً هم أقوى. لا تستطيع الآلهة ولا أهل الضباب أن يحموا أنفسهم منهم. لكنَّ الناهاب يمكنهم أن يوقفوا ناهاباً آخرين ـ ردّ ألِكس.

ـ في رؤياي الراهاكاناريوَا متعطّش الآن للدماء ـ قال واليماي.

ـ أنا عُيّنتُ زعيمة لتهدئة الراهاكاناريوَا ـ قالت ناديا.

ـ يجب ألا يكون هناك مزيد من الحرب. على الآلهة أن تعودَ إلى الجبل. وناديا وأنا سنعمل على أن يحترم الناهاب أهلَ الضباب ومنزلَ الآلهة ـ وعدَ ألِكس، محاولاً أن يكون مقنعاً.

في الحقيقة لم يكن يعرف الطريقة التي يُقنِع بها ماؤرو كارِيّاس والنقيب أريوستو ومغامرين آخرين كثيرين يطمعون بثروات المنطقة. فهو لم يكن يعرفُ مخطّط ماؤرو كاريّاس أو الدور الذي على أعضاء بعثة الإنترناشيونال جيوغرافيك أن يلعبوه في القضاء على الهنود. فرجل الأعمال قال بوضوح إنّهم سيكونون شهوداً، لكنّه لم يتمكّن من أن يعرف على ماذا.

كان الفتى يُفكّر في داخله أنّه ستحدث في العالم هزّة حين تنشر جدّته تقريرها عن وجود البهائم والجنّة البيئية التي ينطوي عليها التِبّوي. فبقليل من الحظ، وباستخدام الصحافة بمهارة، يمكن لكات كولْدْ أن تُعلن «عينَ العالم» محميّةً طبيعيةً تقوم على حمايتها الحكومات. ومع ذلك يمكن أن يصل هذا الحلُ متأخّراً جدّاً. فإذا ما خرج ماؤرو كاريّاس بما يريد «سيُقضى على الهنود خلال ثلاثة أشهر» كما قال في حديثه مع النقيب أريوستو. الأمل الوحيد هو في وصول الحماية الدولية قبل ذلك. وإن كان من غير الممكن تفادي فضول العلماء وآلات التصوير التلفزيونية، فعلى الأقل يمكن وقف غزو المغامرين والمستوطنين المستعدين لترويض الأدغال والقضاء على سكّانها. كذلك مرّ بخاطره هاجِس أن يحوِّلَ رجلُ أعمال هوليوود الرهيب التِبّوي إلى نوع من الديزني وورلد أو الجوراسيك بّارك. كان يأمل أن يتمكن الضغط الذي ستُحدِثُه تقاريرُ جدّته من تفادي أو تعطيل هذا الكابوس.

كانت البهائم تشغل قاعاتٍ مختلفة في تلك المدينة الخرافية.

كائنات معزولة، لا تُقاسم أحداً فضاءها. وهي على الرغم من ضخامة حجمها، تأكل قليلاً، تجترّ خلال ساعات نباتات وثماراً وجذوراً، ومن حين لآخر حيواناً صغيراً يسقط ميتاً أو جريحاً عند أقدامها. استطاعت ناديا أن تتواصل معها أفضل من والِيماي. وقد أظهر زوج من تلك المخلوقات الإناث اهتماماً بها وسمحا لها بالاقتراب، لأنّ أكثر ما كانت ترغب به الصغيرة هو لمسها. وحين وضعت يدها على جلدها القاسي اعتلت ذراعها مئات الحشرات من مختلف الأنواع وغطّتها بالكامل. نفضتها يائسة، لكنّها لم تستطع أن تتخلّص من الكثير منها، فقد بقيت ملتصقة بثيابها وشعرها. دلّها والِيماي على إحدى بحيرات المدينة فغطست في الماء، الذي كان فاتراً وغازيّاً. وحين غاصت شعرت بدغدغة فقاعات الهواء. دعت ألِكس فتبللا برهة طويلة، وتنظّفا أخيراً، بعد كلّ تلك الأيّام من الزحف على الأرض والتعرق.

في هذه الأثناء كان والِيماي قد سحق لبَّ ثمرة بذورها كبيرة وسوداء في قرعةٍ، وخلطها على الفور بعصير بعض العنب الأزرق البرّاق. والنتيجة جاءت عجينة بنفسجية لها تماسك حساء العظام الذي شربوه في جنازة موكاريتا، لكنّ طعمه لذيذ وله رائحة عسل ورحيق أزهار نفّاذة وفوّاحة. قدّمها التشامان للبهائم، ثمّ شرب هو وأعطاها للفتيين وبوروبا. خفّف ذلك الغذاء المركّز جوعهما على الفور، وشعرا بقليل من النشوة كما لو أنّهما شربا كحولاً.

أُنزِلا في تلك الليلة في إحدى غرف مدينة الذهب، حيث الحرّ أقل ضغطاً من كهف الليلة السابقة. بين التشكيلات المعدنية كانت تنمو سحلبيات مجهولة في الخارج، وبعضها كان عبقاً بحيث لا يكاد يستطيع المرء أن يتنفّس بجواره. سقط المطر الساخن والكثيف برهة طويلة وبلّل كلّ شيء، وراح يجري بين الشقوق البلورية مثل الأنهار محدثاً دوي طبول متواصل. وحين توقّف أخيراً بَرَدَ الهواء فجأةً واستسلم الفتيان المنهكان للحلم على أرضِ إلْدورادو القاسية، يداخلهم إحساس بامتلاء بطنيهما بالأزهار العطرة.

كان المشروب الذي حضّره والِيماي فضيلة سحرية، فقد حملهم

إلى مملكة الأساطير والأحلام الجمعية، حيث الجميع آلهةٌ وبشراً يستطيعون أن يشتركوا في الرؤى ذاتها. وهكذا وفّروا على أنفسهم كلاماً وشروحاتٍ كثيرة. حلموا بالراهاكاناريوَا سجيناً في قفص من خشب مختوم، يائساً، محاولاً أن يتحرّر بمنقاره الفظيع ومخالبه المريعة، بينما الآلهة والبشر مربوطون إلى الأشجار ينتظرون مصيرهم. حلموا بأنّ الناهاب يقتلون بعضهم بعضاً، وجميعهم تعلو الأقنعةُ وجوههم. رأوا الطائر آكل اللحم البشريّ يُحطِّمُ الصندوقَ ويخرج مستعدّاً لأن يلتهم كلّ شيءٍ يجده في طريقه، لكن نسراً أبيضَ وجغواراً أسودَ خرجا لصدّه يتحديانه في معركة فاصلة. لم يكن هناك من حلّ في تلك المنازلة، كما هي الحال في الأحلام. ألِكساندر كولْدْ عرف الراهاكاناريوَا، لأنّه رآه قبل ذلك في كابوسٍ بهيئة نسرٌ حطّم نافذة بيته، وحمل أمّه بمخالبه الفظيعة.

حين استيقظوا في اليوم التالي لم يكن عليهم أن يحكوا ما رأوا، لأنّ الجميع كانوا حاضرين في الحلم ذاته، حتى بوروبا الصغير. وحين التأم مجلس الآلهة لمتابعة مناقشاته لم يضطرّ لقضاء ساعات لتكرار الأفكار ذاتها، كما في اليوم السابق. كانوا يعلمون ما عليهم أن يفعلوه، فكل واحد يعرف دوره في الأحداث القادمة.

ـ جغوار ونسر سيصارعان الراهاكاناريوَا. إذا انتصرا، ما هي جائزتهما؟ ـ استطاعت إحدى البهائم أن تصوغ السؤال، بعد كثير من التردّد.

ـ بيوض العش الثلاث ـ قالت ناديا دون تردّد.

ـ وماء الصحة ـ أضاف ألِكس، وهو يُفكّر بأمّه.

واليماي، الخائف، بيّن للفتيين أنّهما خرقا القاعدة الأساسية للتعامل بالمثل: لا يمكن لأحد أن يأخذ دون أن يُعطي. كان هذا هو القانون الطبيعي. لقد تجرّأا على أن يطلبا من الآلهة شيئاً دون أن يقدّما لها شيئاً بالمقابل... كان سؤال البهيمة شكلياً خالصاً والصحيح أن يردّا أنّهما لا يريدان أيّ تعويض لهما فهما إنما يقومان بذلك تبجيلاً للآلهة وعطفاً على البشر. وبالفعل بدت البهائم

مضطربة ومنزعجة من طلب الغريبين. بعضها نهض ببطء على قدميه، مهدّداً ومزمجراً ورافعاً ذراعيه الغليظتين مثل جذعي بلوط. فارتمى والبماي على وجهه أمام المجلس مدمدماً بتوضيحات واعتذارات، لكنَّه لم يستطع أن يهدئ النفوس. وبدا خائفاً من أن تُقرّر بعض البهائم صعقهما برائحة جسدها. استعان ألِكس بوسيلة الإنقاذ الوحيدة التي خطرت بباله: ناي جدّه.

ـ عندي هديّة للآلهة ـ قال مرتعداً.

اجتاحت نغمات الآلة العذبة جوَّ التِبْوي الحار ساحرةً. تأخّرت البهائم، التي أذهلتها المفاجأة، عدّة دقائق في ردّة فعلها، وحين فعلت كان ألِكس قد حلَّق واستسلم لمتعة الخلق الموسيقي. بدا أنّ نايه قد اكتسب قدرات واليماي الخارقة. تضاعفت الألحان في مسرح مدينة الذهب العجيبة، مرتدّة ومتحوّلة إلى نغمات لا نهاية لها. اهتزت السحلبيات بين تشكيلات البلور العالية. لم يعزف الفتى قط بمثل تلك الطريقة، ولم يشعر قط بنفسه جبّاراً كما شعر إذ ذاك: كان باستطاعته أن يُلينّ الضواري بسحرِ نايِهِ. شعر كما لو أنّه موصول إلى جهاز توليفي جبّار، يُرافِق اللحن بأوركسترا كاملة من الآلات الوترية والنفخية والإيقاعية. البهائم، المتجمِّدة في البداية، بدأت تتمايل مثل أشجار ضخمة تحرّكها الريح. طرقت قوائمها الألفية الأرضَ، وتجويف التِبوي الخصب دوّى مثل ناقوس عظيم. وعندئذ وباندفاع قفزت ناديا إلى وسط نصف دائرة المجلس بينما بقيَ بوروبا، وكأنّه أدرك أنَّ تلك كانت لحظة حاسمة، ساكناً عند قدمي ألِكس.

بدأت ناديا ترقص بطاقة الأرض، التي كانت تخترق عظامها النحيلة مثل النور. لم ترَ قط الباليه، لكنّها اختزنت الإيقاعات التي سمعتها مرّات كثيرة: السامبا البرازيلية، والصلصا والخوروبو الفنزويلي، والموسيقى الأمريكية التي كانت تصل بالمذياع. لقد رأت زنوجاً وخلاسيين، ومستوطنين وبيضاً يرقصون حتى ينهاروا منهكين خلال كرنفال ماناوس، ورأت الهنودَ يرقصون بوقار في احتفالاتهم. ارتجلت بحدس خالص هديّةً للآلهة دون أن تدري ما

كانت تفعله. كانت تحلّق، جسدُها يتحرّك تلقائياً، في غيبوبة بلا وعي أو تصميم منها. كانت تتمايل مثل أكثر النخلات سموقاً، ترتفع كزبد الشلالات، وتدور كالريح. ناديا تُقلّد تحليق ببغاء الغواكامايو، وجري الجغوار، وإبحار الدلفين، وأزيز الحشرات، وتموج الأفاعي.

منذ آلاف السنين وُجِدَت الحياة في أسطوانة تجويف التِبّوي، لكن لم يُسمع فيها موسيقى قط، ولا حتى إيقاع طبل. وفي المرّتين اللتين لاذ فيهما أهل الضباب بحماية مدينة الذهب الأسطورية، قاموا بهما بطريقة لا تثير حفيظة الآلهة، بصمتٍ تام، مستخدمين قريحتهم كي يُصبحوا لا مرئيين. ولم تكن البهائم تعرف بأن للبشر تلك القدرة على خلق الموسيقى، كما لم يروا جسداً يتحرّك بالخفّة والعاطفة والسرعة والملاحة التي رقصت بها ناديا. وفي الحقيقةً إنّ تلك الكائنات المتثاقلة لم تتلقّ قط هديّة مثل تلك العظمة. أدمغتهم البطيئة التقطت كلَّ نغمةٍ وكلَّ حركةٍ وخبّأتها للقرون القادمة. وسوف تبقى معها هديّة هذين الزائرين كجزء من أسطورتها.

15

البيوض البلوريّة

مقابل الموسيقى والرقص الذي تلقته البهائم منحت الفتيين ما طلباه. أشارت إلى ناديا بأنّ عليها أن تصعد إلى التِبّوي، إلى أعلى القمم، حيث عشّ بيوض رؤياها الثلاث. أمّا هو جغوار فعليه أن يهبط إلى أعماق الأرض، حيث ماء الصحّة.

ـ ألا نستطيع أن نذهب معاً، إلى قمّة التِبّوي أولاً ثم إلى قاع الفوّهة؟ ـ سأل ألِكس، وهو يفكّر بأن المهمّتين ستكونان أسهل إذا قاما بهما معاً.

رفضت البهائم ببطء بحركة من رأسها ووضّح واليماي أنّ أيّ رحلة إلى مملكة الأرواح يجب أن تكون فردية. وأضاف أنّه ليس أمامهما مهلة غير يوم غدٍ كي يُتِمّ كلّ واحدٍ منهما مهمّته، لأنّ عليه أن يعود عند حلول الليل دون تأخير إلى العالم الخارجي، هذا هو اتفاقه مع الآلهة. إذا لم يكونا قد عادا فسيبقيان محاصرين في التِبّوي المقدّس، لأنهما لن يعثرا أبداً على مخرج المتاهة بنفسيهما.

أمضى الصديقان بقيّة النهار يتجولان في إلْدورادو يحكيان كلّ للآخر قصّة حياته القصيرة؛ فكلاهما كان يريد أن يعرف عن الآخر أكثر ما يستطيع قبل أن يفترقا. بالنسبة إلى ناديا كان من الصعب عليها أن تتصوَّرَ صديقها مع أسرته في كاليفورنيا؛ فهي لم ترَ قط، حاسوباً، ولم تذهب إلى مدرسة ولم تعرف الشتاء. بينما كان الفتى

الأمريكي يحسد من ناحيته الفتاةَ على حياتها الحرّة والصامتة، واتصالها بالحميم بالطبيعة. كانت ناديا سانتوس تملك رجاحة عقل وحكمة بدا له أنّهما لا يُطالان.

تمتّعت ناديا وألِكساندر بتشكيلات الميكا ومعادن المدينة الأخرى، ونباتات المنطقة الخيالية، التي كانت تنبت في كلّ مكان، والحيوانات والحشرات الفريدة التي يضمُّها المكان. لاحظا أنّ تنينات كتنين الكهف، تعبرُ أحياناً في الجو وديعةً مثل ببغاوات مدرَّبة. نادَيَا واحداً منها، فهبط بلطف عند أقدامهما واستطاعا أن يلمساه. كان جلده ناعماً وبارداً، كجلد سمكة، وله نظرة صقر ونَفَسٌ عَطِرٌ كالأزهار. استحمّا في البحيرات الساخنة وأتخما من الثمار التي سمح لهما والِيماي بتناولها. كان هناك، حسب توضيحات التشامان، ثمار وفطور قاتلة، بعضها يأتي بكوابيس أو يُدَمِّرُ الإرادة، وأخرى تمحو الذاكرة للأبد. كانا خلال نزهتهما يصادفان البهائمَ هنا وهناك، والتي تقضي القسم الأعظم من حياتها في سبات. فما إن تتناول الأوراق والثمار لتتغذّى حتى تقضي بقية النهار في تأمّل المنظر الدافئ المحيط بها وغطاء الغيوم الذي يُغطّي فتحةَ التِبّوي. «يظنّون أنَّ السماءَ بيضاءَ وبحجم هذه الدائرة» علّقت ناديا، فردّ ألِكس بأنّهم هم أيضاً لهم نظرة مشابهة للسماء، التي يعرف روّادُ الفضاء أنّها ليست زرقاء، وأنّها عميقة مظلمة بشكل مُطلق. ناما في تلك الليلة متأخرين وتعبين، ناما جنباً إلى جنب، دون أن يتلامسا، لأنّ الحرَّ كان شديداً، لكنّهما تقاسما الحلمَ ذاته، كما اعتادا أن يفعلا بوساطة ثمار والِيماي السحرية.

في فجر اليوم التالي سلّم التشامان العجوز ألِكساندر كولْدْ قرعةً فارغة، وسلّم ناديا قرعة فيها ماء وسلّة، ربطتها إلى ظهرها. حذّرهما من أنّه لا عودة إلى الوراء بعد الشروع بالرحلة إلى المرتفعات كما إلى الأعماق. وعليهما أن يتغلّبا على العقبات أو يموتا في المهمّة، فالعودة بيدين فارغتين أمرٌ مستحيل.

ـ هل أنتما واثقان من أنّ هذا هو ما ترغبان بفعله ـ سأل التشامان.

ـ أنا نعم ـ قالت ناديا بتصميم.

لم يكن لديها أدنى فكرة عن فائدة البيوض، أو لماذا عليها أن تذهب للبحث عنها، لكنّها لم تشك بروؤياها. لا بدّ أنّها ثمينة جداً أو سحرية تماماً، ولأجلها كانت مستعدة لأن تتغلّب على أكثر المخاوف تجذّراً في داخلها: الدوار من المرتفعات.

ـ وأنا أيضاً ـ أضاف ألِكس، وهو يُفكّر أنّه يستطيع أن يذهب إلى الجحيم ذاته بشرط أن يُنقِذَ أمّه.

ـ قد تعودان وقد لا تعودان ـ وعدهما الساحرُ، بلا مبالاة، لأنّ الفاصِل بين الحياة والموت بالنسبة إليه ليس غير خيطٍ من دخان يمكن لأيّ نَسْمَة أن تمحوه.

نزعت ناديا بوروبا عن خصرها، وشرحت له أنّها لا تستطيع أن تحمله معها إلى حيث تذهب. تعلّق القردُ بساق واليماي وهو يئن ويهدّد بقبضته، لكنّه لم يُحاول أن يعصاها . تعانق الصديقان بحرارة، خائفين ومتأثّرين. ثم انطلق كلّ منهما في الاتجاه الذي حدّده له واليماي.

صعدت ناديا سانتوس الدرج المحفورَ في الصخرة الذي هبطت عبره برفقة واليماي وألِكس من المتاهة وحتى قاعدة التِپّوي. لم يكن الصعودُ إلى تلك الشرفة صعباً، على الرغم من أنّ الدرجات كانت شديدة الانحدار، وتخلو من درابزين تستند إليه والدرجات قليلة العرض، متباينة ومتآكلة. وفي صراعها مع الدوار ألقت نظرة سريعة إلى الأسفل فرأت منظر الوادي الأخضر الرائع الضارب للزرقة، يكتنفه ضباب خفيف ومدينة الذهب الرائعة في وسطه. ثمّ نظرت إلى الأعلى فضاعت عيناها في الغيوم. بدت فتحة التِپّوي أضيق من قاعدته. كيف ستصعد السفوح المنحدرة؟ ستحتاج لأرجل خنفساء. كم كان ارتفاع التِپّوي في الحقيقة، وكم تُغطّي الغيوم منه؟ أين العشّ بالضبط. قرّرت ألاّ تُفكّر بالمشاكل بل بحلّها: سوف تواجه العوائق الواحد بعد الآخر، في كلّ مرة تتعرّض لها. فإذا كانت قد استطاعت أن تصعد عبر الشلال ستستطيع أن تقوم بهذا،

كما فكّرت، وإن كانت الآن وحيدة وليست مربوطة بحبلٍ إلى جغوار.

حين وصلت إلى الشرفة أدركت أنّ الدرج ينتهي هناك، وعليها من الآن فصاعداً أن تصعد متعلّقة بما تستطيع أن تمسك به. سوّتْ السلّةَ على ظهرها، وأغمضت عينيها وبحثت عن السكينة في داخلها. كان جغوار قد وضّح لها أنّه في مركز كينونتها تتركّز الطاقة الحيّة والشجاعة. تنفّست بكل قوّتها كي يملأ الهواءُ النقيُّ صدرَها ويجوبَ دروبَ جسدها ويصلَ إلى رؤوس أصابع قدميها ويديها. كرّرت التنفّس العميقَ ذاته ثلاث مرّاتٍ، وهي مغمضة العينين دائماً، فلمحت النسرَ، طوطمها. خُيل إليها أنّ ذراعيها تنتشران، تمتدّان، تتحوّلان إلى جناحين يكسوهما الريش وأن ساقيها تتحوّلان إلى قائمتين تنتهيان بمخالب كأنّها كلابات، وفي وجهها ينمو منقار ضار، بينما عينيها تتباعدان حتى تُصبحا على جانبي الرأس. شعرت بشعرها الناعم والكثّ يتحوّل ريشاً قاسياً ملتصقاً برأسها، وأنّ باستطاعتها أن تنفش الريش الذي يكتنز معارفَ النسور بإرادتها: فهي مجسات لالتقاط ما في الجوّ، بما في ذلك الخفّي منه. فَقَدَ جسدُها مرونته وأحرز بالمقابل خفّةً تكادُ تكون مُطلقة، تستطيع معها أن تنفصل عن الأرض، وتسبح مع النجوم. أحسّت بقوّة هائلة، بكل قوّة النسر في دمها. شعرت بأنّ تلك القوّة تصل إلى آخر نقطة في جسدها وضميرها. أنا نسر، قالت ذلك بصوت عالٍ وفتحت عينيها على الفور.

تشبثت ناديا بثلم صغير في الصخرة فوق رأسها، ووضعت قدمها في آخر على مستوى خصرها. رفعت جسدها وبحثت في الأعلى حتى تمكّنت أن تقع على جذرٍ بينما راحت تتلمس بقدمها كي تقع على شقّ آخر. كرّرت الحركةَ باليد الأخرى، باحثة عن نتوء وحين عثرت عليه ارتفعت قليلاً. كانت النباتات التي تنمو على السفوح تساعدها، فقد كان هناك جذور وشُجيرات ونباتات متسلقة. أيضاً رأت خدوشاً عميقة في الصخر وفي بعض الجذوع، ففكّرت أنّها آثار مخالِب. لا بدَّ أنّ البهائم صعدت أيضاً بحثاً عن غذاء، أو أنّها لم تكن تعرف خريطة المتاهة، وأنّها في كلّ مرّة كانت

تدخل وتخرج من التِبّوي تصعد إلى القمّة وتنزل من الجانب الآخر. قدّرت أنّ ذلك لا بدّ أنّه يستغرق أيّاماً، وربّما أسابيع، نظراً للبطء الغريب للمتراخيات العملاقة.

أدرك جزء من تفكيرها، كان ما يزال فاعلاً، أنّ تجويف التّبّوي لم يكن مخروطاً مقلوباً، كما افترضت بالتأثير البصري الناتج عن النظر إليه من الأسفل، بل إنّه ينفتح بشكل خفيف. كانت فتحة الفوُهة في الحقيقة أعرض من القاعدة. ولم تكن، بعد كلّ حساب، تحتاج إلى أرجل خنفساء، بل إلى تركيز وجرأة فقط. وهكذا تسلّقت متراً بمتر، خلال ساعات، بعزيمة مذهلة ومهارة حديثة العهد. مصدر هذه المهارة هو أكثر الأماكن عمقاً وغموضاً، مكانُ السكينة في قلبها، حيث توجدُ الخصائص النبيلة للطوطم. فهي النسرُ، طائر التحليق الأعلى، ملك السماء، الذي يبني عشّه حيث وحدها الملائكة تصله.

تابعت الطفلةُ النسر صعودها خطوةً خطوة. هواء الوادي في الأسفل، الحار والرطب صار نسمةً منعشة دفعتها إلى الأعلى. توقّفت كثيراً، منهكة جدّاً، تصارع إغواء النظر إلى الأسفل وتقدير المسافة إلى الأعلى، مركزّة فقط على الحركة التالية. ظمأ رهيب كان يحرقها، وتشعر بفمها مليئاً بالرمل، وبطعم مرّ، لكنّها لا تستطيع أن تفلت ما تمسك به لتفك قرعة الماء، التي أعطاها لها واليماي، عن ظهرها. سأشرب حين أصل إلى الأعلى، كانت تتمتم، وهي تُفكّر بالماء البارد والنقيّ يغسلها من داخلها. لو أنّها على الأقل تُمطر، فكّرت، لكن ما من قطرة واحدة تسقط من الغيوم. وحين كانت تظنّ أنّه ما عاد باستطاعتها أن تخطو خطوة أكثر، أحست بطلسم واليماي السحريّ معلّقاً إلى عنقها فمنحها العزيمة. إنه يحميها. فقد ساعدها على صعود صخور الشلال السوداء الملساء، وعلى أن تصبح صديقة الهنود، وحماها من البهائم؛ وما دام معها فهي أمان.

بعد ذلك بكثير أدركت الغيومَ الأولى، الكثيفة ككريما الحلوى، ولفّها بياضٌ حليبيّ. تابعت تسلّقها دون رؤية، متشبّثة بالصخور

والنباتات، التي كلّما صعدت أكثر كلّما ندرت. لم تكن تعي أنّ يديها وركبتيها وقدميها تدمى، لأنها كانت تُفكِّرُ بالقوّة السحرية التي تشدّ من عزيمتها، حتى أمسكت يدها بفجوة عريضة. وسرعان ما رفعت جسدها كاملاً ووجدت أنّها على قمّة التِبّوي، المخفيّة دائماً بالغيوم المتراكمة. صيحة انتصار مدوية، صرخة سلفية ووحشية، كصيحة رهيبة لمئة نسر مجتمعة، انبثقت من صدر ناديا سانتوس وراحت تنفجر على صخور قممٍ أخرى، وتتردد وتتضخم حتى تلاشت في الأفق.

انتظرت الفتاةُ جامدةً في الأعلى إلى أن ضاعت صرختها في آخر فوالق الهضبة العظيمة. وعندئذٍ سكن طبل قلبها واستطاعت أن تتنفّس بعمق. وما إن شعرت بثباتها على الصخور حتى مدّت يدها إلى القرعة وشربت كامل محتواها. لم ترغب قط بشيء بمثل تلك الرغبة. دخل السائل البارد عبر حنجرتها كانساً الرملَ والمرارةَ من فمها، مبلّلاً لسانها وشفتيها الجافّتين، نافذاً إلى كامل جسدها مثل ترياق عجيب قادر على الشفاء من الضيق ومحو الألم. وأدركت أنّ السعادة تكمن في الحصول على ما ننتظره زمناً طويلاً.

الارتفاع والجهد القاسي في الوصول إلى هناك وتخطّيها لرعبها فعلت فعل مخدّرٍ أقوى من مخدّر هنود تابّيراوَا ـ تيري وشراب أحلام واليماي الجمعية. عادت لتشعر بأنّها تطير، لكّنها ما عادت تملك جسد النسر، فقد تخلّصت من كلّ ما هو مادّي، صارت روحاً خالصةً. صارت عالقة في فضاء مجيد. وصار العالم بعيداً جدّاً، في الأسفل، في سهل الأوهام. طفت هناك برهة لا حصر لها وفجأة رأت ثقباً في السماء المشعّة. فانطلقت دون تردّد مثل سهم عبر تلك الفتحة ودخلت فضاءً فارغاً ومظلماً مثل السماء اللامتناهية في ليلة بلا قمر. كان ذلك هو الفضاء المطلق لكلّ ما هو مقدّس وللموت، الفضاء الذي تذوب فيه الروح نفسها. كانت هي الفراغ، بلا رغبات ولا ذكريات. لم يكن هناك ما يُخشى منه. وهناك بقيت خارج الزمن.

لكنّ جسد ناديا على قمّة التِبّوي راح شيئاً فشيئاً يستدعيها،

ويطلبها. أعاد الأوكسجينُ إلى دماغها الإحساسَ بالواقع المادّيّ، ومنحها الماءُ الطاقةَ الضروريةَ للحركة. أخيراً قامت روحُ ناديا بالرحلة العكسية، عادت لتعبر مثل سهم الفتحة التي في الفراغ، ووصلت إلى القبّة المجيدة حيث طفت برهةً في البياض الهائل، ومن هناك انتقلت إلى هيئةِ النسر. كان عليها أن تُقاوم إغواءَ الطيران الأبديّ، تحملها الريح لتعود بجهد أخيرٍ إلى جسد الطفلة. وجدت نفسها جالسة على قمّة العالم فنظرت حولها.

كانت على أعلى قمم الهضبة محاطةً بصمت الغيوم الفسيح. ورغم أنّه لم يكن باستطاعتها أن ترى الارتفاع أو سعة المكان الذي هي فيه، إلّا أنها قدّرت أن الحفرة في مركز التِبّوي صغيرة مقارنة بضخامة الجبل الذي يضمّها. كانت الأرضُ تبدو مصدّعة بفوالق عميقة، صخرية في جزء منها ومغطاة بالنباتات المكتظّة في قسم آخر. وافترضت أنه سيمر وقت طويل قبل أن تسبر طيور الناهاب الفولاذية ذلك المكان، لأنّ الهبوط هناك مستحيل، ولا حتى في حوّامة، فالحركة بالنسبة لشخص واحد في خشونة ذلك السطح بدت محالة. شعرت بنفسها تخور لأنّها قد تبحث عن العش بقيّة أيّامها دون أن تعثر عليه في تلك الشقوق، لكنّها سرعان ما تذكّرت أنّ واليماي دلّها أين يجب أن تصعد تماماً. ارتاحت لحظةً وشرعت بالسير صاعدةً وهابطةً من صخرة إلى صخرة تدفعها قوّة مجهولة، نوع من اليقين الحدسي.

لم تضطر لأن تذهب بعيداً. فعلى مسافة قصيرة، في الفجوة القائمة بين صخرتين كبيرتين، وجدت العشُ وفي وسطه بيوض البلّور الثلاثة. كانت أصغر وأكثر بريقاً وروعةً من تلك التي رأتها في رؤياها.

زحفت ناديا سانتوس حتى العشّ بألف حذر كي لا تنزلق في أحد الشقوق العميقة حيث يمكن أن تتهشّم عظامها. انغلقت أصابعها على ذلك الكمال البلوري البرّاق، لكنّ ذراعها لم تستطع تحريكها. أمسكت مستغربةً ببيضة أخرى، فلم تتمكّن من تحريكها ولا من

تحريك الثالثة. كان من المحال لهذه الأشياء التي بحجم بيضة الطوقان أن تزن بهذا الشكل. ماذا يحدث؟ تفحصتها، دافعة إيّاها من كلّ الجهات إلى أن تحقّقت من أنّها ليست ملتصقة ولا مسمّرة، على العكس، فهي تبدو أنها ترتاح شبه طافية في نضيدة أعواد وريشِ العش الصغير. جلست الفتاة على أحد الصخور، دون أن تُدرِك ما الذي يجري، أو تستطيع أن تُصدِّق أنّ كلَّ تلك المُغامرة وذلك الجهد بالوصول إلى هناك ضاع سدى. لقد امتلكت قوّة خارقة للصعود مثل ضبٍّ عبر جدران التِبّوي الداخلية، والآن وحين أدركت القمّة أخيراً، تخونها قواها في أن تحرِّكَ قيدَ أنملة الكنزَ الذي ذهبت للبحث عنه.

تردَّدت ناديا سانتوس دقائق طويلة، مشوشة، دون أن تتصوَّر حلاً لذلك اللغز. قد تكون البهائم وضعتها هناك، وقد تكون لمخلوقات خرافية أخرى، طائرة أو زاحفة، كالتنين. وفي هذه الحالة يمكن للأم أن تظهر في أيّة لحظة، وحين تجد الدخيلة بجانب عشّها ستندفع وتهاجمها بضراوة مبرَّرة. يجب ألا تبقى هناك، قرّرت، لكنّها أيضاً لا تفكِّر بالتخلّي عن البيوض. فواليماي قال إنّها لا تستطيع أن تعودَ خالية الوفاض... ماذا قال لها التشامان غير ذلك؟ يجب عليها أن تعودَ قبل حلول الليل. وعندئذٍ تذكَّرت ما علمّها إيّاه ذلك العجوز الحكيم في اليوم السابق: قانون المعاملة بالمثل. مقابل كلّ شيء يأخذه المرءُ عليه أن يعطي شيئاً آخر.

نظرت إلى نفسها يائسة. ليس معها ما تُعطيه. لم تكن تحمل غير قميص وبنطلون قصيرين وسلّة مربوطة إلى ظهرها. وحين تفحَّصت جسدها انتبهت لأوّل مرّة للخدوش، والكدمات والجراح المفتوحة التي تسبّبت لها بها الصخور عند صعود الجبل. ربّما كان دمها، حيث تتركز طاقتها الحيوية،، الذي سمح لها بالوصول إلى هناك، هو الشيءَ الوحيدَ الثمينَ الذي تملكه. اقتربت مقدِّمة جسدها المتألّم كي يقطر دماً فوق العشّ. بقع حمراء لطخت الريش الناعم. حين انحنت شعرت بالطلسم على صدرها، فأدركت على الفور أنّه الثمن الذي عليها أن تدفعه لقاء البيوض. تردّدت لدقائق طويلة. تسليمه يعني التنازل عن قوى الحماية السحرية، التي كانت تعزوها

إلى العظم المنقوش، هديّة التشامان. لن تملك بعد الآن شيئاً سحريّاً كتلك التعويذة، فقرّرت أنّها بالنسبة إليها أهمّ من البيوض، التي لا تستطيع أن تتصوّر فائدتها. لا، لا تستطيع أن تتخلّى عنها.

أغمضت ناديا عينيها، منهكة بينما راحت الشمسُ المتسرّبة من الغيوم تبدّل لونها. وعادت خلال لحظات إلى حلم الأياهواسكا المهلوس، الذي رأته في جنازة موكاريتا فعادت لتصبح نسراً يحلّق في السماء البيضاء، تحمله الريح، رشيقاً وجبّاراً. رأت البيوضَ من الأعلى، تلمع في عشّها، كما لو في رؤيا، فتمّ لها اليقين ذاته: في هذه البيوض خلاص أهل الضباب. أخيراً فتحت عينيها متنهِّدة، وخلعت الطلسم من عنقها ووضعته في العشّ. مدّت يدهَا على الفور ولمست واحدة من البيوض، فأذعنت لها مباشرة واستطاعت أن ترفعها دون جهدٍ. كذلك حدث مع البيضتين الأخريين. وضعت البيضات الثلاث بعناية في سلّتها واستعدّت للهبوط من حيث صعدت. كان نورُ شمس ما يزال يتسرّب من بين الغيوم؛ فقدّرت أنّ الهبوط يجب أن يكون أسرع وأنّها ستصل إلى الأسفل قبل حلول الليل، كما نبّهها والِيماي.

16

ماء الصحّة

بينما كانت ناديا سانتوس تصعدُ إلى قمّة التِبّوي، كان ألِكساندر كولْدْ يهبطُ في ممرٍّ ضيق نحو باطن الأرض، نحو عالم مغلق، حارّ، مظلم وخفّاق، مثل أسوا كوابيسه. لو كان معه مصباحٌ يدوي على الأقلّ... كان عليه أن يتقدّم متلمّساً، حابياً أحياناً وزاحفاً في أحيان أخرى في ظلمة مطبقة. لم تعتد عيناه على العتمة الكاملة. يمدّ يداً يتحسّس بها الصخرة كي يُقدِّر الاتجاه وعرضَ النفق، ثمّ يُحرِّك جسده، متلوّياً نحو الداخل، سنتيمتراً بسنتيمتر. وكلّما تقدّم أكثر بدا النفق أضيقَ وفكّر أنّه لن يستطيع الدوران إلى الخلف ليخرج. فالهواء القليل الموجود خانق ونتن؛ كما لو أنّه مقبور في قبر. لم تكن مناقب الجغوار الأسود هناك ذات فائدة. كان بحاجة إلى طوطم آخر، إلى شيءٍ مثل الخلد، الجرذ أو الدودة.

توقّف مرّات كثيرة بقصدِ أن يتراجع قبل أن يصبح الوقت متأخراً أكثر من اللازم، لكنّه كان يواصل التقدم تدفعه في كلّ مرّةٍ ذكرى أمّه. ومع كلّ دقيقة تمرّ يزداد الضغط في صدره والرعب يُصبِحُ أبعدَ وأعمق غوراً. عاد ليسمع قرع القلب الأخرس، الذي سمعه في المتاهة مع واليماي. كان عقله المخبول، يُقدِّر الأخطار التي لا تُعدّ وترصّده. والأسوأ من كلّ شيء هو أن يبقى مقبوراً حيّاً في أحشاء الجبل. كم هو طول ذلك الممرّ؟ تُراه سيصل إلى نهايته، أم

انّه سيسقط مهزوماً في الطريق؟ هل سيكفيه الأوكسجين أم انّه سيموتُ اختناقاً.

في لحظة ما سقط ألِكساندر ممدّداً على وجهه، منهكاً وهو يئنُّ. كانت عضلاته مشدودة، والدم متزاحم في صدغيه، كلّ عصب في جسده موجوع؛ ولا يستطيع أن يُفكِّر، ويشعر بأن رأسه سينفجر من نقص الهواء. لم يمر قط بمثل ذلك الخوف، ولا حتى في ليلة ابتدائه بين الهنود. حاول أن يتذكّر الانفعالات التي هزّته حين بقي معلّقاً من حبل إلى صخرة الكابيتان، لكن المقارنة لم تكن ممكنة. يومها كان على قمّةِ جبل، والآن هو في داخله. هناك كان مع والده، وهو هنا وحيد تماماً. استسلم لليأس، مرتعداً، منهكاً. وتوغّلت الظلمات لوقت سرمديّ في عقله وأضاع اتجاهه، منادياً الموت دون صوت، مهزوماً. عندئذٍ وحين كانت روحه تتوغّل في الظلمات شقَّ صوتُ أبيه طريقَهُ في وشواش دماغِهِ وأدركه، في البداية كهمسٍ يكادُ لا يُحَسُّ، ثم بوضوح أكثر. ماذا قال له أبوه في كثير من المرّات حين كان يُعلّمه تسلّق الصخور؟ «اهدأ، يا ألِكساندر، ابحث عن المركز في ذاتك، حيث قوّتك. تَنَفَّس. وحين تستنشق ستمتلئ طاقةً، وحين تزفر ستُفرِّغُ تَوَتُّرَك، استمع لغريزتك»، وهو الشيء ذاته الذي نصح به ناديا حين صعدا إلى «عين العالم». كيف نسي ذلك؟

ركّز على الشهيق: يستنشق الطاقة دون أن يُفكِّر بنقص الأوكسجين، يزفِرُ الرعبَ، يسترخي، ويستبعِد الأفكار السلبية التي كانت تشلّه. يستطيع ذلك، يستطيع ذلك... كرّر. وشيئاً فشيئاً عاد إلى جسده. تصوَّرَ أصابعَ قدميه وراح يرخيها واحدة فواحدة، ثم ساقيه فركبتيه، فوركيه، فظهره، فيديه حتى رؤوس أصابعهما، فرقبته، فحنكيه، فأجفانه. صار يستطيع التنفس بشكل أفضل، ما عاد يُجهِشُ. حدَّدَ مركزَ ذاته، مكان أحمر يهتزّ على مستوى الصرّة. سمع خفق قلبه. شعر بدغدغةٍ في جلده، ثمّ بحرارةٍ في عروقه، أخيراً عادت القوّةُ إلى جسده وحواسّه وعقله.

أطلق ألكساندر كولْدْ صيحة ارتياح. فتأخر الصوت لحظات حتى اصطدم بشيءٍ وعاد إلى مسمعه. انتبه إلى أنّ جهاز

الاستكشاف بالموجات الصوتية عند الخفافيش يعمل بهذه الطريقة ويسمح لها بالانتقال في الظلمة. كرّر الصيحةَ، انتظر أن تعود فتتوضح له المسافةَ والاتجاه، وهكذا استطاع «السماع بالقلب»، كما قالت له ناديا مرّات كثيرة. لقد اكتشف طريقة التقدّم في الظلمات.

انقضت بقية الرحلة عبر النفق في ما يشبه اللاوعي، كان جسده يتحرّك تلقائياً، كما لو أنّه يعرف الطريق. بين فينة وأخرى يتواصل ألِكس قليلاً مع تفكيره المنطقيّ فيستنتج بلمح البصر أنَّ ذلك الهواءَ المشبعَ بالغازات المجهولة لا بدَّ أنّه يؤثّر على العقل. وفيما بعد سيظن أنّه عاش حلماً.

حين بدا له أنّ الممرّ الضيّق لن ينتهي أبداً، سمع الفتى خريرَ ماء، كأنه نهر ووصلت دفقةُ هواء حار إلى رئتيه المنهكتين. جدّدت هذه قواه. اندفع نحو الأمام وأحسّ عند منعطف في الممر الباطني أنّ عينيه تميزان شيئاً في السواد، نوراً كان خفيفاً في البداية، ثم راح ينبثق قليلاً فقليلاً. تابع جرجرته، يحدوه الأمل ورأى أنَّ النورَ والهواءَ يزدادان. فجأةً وجدَ نفسَهُ في كهف، لا بدّ أنّه متصل بطريقة من الطرق مع الخارج، لأنّه بدا مُناراً. رائحة غريبة صدمته في أنفه، كانت نافذة، باعثة قليلاً على الغثيان، كما لو أنّها رائحة خلّ وأزهارٍ متعفّنة. كان للكهف التشكيلات المعدنية المتلألئة ذاتها التي رآها في المتاهة، والسطوح المشغولة للهياكِل تلعب دور المرايا فتعكس وتضاعف النورَ القليل الذي ينفذ إلى هناك. وجد نفسه على ضفّة بحيرة صغيرة يُغذّيها نهرٌ صغير، مثل حليب خفيف، هو القادم من القبر الذي كان فيه، بدت له تلك البحيرة وذلك النهر الأبيضُ من أجمل ما رآه في حياته. تراه هذا هو نبع الشباب الخالد؟ كانت الرائحة تدوّخه، فكّر أنّه يجب أن يكون غازاً ينبعث من الأعماق، ربّما كان غازاً سامّاً يخدر دماغه.

صوت هامس ومغناج لفت انتباهه. أحسّ مندهشاً بشيء على الضفّة الأخرى من البحيرة الصغيرة، على بعد أمتار قليلة. وحين

استطاع أن يكيّف حدقتيه مع النور القليل في الكهف، ميّز صورة إنسانية. لم يكن باستطاعته أن يراها جيّداً. لكنّ الهيئة والصوت كانا لفتاة. مستحيل، قال لنفسه، الحوريات غير موجودات، إنّني أُجَنّ، إنّه الغاز، الرائحة، لكنّ الفتاة تبدو حقيقيةً، شعرها الطويل يتحرّك، وبشرتها تُشع نوراً، حركاتها إنسانية وصوتها ساحر. أراد أن يرمي بنفسه إلى البحيرة البيضاء ليشرب حتى يرتوي وليغسل التراب الذي يعلوه ودم كدمات مرفقيه وركبتيه. كان إغواء الاقتراب من المخلوقة الجميلة التي تُناديه والاستسلام للمتعة لا يُقاوم. وكاد يفعل حين لاحظ أنّ الظهورَ كان يشبه سيسيليا بورنز: شعرها الكستنائي، عيناها الزرقاوان، حركاتها الفاترة ذاتها. فحذّره جزء من دماغه ما يزال واعياً من أنّ الحورية، كرئات البحر الهلامية والشفافة التي تسبح في هواء الكهف الشاحب، من بنات أفكاره. تذكّر ما سمعه عن أساطير الهنود الحمر، والحكايات التي سمعها من والِيماي حول أصول الكون، حيث «نهر الحليب» الذي يحتوي على جميع بذور الحياة، كما يحتوي أيضاً عفونة الموت. لا، قرّرَ، هذا ليس الماء العجيب الذي يعيد الصحّة إلى أمّه، بل مكيدة من عقله كي تلهيه عن مهمّته. لا وقت عنده كي يُضيعه، فكلّ دقيقة ثمينة. أغلق أنفه بقميصه الصغير، مصارعاً الرائحة النفاذة التي كانت تُدوّخه. رأى درباً يمتدّ على طول الضفة التي هو عليها، ويضيع بمحاذاة مجرى النهر الصغير، فهرب من هناك.

تبع ألكساندر كولْدْ الدرب، تاركاً خلفه البحيرة والظهور المدهش للفتاة. فاجأه أنّ النورَ الواهن باقٍ، على الأقل لم يعد عليه أن يجرجر نفسَه في الظلمة على غير هدى. وبدأت الرائحة تخفّ حتى تلاشت تماماً. تقدّم بأسرع ما استطاع، منحنياً، محاولاً ألاّ يصدم رأسه بالسقف ومحافظاً على توازنه في الممر الضيّق، مفكّراً أنّه إذا ما سقط إلى الأسفل ربّما جرفه النهر. أسِفَ لأنّه لا يملك الوقت كي يتحقّق من ماهية ذلك السائل الأبيض الذي يُشبه الحليب والذي له رائحة توابل السلطة. كان الدرب الطويل مغطّى بعفنٍ زلقٍ

تمورُ فيه آلاف المخلوقات الدقيقة، واليرقات، والحشرات والديدان والضفادع الكبيرة الضاربة للزرقة، بجلدها الشفاف إلى حدّ أنّه كان من الممكن أن يُشاهد أجهزتها الداخلية تنبضُ. كانت ألسنتها الطويلة كالسنة الأفاعي تُحاولُ أن تصل إلى ساقيه. افتقدَ ألِكس جزمتَهُ، لأنّه كان عليه أن يرفسها بقدمين حافيين، وجسدها الطريّ والبارد كالهلام يسبّب له اشمئزازاً لا حدود له. على بعد مئتي متر اختفت الأشنياتُ والضفادعُ وصار الدرب أعرض. استطاع، وقد شعر بالراحة، أن يُلقي نظرةً حوله وعندئذٍ انتبه إلى أنّ الجدران مُبَقّعة بألوان جميلة، فحصها عن قربٍ فتبينّ له أنّها أحجارٌ كريمة وعروقُ معادنَ ثمينة. فتح سكّينَه، سكّينَ الجيشِ السويسري، وحفر في الصخرة، متحقّقاً من أنّها تخرج ببعض السهولة. ماذا كانت؟ عرف بعضَ الألوان، مثل أخضر الزمرّدِ الغامق وأحمر الياقوت الخالص. كان محاطاً بكنز هائل: هذه هي إلْدورادو الحقيقيّة، التي طمع بها المغامرون على امتداد قرون.

كان يكفي أن يخدش الجدار بسكينه كي يجمع ثروة. إذا ملأ القرعة التي أعطاها له واليماي بتلك الأحجار الكريمة سيعود إلى كاليفورنيا وقد صار مليونيراً، وسيتمكن من تسديد ثمنَ أفضل الأدوية لمرض أمّه، ويشتري بيتاً جديداً لوالديه ويعلّم أختيه. وماذا عنه هو؟ سيشتري سيّارة سباق كي يميت أصدقاءه حسداً ويترك سيسيليا بورنز فاغرة الفم من الدهشة. كانت تلك الأحجار الكريمة هي الحلّ لحياته: يستطيع أن يتفرّغ للموسيقى وتسلّق الجبال، أو لِما يشاء دون أن يهتمّ بكسب مرتّب... لا! ماذا كان يُفكّر؟ تلك الأحجار الكريمة لم تكن له وحده. يجب أن تفيد في مساعدة الهنود. بهذه الثروة اللامعقولة يستطيع أن يقوم بالمهمة التي كلّفته بها إيومي: التفاوض مع الناهاب. سوف يُصبحُ حامي القبيلة وغاباتها وشلالاتها وبريشة جدّته وأمواله سيحولُ «عينَ العالم» إلى المحمية الطبيعية الأكبر مساحة في العالم. يستطيعُ خلال ساعات قليلة أن يملأ القرعةَ ويغير مصيرَ أهل الضباب وأسرته ذاتها.

بدأ الفتى يحفر برأس سكينه حول حجر أخضر مُفتّتاً قطعاً

صغيرة من الصخرة، وتمكّن بعد دقائق من إخراجه، وحين صار بين أصابعه استطاع أن يراه جيّداً. لم يكن له بريق الزمرد المصقول، كالذي في الخواتم، لكن لا شكّ أنّ له اللون ذاته. كان على وشك أن يضعه في القرعة، حين تذكّر الهدف من مهمّته في أعماق الأرض. لا، لن تكون الجواهر هي التي ستشتري صحّةَ أمّه؛ فهي بحاجة إلى شيء له طابع المعجزة. خبّأ الحجر الأخضر في جيب البنطلون متنهّداً وتابع طريقه قلقاً، لأنّه أضاع دقائقَ ثمينة ولم يكن يدري كم عليه أن يقطع بعدُ كي يصل إلى النبع العجيب.

فجأة انتهى الدرب أمام كومة من الحجارة. تلمّس ألِكس واثقاً أنّه يجب أن توجَد طريقة كي يتابع طريقه، لا يمكن أن تنتهي رحلته بهذه الطريقة الفجّة. إذا كان والِيماي قد أرسله في هذه الرحلة الجهنمّية إلى أعماق الجبل فذلك لأنّ النبع موجود، كلّ المسألة تتوقّف على العثور عليه، لكنّه قد يكون سلكَ الطريقَ الخاطئ، أو انحرفَ في أحد تفرّعات النفق. ربّما كان عليه أن يجتاز بحيرة الحليب لأنّ الفتاة لم تكن وسيلة إغواء لإلهائه، بل دليله للعثور على ماء الصحة... بدأت الشكوك تدوّي مثل صراخ هائل في دماغه. رفع يديه إلى صدغيه، محاولاً أن يُهدّئ نفسه، كرّر التنفّس العميق الذي مارسه في النفق، وأعارَ انتباهه لصوت أبيه البعيد، الذي كان يهديه. وهمس: عليّ أن أستقرّ في مركز ذاتي، حيث السكينة والقوّة. قرّر ألا يُبدّد طاقةً بالتفكير بالأخطاء التي من المحتمل أنّه ارتكبها، بل بالعائق الماثل أمامه. في شتاء العام الفائت طلبت منه أمُّهُ أن ينقل كومةً من الحطب من الفناء إلى عمق المرآب. وحين تأكّد أنّ هِرقل نفسه لا يمكنه فعل ذلك، دلّته أمّه على الطريقة: قطعة واحدة في كلّ مرّة.

راح الفتى يزيل الحجارة، الحصى أوّلاً، ثم الصخور المتوسّطة الحجم، التي كان يزيحها بسهولة، وأخيراً الصخور الكبيرة. كان عملاً بطيئاً وثقيلاً، لكنّه شقّ في النهاية فتحة. دفقة من البخار الحار لفحته في وجهه، كما لو أنّه فتح بابَ فرن، فاضطرّ إلى التراجع.

انتظر، بينما دفقة الهواء تخرج، دون أن يدري ما هي الخطوة التالية. لم يكن يعرف شيئاً عن التعدين، لكنّه كان قد قرأ أنّه توجد عادة في داخل المناجم تسرّباتٌ غازية فافترض أنّ دفقها سوف يخفّ بعد دقائق قليلة، كأنّها مضغوطة وستختفي في النهاية. انتظر برهة، ثمّ أطلّ برأسه على الفجوة.

على الجانب الآخر كهفٌ في وسطه بئر عميقة، يخرج منها دخان ونور ضارب للحمرة. كانت تُسمع أصوات انفجارات صغيرة، كأنّه شيء يغلي في الأسفل وينفجر على شكلِ فقاعاتٍ. لم يُضطرّ لأن يقترب ليتأكّد من أنّها حممٌ ملتهبة، ربّما كانت آخر نشاطات بركانٍ قديم جدّاً. إنّه في قلب فوّهته. فكّر باحتمال أن تكون الغازاتُ سامّةً، لكن وبما أنّ رائحتها لم تكن سيئّة، فقد أزمع على أن باستطاعته التوغّل في الكهف. مرّر بقية جسده من الفتحة فوجد نفسه على أرضٍ ساخنةِ الحجارة. غامر بخطوة ثمّ بأخرى، عازماً على سبر المكان. كان الحرّ أسوأ من حرّ الساونا، وعلى الفور تبلّل بالعرق، لكنّ هناك من الهواء ما يكفي للتنفّس. خلع قميصه، ربطه حول فمه وأنفه. دمعت عيناه. فأدرك أنّ عليه أن يتقدّم بأقصى حدود الحكمة كيلا ينزلق في البئر.

كان الكهف واسعاً وغير منتظم، يضيئه النور الضارب للحمرة المرتعشة للنار التي تُطقطق في الأسفل. إلى يمينه كانت تنفتح قاعة أخرى، سبرها متفحّصاً، فوجد أنّها أكثر ظلمة، إذ لا يكاد يصلها النورُ الذي يضيء الأولى. الحرارة فيها محتملة أكثر، وربّما يتسرَّب إليها هواء طلق من أحد الشقوق. كان الفتى قتد بلغ أقصى حدود مقاومته، ظامئاً، غارقاً في عرقه، واثقاً من أنّ قواه لا تكفيه للعودة عبر الطريق الطويل الذي قطعه. أين النبع الذي كان يبحث عنه؟

في تلك اللحظة شعر بنسمة قويّة ثمّ وعلى الفور باهتزازٍ مرعبٍ دوّى في أعصابه، كما لو أنّه داخل طبل. غطى أذنيه بطريقة غريزيةً، لكنّه لم يكن دويّاً، بل طاقة لا تحتمل وما من طريقة يقي بها نفسه منها. استدار يبحث عن السبب. وعندئذ رآه. كان خفّاشاً عملاقاً، جناحاه المنتشران يبلغان منتشرين خمسة أمتار تقريباً. وجسمه،

جسمُ جرذ أكبر من كلبه بّونتشو بمرّتين، وفي رأسه ينفتح خَطْمٌ بأنيابِ وحش ضار. لم يكن أسودَ، بل أبيض تماماً، خفّاشاً أمهق.

أدرك ألِكس المذعور أنَّ ذلك الحيوان، مثله مثل البهائم، آخرُ ما تبقى من أحياء عصر مغرق في القدم، حين كانت الكائنات البشرية الأولى، قبل آلاف وآلاف السنين، ترفعُ جبينها عن الأرض لتنظر مندهشة إلى النجوم. لم يكن عمى الحيوان ميّزة بالنسبة إليه هو، لأنّ هذا الاهتزاز نظام استكشاف بالموجات الصوتية: فمصّاصُ الدماء يعرف تماماً كيف هو الدخيل وأين موقعه. دوّامة الهواء تكرّرت. كانا جناحاه المتحرّكان، الجاهزان للانقضاض. تراه هو راهاكاناريوَا الهنود، الطائر المريعُ، مصاص الدماء؟

راح عقله يُحلّقُ. كان يعلم أنّ إمكانيات الهرب شبه معدومة، فهو لا يستطيع أن يتراجع إلى القاعة الأخرى ويشرعَ بالركض في تلك الأرض الغدّارة دون أن يخاطر بالسقوط في بئر الحِمم، وبحركة غريزيةٍ مدّ يدَهُ إلى سكين الجيش السويسري، الموجودة على خصره، رغم أنّه كان يعلم أنّه سلاح مُضحِك بالمقارنة بحجم عدوِّه. ارتطمت أصابعه بالناي المعلّق إلى خصره ففكّه دون أن يُفكِّر بالأمر مرّتين وحمله إلى شفتيه. تمكّن من أن يلفظ اسم جدِّه جوزيف كولْدْ، ويطلب مساعدته في تلك اللحظة من الخطر القاتل، ثمّ بدأ يعزف.

جاء وقع الأنغام الأولى صافياً، طرياً، خالصاً في تلك الفسحة المشؤومة، المصّاص الهائل، المرهف الحساسية أمام الأصوات، ضمَّ جناحيه فبدا أنّ حجمه يتقلّصُ. ربّما عاش عدّة قرون في عزلةِ وصمتِ هذا العالم الباطني، وكان لتلك الأصوات تأثير الانفجار في دماغه، وشعر بنفسه مُخْتَرَقاً بملايين السهام الواخزة. أطلق صرخة أخرى بموجة لا يُدركها السمع البشري، وإن كانت موجعة بشكل واضح، لكنّ الذبذبات اختلطت بالموسيقى ولم يستطع المصّاصُ المرتبكُ أن يُفسّرها بجهاز استكشافه الصوتي.

وبينما كان ألِكس يعزف على نايه، راح الخفاش الأبيض الكبير يتراجع، قليلاً قليلاً إلى الخلف، ومكث ساكناً في زاوية، مثل دبٍّ

أبيضَ مُجنَّح، ظاهر الأنياب والمخالب، لكنّه مشلول الحركة. ومن جديد ذُهِل الفتى من قوّة نايه، الذي رافقه في كلِّ اللحظات الخطيرة من مغامرته. وحين تحرّك الحيوان رأى خيطاً ناحلاً من ماء يتدفق على جدار الكهف، عندئذٍ عرف أنّه وصل إلى نهاية الطريق. كان وجهاً لوجه أمام نبع الشباب الخالد. لم يكن النبع وسط حديقة وصفتها الأسطورة. فهو لايكاد يتعدى قطرات متواضعة تنزلق على الصخرة الحيّة.

تقدّم ألِكساندر كولدْ بحذرٍ خطوةً دون أن يتوقّف عن العزف، مُقْترِباً من المصّاص الرهيب، محاولاً أن يُفكِّر بقلبه وليس برأسه. وكانت تلك التجربة من الروعة بحيث أنّه لم يكن باستطاعته أن يثق بالعقل أو المنطق فقط، فقد حانت لحظة استخدام الوسيلة ذاتها التي استخدمها في تسلّق الجبال وخلق الموسيقى: الحدس. حاول أن يتصوَّر كيف يُفكِّر الحيوان، وخلُصَ إلى أنه لا بدّ أن يكون مذعوراً مثله. فهو يجد نفسَهُ لأوّلِ مرّة أمام كائنٍ بشريّ، ولم يسمع قط أصواتاً كصوت الناي، ولا بدّ أنّ الضجّيجَ يصمّ جهاز استكشافه الصوتي، ولذلك كان ممغنطاً. تذكّر أنّ عليه أن يجمع الماءَ في قرعته ويعودَ قبل أن يحلَّ الليل. كان من المستحيل تقدير كم ساعة مكثَ في عالم باطن الأرض، لكنّ الشيءَ الوحيدَ الذي كان يرغبُ فيه هو الخروج من هناك بأسرع ما يُمكن.

وبينما كان يعزف نغمةً واحدة بنايه، مستخدماً يداً واحدة، مدَّ يدَهُ الأخرى نحو النبع، وهو يكاد يلامس المصّاص، لكن لم تكد تسقط القطرات الأولى داخل القرعة حتى انحسرَ الدفقُ متلاشياً تقريباً. جاءت خيبة أمل ألِكس هائلة فكاد ينهال على الصخرة ضرباً بقبضته. الشيء الوحيد الذي أوقفه هو الحيوان الرهيب الذي انتصب مثل حارس بجانبه.

وحين كاد يعود، تذكّر كلمات واليماي عن قانون الطبيعة الحتمي: أعطِ بقدر ما تأخذ. راجع ممتلكاته القليلة: البوصلة، سكين الجيش السويسري والناي. يستطيع أن يتخلّى عن الأولى والثانية،

فهي على كلّ حال غير ذات فائدة كبيرة، لكنّه لا يستطيع أن يتخلّى عن نايه السحريّ، إرث جدّه الشهير، أداة قوّته. فلولاه لهلك. وضع البوصلة والسكين على الأرض وانتظر. لا شيء، ما من قطرة واحدة سقطت من الصخرة.

عندئذٍ أدرك أنّ ماءَ الصحّة ذاك كان أغلى كنز في هذا العالم بالنسبة إليه، والوحيد الذي يستطيع أن يُشفي أمّهُ. وبالمقابل عليه أن يُسلّم أغلى ما يملك. وضع النايَ على الأرض بينما ما تزال آخر نغماتها تتردّد بين جدران الكهف. وعلى الفور عاد خيطُ الماء الضعيف إلى التدفق. انتظر لحظاتٍ سرمدية أن تمتلئ القرعةُ، دون أن يرفع بصره عن المصّاصِ المتربص بجانبه. وكان من القرب منه بحيث يستطيعُ أن يشمّ رائحة نتنه، نتنَ القبر، ويعدَّ أسنانه ويشعر بإشفاقٍ مطلقٍ تجاهه بسبب الوحشة الهائلة التي تلفّه، لكنّه لم يسمح لهذا أن يُلهيه عن مهمّته. وما إن طفحت القرعةُ حتى تراجع ببطء، كيلا يُثير الجبّار. خرج من الكهف، ودخل في الكهف الآخر الذي تُسمع فيه غرغرةَ الحمم الملتهبة في أحشاء الأرض. ثم انسلّ عبر الثغرة. فكّر أن يعيد الحجارة ويسدّها، لكن لا وقت لديه، وافترض أنّ المصّاص أضخمُ من أن يستطيع الخروج عبر تلك الفجوة، وأنّه لن يلحق به.

قطع طريق العودة بسرعة أكبر لأنّه صار يعرفه. لم يُغوِهِ جمعُ الأحجار الكريمة حين عبر ببحيرة الحليب، حيث كان ينتظره سرابُ سيسيليا بورنز، وسدّ أنفه كي يقي نفسه من الغاز الفوّاح الذي يُعكّر التفكير، ولم يتوقّف. أصعب ما في الأمر كان أن يعود ويدخل في النفق الضيّق الذي دخل منه ممسكاً بالقرعة عمودياً كي لا يفرغ ماؤها. كان لها سدادة من الجلد مربوطة بوتر، لكنّها ليست محكمة، وهو لا يرغب بأن يضيع قطرةً واحدة من سائل الصحّة العجيب.. لم يكن الممرّ مرعباً بالنسبة إليه هذه المرّة، مع أنّه ضاغط ومعتم، لأنّه كان يعرف أنّه سيدرك النورَ والهواء.

فرشة الغيوم في فتحة التِبّوي، التي كانت تتلقى آخر خيوط

الشمس، اكتست درجات من الحمرة بدءاً من لون الصدأ وحتى لون الذهب. كانت أقمار الضوء الستة قد بدأت تختفي في قبّة سماء التِبّوي الغربية، حين عادت ناديا سانتوس وألِكساندر كولْدْ. كان واليماي ينتظرهما في مسرح مدينة الذهب، أمام مجلس البهائم يُرافقه بوروبا. وما كاد القردُ يرى صاحبته حتى جرى، ليتعلّق مطمئنّاً إلى عنقها. كان الفتيان منهكين، وجسداهما مغطيين بالخدوش والكدمات، لكنّ كلّ منهما يحمل معه الكنز الذي ذهب في طلبه. لم يُبدِ الساحرُ العجوزُ أيّة علامة اندهاش، فقد استقبلهما بالوقار ذاته الذي يقوم به أمام كلّ عمل في حياته، وأشار إليهما أنّ لحظة الانطلاق قد حانت. لا وقت للراحة، إذ عليهم أن يجتازوا باطِن الجبل خلال الليل ويخرجوا إلى «عين العالم».

ـ اضطُررت لأن أترك طلسمي ـ حكت ناديا لصديقها، منقطعة النفس.

ـ وأنا تخليت عن نايي ـ ردّ عليها.

ـ تستطيع أن تحصلَ على آخر. فالموسيقى أنت تصنعها، وليس الناي ـ قالت ناديا.

ـ وأنت أيضاً تملكين قوى الطلسم في داخلك ـ واساها.

تفحص واليماي البيوض الثلاثة بحذرٍ، وشمّ ماء القرعة. وافق بوقار كبير. ثمّ حلّ واحداً من أكياس الجلد الصغيرة التي كانت تتدلّى من عكازه، عكاز الطبيب الشعبي، وسلّمه إلى ألِكس مع تعليمات بطحن الأوراق وخلطها بالماء كي يشفي أمّه. علّق الفتى الكيس الصغير إلى عنقه والدموع تطفر من عينيه. هزّ واليماي أسطوانةَ الكوارتز فوق رأس ألِكس برهةً طويلة ونفخها على صدره وصدغيه وظهره، ولمسه بالعكاز على ذراعيه وساقيه.

ـ لو لم تكن ناهاب، لأصبحت خليفتي، فقد وُلِدتَ بروح تشامان. إنّك تملك قوّةَ الشفاء، أحسِنْ استخدامَها ـ قال له.

ـ هل يعني هذا أنّ باستطاعتي شفاء أُميّ بهذا الماء وهذه الأعشاب؟

ـ يمكن ولا يمكن...

انتبه ألِكس إلى أنّ أوهامَه ليس لها أساس منطقي، وعليه أن يثق بالعلاجات الحديثة في مشفى تكساس وليس بقرعة من ماء وأوراق جافّةٍ حصل عليها من عجوزٍ عارٍ وسط الأمازون، ولكنّه تعلّم في تلك الرحلة أن يفتح عقله على الألغاز. هناك قوى خارقة للطبيعة وأبعاد أخرى للواقع، كهذا التِبّوي المسكون بمخلوقاتٍ عصورٍ ما قبل التاريخ. صحيح أنّ كلّ شيءٍ يمكن أن يُفسَّر عقلانياً تقريباً، بما في ذلك البهائم، لكنَّ ألِكسْ فضلّ ألاّ يفعل واستسلم ببساطة إلى الأمل بمعجزة.

كان مجلس الآلهة قد قَبِل تحذيرات الفتيين الغريبين والِيماي الحكيم. لن تخرج لقتل الناهاب، فهو عمل غير مُجدٍ، إذ أنّهم كثيرون كالنمل ودائماً يأتي آخرون. ستبقى البهائم في الجبل المُقدّس حيث هي في أمانٍ على الأقل آنيّاً.

ودّعت ناديا وألِكس المتراخيات الكبيرة بحزن. في أفضل الحالات، وإذا ما سار كلّ شيء كما ينبغي، فإنّ مدخل متاهة التِبّوي لن يُكتَشَف، ولن تنزل الحوّامات من الجوّ. وإذا ما حالفهما الحظ سيمرّ قرن آخر قبل أن يُدرك الفضولُ البشريُّ آخرَ معقل للأزمنة ما قبل التاريخية. وإلاّ فإنّهما يأملان، على الأقل، أن تُدافع المجموعةُ العلمية عن هذه المخلوقات الرائعة كي لا يقضي عليها المغامرون. في جميع الأحوال لن يعودا لرؤية البهائم.

صعدا الدرجات التي تقود إلى المتاهة عند هبوط الليل، يُضيء لهما مشعل راتنج والِيماي. عبرا دون تردّد نظام الأنفاق، الذي كان يعرفه التشامان تماماً. ولم يواجهوا في لحظة من اللحظات ممرّاً دون مخرج، ولم يضطروا لأنّ يتراجعوا أو يسلكوا طريقاً قطعوه، لأنّ العجوز كان يحمل الخريطة منقوشة في عقله. رفض ألِكسْ فكرة أن يحفظ المنعطفات عن ظهر قلب لأنّه حتى ولو استطاع أن يتذكّرها

أو يرسمها على الورق، فهو في جميع الأحوال لا يملك نقاط علاّم وسيكون من المستحيل عليه أن يحدِّد موقعها.

وصلوا إلى الكهف الأوّل الذي رأوا فيه التنين الأوّل، وذهلوا من جديد أمام ألوان الأحجار الكريمة، البلور والمعادن التي كانت تتلألأ في داخله. كان كهفاً حقيقياً من كهوف علي بابا، مع كلّ الكنوز الخرافية التي يمكن لأكثرِ العقول طمعاً أن يتصوّرها. تذكَّر ألِكس الحجرَ الأخضر الذي وضعه في جيبه، فأخرجه كي يُقارنه بتلك الأحجار. في بهاء القاعة الشاحب لم يعد الحجر أخضر، بل صار ضارباً للصفرة، عندئذٍ أدرك أنّ ألوان هذه الجواهر هي نتاج الضوء ومن المحتمل أن لا يزيد ثمنها عن ثمن ميكا إلْدورادو. لقد فعل خيراً حين رفض إغواء أن يملأ القرعة بها بدلاً من ماء الصحّة. خبّأ الزمردة الزائفة كذكرى: سيحملها هديّةً إلى أمّه.

كان التنين المُجنّح في زاويته، تماماً كما رأوه أوّل مرّة، لكنّه كان مع آخر أصغر منه، ألوانه ضاربة للحمرة، ربّما كان رفيقته. لم يتحرّكا أمام ظهور الكائنات البشرية الثلاثة ولا حين حلّقت زوجة واليماي الروحُ لتحييهما، وهي تحوم حولهما مثل جنّية دون أجنحة.

في هذه المناسبة، وكما حدث له في زيارته لأعماق الأرض، بدت العودةَ لألِكس أقصر وأسهل، لأنّه كان يعرف الطريق ولا ينتظر مفاجآتٍ. وهي لم تقع. ثمّ وبعد أن عبروا آخر ممرّ وجدوا أنّهم في الكهف على بعد أمتار من المخرج. هناك أشار إليهما واليماي بالجلوس وفتح أكياسه الصغيرة وأخرج أوراقاً تشبه تبغاً. وضّح لهما باختصار أنّ عليهما أن يغتسلا ولمحو ذكرى ما رأيا. لم يكن ألِكس يبغي أن ينسى البهائم ولا رحلته إلى أعماق الأرض، كذلك ناديا لم تبغِ أن تتنازل عمّا تعلّمته، لكنّ واليماي أكّد لهما أنّهما سيتذكران كلّ ذلك، وأنَّ ما سيُمحى من عقليهما هو فقط الطريق كيلا يستطيعا العودة إلى الجبل المقدَّس.

لفّ الساحر الأوراقَ لاصقاً إيّاها بلعابه مثل لفافة تبغٍ وشرع

يُدخِّنُ. كان يستنشق الدخان ثمّ ينفخه بقوة في فم الفتيين، في فم ألِكس ثم فم ناديا. لم تكن معالجة لطيفة، فالدخان الكريه والحار والحارق كان يمضي مباشرة إلى الجبين وتأثيره كان كمن يتنفّس فلفلاً حارّاً. شعرا بوخز حادّ في رأسيهما، وبرغبة جامحة بالعطس، ثمّ وعلى الفور داخا. عادت إلى عقل ألِكس تجربته الأولى مع الدخان، حين أغلقت جدّته كات على نفسها معه السيارة حتى تركته مريضاً. وقد كانت الأعراض هذه المرّة مشابهة، وراح كلّ شيء يدور حوله.

عندئذٍ أطفأ واليماي المشعل، ولم تتلقّ القاعة شعاع النور الواهن الذي كان يُضيئها حين دخلوها قبل أيّام، وكانت الظلمة مطبقة. أخذ الشابان بيدي بعضهما، بينما بوروبا يئنّ خائفاً دون أن يفلت خصر صاحبته. رأى الشابان الغارقان في الظلمات مسوخاً تترصّد وسمعا صرخات يقشعر لها البدن، لكنّهما لم يخافا. استنتجا، بالقليل من البصيرة المتبقي عندهما، أن تلك الرؤى المرعبة جاءت بتأثير من الدخان المستنشَق وأنّهما في جميع الأحوال بأمانٍ مادام الساحر الصديق معهما. استلقيا على الأرض متعانقين وما هي إلاّ دقائق قليلة حتى فقدا الوعي.

لم يستطيعا أن يُقدّرا الزمن الذي استغرقاه في النوم. استيقظا شيئاً نشيئاً وشعرا على الفور بصوت واليماي يسميهما وبيديه تتلمسان للعثور عليهما. لم يكن الكهف في ظلمة مطبقة، بل في شبه ظلمة ناعمة تسمح بلمح الحواف. أشار التشامان إلى الممر الضيق الذي عليهما أن يعبراه إلى الخارج، وهما اللذان ما يزالان دائخين قليلاً، فتبعاه. خرجوا إلى غابة السراخس. وكان الصبح قد طلع على «عين العالم».

17

الطائر آكل اللحوم البشرية

شرع الرحالة في اليوم التالي في العودة إلى تابّيراوَا ـ تيري. وعندما اقتربوا رأوا بريق حوّامتين بين الأشجار، فعرفوا أن حضارة الناهاب قد وصلت أخيراً إلى القرية. قرّر واليماي البقاء في الغابة؛ فقد بقي خلال حياته كلّها بعيداً عن الغرباء، ولم تكن تلك لحظة مناسبة كي يبدّل عاداته. كان التشامان مثله مثل جميع أهل الضباب يملك نباهة الاختفاء، وقد حام سنوات كثيرة حول الناهاب، يقترب من مخيماتهم وقراهم كي يراقبهم، دون أن يُحسَّ أحد بوجوده. وحدهما ناديا سانتوس والأب بالدومِرو، صديقه منذ الأيّام التي عاشها الراهب مع الهنود، كانا يعرفانه. التقى الساحرُ بـ «الطفلة العسلية البشرة» في عددٍ من رؤاه، وكان واثقاً من أنّها رسول من رسل الأرواح. كان يعتبرها من أسرته، لذلك أذِنَ لها أن تُناديه باسمه حين يكونان وحيدين، حكى لها أساطير وخرافات الهنود، أهداها طلسمه، وقادها إلى مدينة الآلهة المقدّسة.

انتفض ألِكس سعيداً لرؤية الحوامتين من بعيد. لم يكن قد ضاع للأبد في كوكب البهائم، ويستطيع أن يعود الآن إلى العالم المعروف. افترض أنّ الحوّامتين جابتا «عين العالم» أيّاماً عدة بحثاً عنهما. ولا بدّ أنّ جدّته قد أثارت ضجّة هائلة حين اختفى، وأجبرت النقيب أريوستو على تمشيط المنطقة من الجوّ. ومن المحتمل أنّهم رأوا عمود دخان المحرقة الجنائزية لموكارتيا، فاكتشفوا الضيعة.

وضّح واليماي للفتيان أنّه سينتظر متخفياً بين الأشجار ليرى ما سيحدث في الضيعة. أراد ألِكس أن يُعطيه ذكرى، مقابل العلاج العجيب لإعادة الصحة إلى أمّه، فأهداه سكين الجيش السويسري. أخذ الهندي ذلك الغرض المعدني المطلي بالأحمر، تحسس وزنه وشكله الغريب دون أن يتصوّر فائدته. فتح ألِكس الشفرتين واحدة فواحدة، والكلاّبة والمقصّ ونازعة السدادات والمفكّ، حتى تحوّلت إلى قنفذ. وعلّم الشامان استخدامَ كلّ جزء منها، وكيف يفتحه ويُغلقه.

شكره واليماي على الهدية، لكنه عاش أكثر من قرن دون أن يعرف المعادن، وبصراحة يشعر بنفسه عجوزاً بعض الشيء، كي يتعلّم حيل الناهاب، لكنّه لم يبغِ أن يكون قليل لباقة فعلّق السكين السويسرية إلى عنقه إلى جانب أطواق الأسنان والتمائم الأخرى. ثم نكّر ناديا بعد ذلك بصيحة البوم، التي تفيد في أن ينادي أحدهما الآخر كي يبقيا على اتصال. سلّمته الفتاة السلّة مع البيوض البلورية الثلاث، فقد افترضت أنّها ستكون بين يدي العجوز أكثرَ أماناً. لم تبغِ أن تظهر بها أمام الغرباء، فهي تنتمي إلى أهل الضباب. ودَّعَ بعضُهُمُ بعضاً وفي أقل من ثانية تبخّر واليماي في الطبيعة مثل وهْمٍ.

اقتربت ناديا وألِكس بحذرٍ من المكان الذي حطّ فيه «طيرا الصخب والريح»، كما كان يُسمّيهما أهل الضباب. اختفيا بين الأشجار، حيث يستطيعان أن يراقبا دون أن يُرَيَا، وإن كانا بعيدين كثيراً كي يسمعا بوضوح. كان «طيرا الصخبِ والريح» وسط تابّيراوَا - تيري، وكان هناك أيضاً ثلاث خيم ومظلة كبيرة، بل وموقِد بترول. مدّوا أسلاكاً علّقوا عليها الهدايا كي يجذبوا الهنود: سكاكين، قدور، فؤوس وأدوات أخرى من الفولاذ والألمنيوم تلمع تحت الشمس. رأيا عدداً من الجنود المسلحين في حالة ترقّب، لكن دون أيّ أثر للهنود. اختفى أهل الضباب، كما كانوا يفعلون دائماً أمام الخطر. لقد أفادت هذه الاستراتيجية القبيلة كثيراً، بينما واجه هنود آخرون الناهاب فأُبيْدوا أو أُدْمِجوا. والذين أدمجوا في الحضارة تحوّلوا

إلى متسوّلين، أضاعوا كرامتهم، وعزّةَ المحاربين، وأضاعوا أراضيهم، وصاروا يعيشون كالفئران. لذلك لم يسمح الزعيم موكاريتا قط باقتراب شعبه من الناهاب أو أخذ هداياهم. كان يقول بأن مقابل الحربة أو القبعة ستنسى القبيلة أصولها ولغتها وآلهتها للأبد.

تساءل الفَتيان ماذا يريد هؤلاء الجنود. إذا كانوا جزءاً من خطّةٍ للقضاء على هنود «عين العالم»، فمن الأفضل لهما ألاّ يقتربا. تنكّرا كلّ كلمة من الحوار الذي سمعاه يدورُ في سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا بين النقيب أريوستو وماؤرو كاريّاس، وأدركا أنَّ حياتهما في خطر إن هما تجرّأا على التدخل.

بدأت تُمطر، مثلما يحدث مرّتين أو ثلاث مرّات في اليوم، في زخّات غير متوقعة، قصيرة وعنيفة، كانت تُبلّلُ لبرهةٍ كلَّ شيءٍ ثمّ تتوقّف فجأة، تاركةً العالمَ منعشاً ونظيفاً. كان قد مضى على الصديقين ساعة تقريباً وهما يراقبان المعسكر من مخبئهما بين الأشجار، حين رأيا مجموعة من ثلاثة أشخاص تصل إلى الضيعة، لاشكّ أنهم خرجوا ليسبروا المحيطَ وعادوا الآن مبلّلين حتى العظم. وعلى الرغم من المسافة فقد عرفاهم: إنَّهم كات كولْدْ وسيزَرْ سانتوس والمصوِّر تيموثي بروس. لم تستطع ناديا وألِكس أن يُخفيا صيحة الارتياح: هذا يعني أنّ الأستاذ لبلانك والدكتورة أمَيْرة تورّس كانا قريبين أيضاً. وبوجود هؤلاء في الضيعة لن يستطيع النقيب أريوستو وماؤور كاريّاس أن يلجأا إلى استخدام الرصاص كي يتخلّصا من الهنود ـ أو منهما.

غادر الشابانِ مخبأهما واقتربا بحذرٍ من تابَيراوَا ـ تيري، لكن ما إن سارا قليلاً حتى رآهما الحراس وحاصروهما. ولم يكن يوازي صيحة الفرح التي أطلقتها كات كولْدْ حين رأت حفيدها غير الصيحة التي أطلقها سيزَرْ سانتوس حين رأى ابنته. كلاهما جرى للقاء الفتيين، اللذين جاءا، وسخين، ممزّقي الثياب ومنهكين،

تغطّيهما الخدوش والكدمات. ثمّ أنّ ألِكس بدا مختلفاً بقصّةِ شعرهِ الهندية التي تركت قمة رأسه مكشوفة، فيها جرح طويل تُغطيه قشرة جافّة. رفع سانتوس ناديا بين ذراعيه المفتولين وضمّها إليهِ بكلّ قوّة حتى كاد أن يهشّم أضلاع بوروبا، الذي وقع أيضاً في العناق. بالمقابل تمكّنت كات كولْدْ من التحكّم بموجة عواطفها والراحة التي شعرت بها، فما كاد يصبح حفيدُها في متناول يدها حتى ناولته صفعة على وجهه.

ـ هذه مقابل الرعب الذي جعلتنا نمرّ به يا ألِكساندر. سأقتلك في المرة القادمة التي تختفي فيها عن ناظري. ـ قالت الجدّة فعانقها ألِكس بجواب حاسم.

وعلى الفور وصل البقيّة: ماوْرو كاريّاس، والنقيب أريوستو، والدكتورة أُمَيْرَة تورِّسْ والأستاذ فائق الوصف لبلانك، الذي كان قد لسعه النحلُ في كلّ مكان. الهندي كاراكاوِ، الفظ كما هو دائماً، لم يُبْدِ دهشةً حين رأى الفَتَيَيْنْ.

ـ كيف وصلتما إلى هنا؟ فالوصول من دون حوّامة مُحال ـ سأل النقيب أريوستو.

حكى ألِكس مغامرته مع أهل الضباب باختصار، دون أن يُعطي تفاصيل أو توضيحاتٍ عن المكان الذي صعدا منه. كما لم يذكر رحلتَهُ مع ناديا إلى التِبّوي المقدَّس. افترض أنّه لم يبح بسرٍّ إذ أنّ الناهاب كانوا يعرفون بوجود القبيلة، فقد كان هناك علامات تدل على أنّ الضيعة قد أخلاها الهنودُ، قبل ساعاتٍ قليلة: فالمنيهوت يقطر من السلال، وبقايا الجمر ما تزال دافئة في المواقد الصغيرة، ولحم الصيد الأخير يغص بالذباب في كوخ العازبين، وبعض الحيوانات الطوطمية المدجنة تدور في المكان. لقد قتل الجنود بحرابهم أفاعي البوا التي راحت أجسادها تتفسّخ تحت الشمس.

ـ أين الهنود ـ سأل ماوْرو كاريّاس.

ـ ذهبوا بعيداً ـ ردّت ناديا.

ـ لا أظنّهم ذهبوا بعيداً بنسائهم وأطفالهم وشيوخهم. لا يمكن أن يختفوا دون أن يُخلّفوا أثراً.

ـ إنّهم غير مرئيين.

ـ لنتكلّم بجديّة يا صغيرة ـ صاح.

ـ أنا دائماً أتكلّم بجدّية.

ـ وهل ستقولين لي إنّ هؤلاء الناس يطيرون أيضاً مثل الساحرات؟

ـ لا يطيرون، بل يجرون بسرعة ـ وضّحت.

ـ هل تستطيعين أن تتحدّثي بلغة هؤلاء الهنود يا حلوة؟

ـ اسمي ناديا سانتوس.

ـ حسناً يا ناديا سانتوس، هل تستطيعين التحدّث معهم أم لا؟ ـ ألحّ كاريّاس، بنفاد صبر.

ـ نعم.

تدخّلت الدكتورة أُمَيْرَة تُورِّس لتوضِّح الحاجة الملحة لتلقيح القبيلة. فالقرية قد اكتُشِفت وما لا مفرّ منه أن يحدث تواصل بينها وبين الغرباء.

ـ كما تعلمين يا ناديا، يمكن لنا أن نُصيبهم دون قصدٍ بعدوى أمراضٍ هي قاتلة بالنسبة إليهم. هناك قبائل بكاملها نفقت في غضون شهرين أو ثلاثة أشهرٍ نتيجة زكام. والأخطر هي الحصبة. اللقاح معي وأستطيع أن أُحَصِّن هؤلاء الهنود المساكين. وهكذا سيكونون محميين. هل تستطيعين أن تُساعِديني؟ ـ توسّلت إليها المرأةُ الجميلةُ.

ـ سأُحاول ـ وعدت الفتاة.

ـ كيف تستطيعين أن تتواصلي مع القبيلة؟

ـ لا أدري بعد، عليّ أن أُفَكِّر بالأمر.

نقل ألِكساندر كولْدْ ماءَ الصحةِ إلى زجاجةٍ لها سدادة محكمة

ووضعها بانتباه في كيسه. رأته جدَّته وأرادت أن تعرف ماذا كان يفعل.

ـ هذا الماءُ لعلاج أُمّي ـ قال ـ لقد عثرتُ يا كات على نبع الشباب الخالد، الذي بحث عنه آخرون قروناً طويلة. أمّي ستتعافى.

كانت المرَّة الأولى، منذ أن أصبح بمقدوره أن يتذكّر، التي تُبادرُ فيها جدَّتُهُ لملاطفته. شعر بذراعيها الناحلين والعضليين تلفانه، وبرائحة تبغ غليونها، وبشعرها الغليظ المقصوص بالمقصّ، وبجلدها الجاف والخشن مثل جلد الحذاء؛ وسمع صوتها الأجشّ يُسمّيه نفكّر ربّما أنّ جدَّته، وبعد كلّ شيء، كانت تُحبّه قليلاً. وما كادتْ كات كولدْ تنتبه إلى ما تفعله حتى ابتعدت بخشونة، دافعةً به نحو الطاولة، حيث كانت ناديا تنتظره. هجم الصبيّان الجائعان والمنهكان على الفاصولياء والأرزّ وخبز المنيهوت وبعض السمك شبه المتفحّم بحسكه الشائك. التهم ألِكس الطعامَ بشهيّة ضارية أمام عيني كات كولدْ المندهشة، التي كانت تعرف كم كان حفيدها مُتْعِباً بالنسبة للطعام.

استحمّ الصديقان بعد الطعام طويلاً في النهر. كانا يعرفان بأنّهما مُحاطان بالهنود اللامرئيين، الذين يتابعون من بين الآجام كلَّ حركة من حركات الناهاب. كانا يشعران، بينما هما يبربطان في الماء، بعيونهم فوقهما كما لو أنّهم يلمسانهما بأيديهم. قدَّرا أنّهم لا يقتربون بسبب وجود المجهولين والحوَّامتين، اللتين لمحوهما في السماء، ولم يروهما قط عن قرب. حاولا أن يبتعدا قليلاً وهما يُفكِّران أنّ أهل الضباب قد يظهروا إذا كانا وحيدين، إلاّ أنّه كانت توجدُ حركة كبيرة في الضيعة ومن المحال عليهما أن ينسحبا إلى الغابة دون أن يلفتا الانتباه. من حسن الحظّ أن الجنود لم يكونوا يجرؤون على الابتعادِ خطوةً واحدة عن المعسكر، لأنّ القصص حول البهائم والطريقة التي انتزعت بها أحشاء أحد زملائهم أرعبتهم. وما من أحد منهم كان قد سبر «عين العالم» من قبل، وكانوا قد سمعوا عن الأرواح والشياطين التي تطوف في تلك المنطقة. كان

خوفهم من الهنود أقلّ، لأنّ لديهم أسلحة نارية كما أنّ في عروقهم ذاتها يجري دمُ السكان الأصليين.

وعند حلول الليل جلس الجميع، باستثناء الحرّاس، في مجموعات حول النيران يُدخّنون ويشربون. كان الجوّ كئيباً وطلب أحد ما بعض الموسيقى، لرفع المعنويات. فاضطر ألِكس أن يعترف بأنّه أضاع نايَ جوزيف كولْدْ الشهير، لكنّه لا يستطيع أن يقول أين دون أن يذكرَ مغامرتَهُ داخل التِبْوي. رمته جدَّته بنظرة قاتلة، لكنّها لم تَقُل شيئاً، متكهِّنة بأنّ حفيدها يُخفي عنها أشياءَ كثيرة. أخرج أحد الجنود هارمونيكا وعزف لحنين شعبيين، لكنّ نواياه الطيّبة سقطت في الفراغ. فالخوف قد تمكّن من الجميع.

أخذت كات كولْدْ الصبيَّين جانباً لتحكي لهما ما حدث في غيابهما، منذ أن أخذهما الهنود. فحين انتبهوا إلى أنّهما تبخّرا، شرعوا على الفور بالبحث عنهما مجهَّزين بمصابيح يدوية، وخرجوا إلى الغابة ينادونهما الليلَ بطوله تقريباً، وساهم لبلانك في الضيق العام بواحدة من تنبّؤاته السديدة: لقد اختطفهما الهنود، ولا شكّ أنهم يأكلونهما الآن مشويين بالعيدان. واستغلّ الأستاذ المناسبة كي يُبيِّن لهم الطريقةَ التي يُقَطِّع بها الهنودُ المتوحِّشون(*) أسراهم الأحياء، كي يلتهموهم. وأضاف: صحيح أنّهم ليسوا بين أيدي الهنود المتوحِّشين، الذين قُضيَ عليهم أو حُضِّروا منذ أكثر من مئة عام، لكن لا أحد يعرف أبداً إلى أين تمتدّ التأثيرات الثقافية. فأوشك سيزَرْ سانتوس أن ينهال على الأنثروبولوجي ضرباً بقبضته.

أخيراً ظهرت في مساء اليوم التالي مروحيّة لإنقاذهم. فقد كان الزورق الذي حمل جول غونثالِث قد وصل إلى سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا دون مستجدّات، حيث أخذت راهبات المستشفى على عاتقهنَّ أمرَ العناية به. حصل ماتوُ، الدليل الهنديّ، على مساعدة ورافق بنفسه الحوّامةَ، التي ذهب على متنها النقيب أريوستو. كان إحساسه

(*) caribe اسم يُطلق على سكان أمريكا الوسطى الأصليين ولغاتهم، وقد اخترنا معنى الإنسان المتوحِّش انطلاقاً من معرفتنا بطريقة تفكير الأستاذ لودفيك لبلانك.

بالجهات حاداً، حيث تَمَكَّنَ، دون أن يكون قد ركب طائرة من قبل، من أن يُحَدِّدَ الموقعَ في المدى اللامتناهي من خضرة الأدغال، ويُعيِّنَ بالضبط المكانَ الذي تنتظر فيه بعثةُ الإنترناشيونال جيوغرافيك. وما كادوا يهبطون حتى أجبرتهم كات كولْدْ على أن يطلبوا مزيداً من المساندة كي يُنظِّموا عملية بحث منظمة عن الصبيين المختفيين.

قاطع سيزَرْ سانتوس الكاتبةَ ليضيفَ أنّها كانت قد هدَّدت النقيب أريوستو بالصحافة، والسفارة الأمريكية، وحتى المخابرات المركزية إذا هو لم يتعاون؛ وهكذا حصلت على الحوّامة الثانية التي وصل على متنها مزيد من الجنود، إضافة إلى ماوْرو كاريّاس. كانت قد أكّدت أنّها لا تُفكِّرُ بالخروج من هناك دون حفيدها، حتى ولو اضطُرّت لأن تجوب الأمازون كلّه سيراً على قدميها.

ـ هل صحيح أنك قلتِ هذا يا كات؟ ـ سألَ أَلِكس لاهياً.

ـ ليس من أجلك يا أَلِكساندر. إنها مسألة مبدأ ـ زمجرت.

في تلك الليلة شغلت ناديا سانتوس وكات كولْدْ وأُمَيْرَة تورِّس خيمةً، ولودفيك لبلانك وتيموثي بروس أخرى، وماوُرو كاريّاس خيمته الخاصة، وتدبّر بقيةُ الرجال أمرَهم في أراجيح نوم بين الشجر. وضعوا حرّاساً في زوايا المعسكر الأربعة، وأبقوا على مصابيح النفط مشتعلة. وعلى الرغم من أنّ أحداً لم يذكر البهيمة، فقد اعتقدوا أنّهم بتلك الطريقة يبقونها بعيدة. كانت الأضواء تجعل منهم أهدافاً سهلة للهنود، لكنّ القبائل لم تُهاجم قط في الظلام، لأنّهم يخافون الشياطين الليلية التي تفلت من الكوابيس البشرية.

ناديا التي كان نومها خفيفاً نامت عدّة ساعات، واستيقظت بعد منتصف الليل على شخير كات كولْدْ. ثم وبعد أن تأكّدت من أنّ الدكتورة لا تتحرّك أيضاً أمرت بوروبا أن يمكث مكانه، وتسلّلت بصمت إلى خارج الخيمة. كانت قد راقبت بانتباه بالغ أهلَ الضباب، مصمِّمة على أن تقلّد قدرتهم على المرور دون لفت الأنظار، وهكذا

اكتشفت أنّ الأمر لا يتعلّق بتمويه الجسد فقط، بل وأيضاً بإرادة راسخة على التحوّل إلى شيء غير مادّي والاختفاء. كان هذا يتطلّب تركيزاً للوصول إلى حالة عقلية من اللامرئية، بحيث يمكن أن يكون فيها المرءُ على بعد مترٍ من الشخص الآخر دون أن يراه. كانت تعرف متى تصل إلى هذه الحالة، لأنّها كانت تشعر بجسدها هفهافاً، ثمّ تبدو كما لو أنّها تتلاشى وتمّحي تماماً. كانت بحاجة إلى الحفاظ على هدفها دون أن تشرد، دون أن تسمح لأعصابها بأن تخونها، فهي الطريقة الوحيدة للبقاء خَفِيّةً على الآخرين. فحين خرجت من خيمتها كان عليها أن تنسلّ على مسافة قصيرة من الحرّاس الذين كانوا يتجولون حول المعسكر، لكنّها قامت بذلك دون أيّ خوف، يحميها ذلك المجال العقليُّ الرائع الذي خلقته حول نفسها.

وما إن شعرت بالأمان في الغابة، المضاءة بشكل باهت بالقمر، حتى قلّدت البومة مرّتين وانتظرت. بعد قليل أحسّت إلى جانبها بحضور واليماي الصامت. طلبت من الساحر أن يكلّم أهل الضباب ليقنعهم بالاقتراب من المخيّم وأخذ اللقاح الوقائي. فهم لا يستطيعون أن يبقوا مختبئين للأبد في ظلال الأشجار، وقالت، بأنّهم إذا كانوا يُفكّرون ببناء ضيعة جديدة فإنّ «طيور الصخب والريح» ستكتشفهم. ووعدته أن تُبقي على الراهاكاناريوَا على الحدّ، وأن يتفاوض جغوار مع الناهاب. وأخبرته بأنّ لصديقها جدّة قويّة، لكنّها لم تُحاول أن توضّح له قيمة الكتابة والنشر في الصحافة، فقد افترضت أنّ التشامان لن يَفهم ما تعنيه، لأنّه يجهل الكتابة ولم يرَ أحدٌ منهم قط صفحة مطبوعة. فاقتصرت على القول بأن تلك الجدّة تتمتّع بسحر كبير في عالم الناهاب وإن كان سحرها لا ينفع في شيء في «عين العالم».

من ناحيته نام ألِكساندر كولْدْ في الأرجوحة في الهواء الطلق معزولاً قليلاً عن البقيّة. كان يأمل أن يتصل به الهنود ليلاً، لكنه سقط نائماً مثل حجر. حَلم بالجغوار الأسود. كان لقاؤه بطوطمه من الوضوح والدقّة بحيث أنّه لم يكن في اليوم التالي واثقاً مما إذا كان

ما رآه حلماً أم واقعاً. في حلمه نهض من الأرجوحة وابتعد بحذرٍ عن المخيّم، دون أن يراه الحرّاس. وحين دخل إلى الغابة، بعيداً عن نور الصلاء ومصابيح النفط، رأى السنور الأسود مسترخياً على شجرة كستناء، وهو يحرّك ذيله في الهواء وعيناه تلمعان في الظلمة كأنّهما حجرا توبّاز مبهران، تماماً كما ظهر في حلمه، حين شرب مشروبَ واليماي السحري. كان باستطاعته أن ينتزع أحشاء تمساح بأسنانه وبراثنه، وأن يجري بعضلاته القويّة مثل الريح، ويستطيع أن يُواجِه بقوّته وشجاعته أيّ عدوٍّ. كان حيواناً رائعاً، ملك الضواري وابن الشمس الأب، أمير أساطير أمريكا. كان الفتى يتوقّف في حلمه على بعد خطوات من الجغوار، ويسمع، كما في لقائه الأوّل به في فناء ماوْرو كاريّاس، صوتَه الكهفي يناديه باسمه. *ألِكساندر... ألِكساندر*... كان الصوت يُدوّي في دماغه كأنّه جرس ضخم من النحاس مكرراً مرّةً بعد أخرى اسمه. ماذا يعني الحلمُ؟ ما هي الرسالة التي أراد أن ينقلها إليه الجغوار الأسود؟

استيقظ بعد أن كان كلّ الناس في المخيّم قد نهضوا. كان حلم الليلة الفائتة الثاقب يضايقه، فهو على ثقة من أنّه ينطوي على رسالة، لكنّه لا يعرف فكّ رموزها. الكلمة الوحيدة التي قالها الجغوار في ظهورِه هو اسمه: ألِكساندر. فقط لا غير. اقتربت جدّته بفنجان قهوة كبير مع الحليب المكثّف، وهو ما لم يكن ليذوقه قبل ذلك، لكنّه بدا له الآن فطوراً لذيذاً. وحكى لها الحلمَ بتهوّرٍ.

ـ حامي البشر ـ قالت جدّته.

ـ ماذا؟

ـ هذا ما يعنيه اسمك. ألِكساندر اسم يوناني ويعني الحامي.

ـ لماذا أطلقوا عليّ هذا الاسم يا كات؟

ـ من أجلي. أبواك أرادا أن يُسمياك جوزيف، مثل جدّك، لكنّني أصررت أن أسميك ألِكساندر، مثل الاسكندر المقدوني، محارب العصور القديمة العظيم. رمينا قطعة نقدية في الهواء وربحت أنا. لذلك أنت تسمّى كما تسمى الآن ـ وضّحت كات.

ـ وكيف خطر لك أنّني يجب أن أسمّى بهذا الاسم؟

ـ هناك ضحايا كثر وقضايا نبيلة يجب الدفاع عنها في هذا العالم. واسم محارب جيّد يُساعِد على الصراع من أجل العدالة.

ـ سيخيبُ أملُكِ بي يا كات. فأنا لستُ بطلاً.

ـ سنرى ـ ردّت وهي تُعطيه الفنجان.

الإحساس بأنهّم مُرَاقَبُون بمئات العيون جعل الجميع في المعسكر متوتّرين. في السنوات الأخيرة قتلت القبائل ذاتها عدداً من مستخدَمي الدولة، المرسلون لمساعدة الهنود، والذين كانوا يريدون حمايتهم. جاء الاتصال الأوّل ودّياً أحياناً، وكانوا يتبادلون الهدايا والطعام، إلاّ أن الهنود كانوا يشهرون أسلحتهم فجأة ويهاجمونهم بغتة. قال النقيب أريوستو، الذي كان متفقاً تماماً مع نظرية لبلانك: إنّ الهنود عنيفون ويصعب التكهّن بما سيفعلون، لذلك لا يمكن التخفيف من الحراسة، وعليهم أن يبقوا يقظين دائماً. تدخّلت ناديا لتقول إنّ أهل الضباب مختلفون، لكنّ أحداً لم يعرها انتباهاً.

وضّحت الدكتورة أُمَيْرة تورّس أنّ عملها في السنوات الأخيرة كان أساساً بين قبائل مسالمة وهي لا تعرف شيئاً عمّن تسميهم ناديا بأهل الضباب. وفي جميع الأحوال تأمل أن يُحالفها الحظّ أكثر من الماضي وتتمكّن من تلقيحهم قبل أن يُصابوا بالعدوى. وقد اعترفت بأن لقاحاتها جاءت في كثير من الحالات متأخّرة. كانت تُلقّحهم ومع ذلك يمرضون بعد أيّام قليلة ويموتون بالمئات.

كان لودفيك لبلانك قد نفد صبره في تلك الأثناء. فمهمّته لم تُجْدِ نفعاً، وسيعود خالي الوفاض، دون ما أخبار عن بهيمة الأمازون الشهيرة. ماذا سيقول لناشري الإنترناشيونال جيوغرافيك؟ أنّ جندياً مات مقطّعاً في ظروف غامضة، وأنّهم تعرّضوا لرائحة كريهةٍ جداً، وتمرّغ دون إرادة منه في روث حيوان مجهول! بصراحة لم تكن أدلّة مقنعة تماماً على وجود البهيمة؛ كما أنّه لم يكن عنده ما يُضيفه حول هنود المنطقة، فهو لم يلمحهم. لقد أضاع وقته بشكلٍ

بائس. ولا يتصوّر كيف سيعود إلى الجامعة، التي كانوا يُعاملونه فيها كبطل، وهو بمنأى عن لسعات النحل وإزعاجات أخرى. كما أنَّ علاقته مع المجموعة لم تكن على ما يُرام، وكانت مع كاراكاوِ مأساويّة. فالهندي الذي تعاقد معه كمساعد شخصي لم يعد يهوّي له بورقة الموز منذ خرجوا من سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا تقريباً، وانكبّ على أن يجعل حياته أكثر صعوبة. فقد اتهمه لبلانك بأنّه وضع له عقرباً حيّاً في كيسه ودودةً ميتة في قهوته، وحمله بنيّة سيّئة إلى المكان الذي لسعه فيه النحلُ. وقد كان بقيّة أعضاء البعثة يتساهلون مع الأستاذ لأنّه غريب الأطوار، ويستطيعون أن يسخروا منه في وجهه دون أن يعتبر نفسه معنياً. لبلانك كان يعتبر نفسه من الجدّية بحيث لا يمكنه تصور أنّ الآخرين لاينظرون إليه على ذلك النحو.

أرسل ماوْرو مجموعات من الجنود كي يسبروا الغابة في اتجاهات عديدة. فانطلق الرجال من غير رغبة وعادوا سريعاً، دون أخبار عن القبيلة. كما طافوا فوق المنطقة بالحوّامتين، على الرغم من أنّ كات كولْدْ بيّنت لهم أنّ الصخب سوف يرعب الهنود. ونصحت الكاتبةُ بالانتظار والصبر. وكانت مثل لبلانك مهتمّة بالبهيمة أكثر من اهتمامها بالسكان الأصليين، لأنّ عليها أن تكتب مقالها.

ـ هل تعلم شيئاً عن البهيمة لم تقله لي يا ألِكساندر؟ ـ سألت حفيدها.

ـ يمكن ولا يمكن... ـ ردَّ الفتى دون أن يجروً على النظر إلى وجهها.

ـ أيّ نوعٍ من الأجوبة هذا؟

عند منتصف النهار استنفر المعسكر: فقد خرجت هيئة بشرية من الغابة واقتربت بخوف. أشار إليها ماوْرو كاريّاس منادياً إيّاها بود. مرّر المُصوِّرُ تيموثي بروس آلة تصويره إلى كات كولْدْ وأخذ هو آلة التصوير السينمائية: فالاحتكاك الأوّل بالقبيلة كان فرصة فريدة. عرفت ناديا وألِكس الزائر على الفور، إنّها إيومي، زعيمة زعماء تابّيراوَا ـ تيري. وقد جاءت وحيدةً، عاريةً، عجوزاً إلى حدّ

لا يُصدّق، كلّها تجاعيد، درداء، تتكئ إلى عصا ملتوية، تستخدمها كعكّاز، وعلى رأسها قبّعة ريشها الأصفر الدائرية التي تصل إلى أذنيها. اقتربت خطوة فخطوة أمام دهشة الناهاب. نادى ماؤرو كاريّاس كاراكاوٍ وماتوٍ ليسألهما عمّا إذا كانا يعرفان القبيلة التي تنتمي إليها تلك المرأة، لكن ما من أحد منهما عرفها. فتصدّت ناديا للأمر.

ـ أنا أستطيع التحدث معها ـ قالت.

ـ قولي لها إنّنا لن نؤذيها، نحن أصدقاء لشعبها، فليأتوا ليقابلونا دون أسلحة، لأنّ لدينا هدايا كثيرة لها وللآخرين ـ قال ماؤرو كاريّاس.

ترجمت ناديا بتصرف، ودون أن تُلمِح إلى الأسلحة، التي لم تبدُ لها فكرة جيّدة، آخذة بالاعتبار كميّة الأسلحة التي لدى الجنود.

ـ لا نريدُ هدايا الناهاب، فقط نريدهم أن يذهبوا من «عين العالم» ـ ردّت إيومي بحزم.

ـ هذا غير مجدٍ، لن يذهبوا ـ وضّحت ناديا للعجوز.

ـ إذن فمحاربيّ سيقتلونهم.

ـ سيأتي المزيد، والمزيد منهم، وسيموت جميع المحاربين.

ـ جنودي أقوياء، وهؤلاء لا يملكون أقواساً ولا سهاماً، إنّهم ثقيلونٍ وبلهاء ورؤوسهم طرية، ثمّ إنّهم يخافون مثل الأطفال.

ـ الحرب ليست الحل، يا زعيمة الزعماء. علينا أن نتفاوض. ـ توسّلت ناديا إليها.

ـ أيّ شياطين تقول هذه العجوز؟ ـ سأل كاريّاس فاقداً صبرَهُ لأن الصغيرة لم تترجم منذ برهة طويلة.

ـ تقول إنّ شعبها لم يأكل منذ أيّام وهو جائع جدّاً ـ ابتدعت ناديا على الفور.

ـ قولي لها إنّنا سنعطيهم كلّ الطعام الذي يريدون.

- ويخافون من الأسلحة - أضافت هي، على الرغم من أنّ الهنود لم يروا قَطُّ مسدساً أو بندقية ولا تخطر ببالهم قدرتها على القتل.

أمر ماوْرو كاريّاس الرجال أن يجمعوا أسلحتهم كإعلان عن النوايا الطيبة، لكنّ لبلانك تدخّل مذعوراً ليذكّرهم بأنّ الهنودَ عادة ما يهاجمون غدراً. ولذلك تركوا رشاشاتهم، وأبقوا على مسدساتهم إلى خصورهم. تلقّت إيومي قطعةً لحم بالذرة من يدي الدكتورة أمَيْرة تورّس وابتعدت من حيث جاءت. فأراد النقيب أريوستو أن يلحق بها، لكنّها تحوّلت في أقل من دقيقة إلى دخان بين الأدغال.

انتظروا بقيَّةَ النهار يراقبون الأدغال دون أن يروا أحداً، وهم يتحمّلون تحذيرات لبلانك، الذي كان ينتظر طارئاً من أكلة لحوم البشر المستعدين للانقضاض عليهم. بقي الأستاذُ المسلّحُ حتى أسنانه والمحاطُ بالجنود يرتعدُ بعد زيارة جدّة الجدّات العارية بقبّعة ريشها الأصفر. مرّت الساعات دون أن يحدث شيء، باستثناء لحظة توتّر حين فاجأت الدكتورة أُمَيْرَةُ تورّس كاراكاوِ يعبثُ بصناديق التلقيح. لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي يحدث فيها ذلك. فتدخّل ماوْرو تورّس ليحذّر الهنديَّ بأنّه إذا ما عاد ورآه بالقرب من الأدوية، فإنّ النقيب أريوستو سيسجنه على الفور.

في المساء، بعد أن تيقّنوا أنّ العجوز لن تعود، ظهرت قبيلة أهل الضباب بكاملها أمام المعسكر. رأوا في البداية النساء، والأطفال، غير المحسوسين، الهزيلين والغامضين. وتأخروا بضع ثوانٍ حتى أحسوا بالرجال، الذين كانوا قد وصلوا في الحقيقة قبلهم واتخذوا شكل نصف دائرة. لقد انبثقوا من العدم، صامتين، شامخين يتقدّمهم تاهاما، وقد طلوا أجسادهم للحرب بأحمر صباغ الأناتو وأسود الفحم وأبيض الكلس وأخضر النباتات، مزيّنين بالريش والأسنان والمخالب والبذور وجميع أسلحتهم في أيديهم. كانوا وسط المعسكر وقد تماهوا مع المحيط إلى حدّ أنّ رؤيتهم بوضوح

كانت تتطلّب تحديقاً مركزاً. كانوا خفافاً، أثيريين، لا يكاد يظهر رسمهم في المشهد، لكنهم دون شكّ قساة وشرسون أيضاً.

راقب الفريقان بعضهما بعضاً دقائقَ طويلة بصمت، في جانب كان الهنود الشفافون، وفي الجانب الآخر الغرباء المشوّشون. أخيراً أفاق ماؤرو كاريّاس من هذيانه وشرع بالعمل، أعطى تعليماته للجنود بأن يُقدّموا الطعام ويوزّعوا الهدايا. نظر أَلِكس ونادیا بحزنٍ إلى النساء والأطفال وهم يأخذون الترهات التي يريدون أن يجذبوهم بها. لقد كانا يعرفان أنّ نهاية القبيلة تبدأ بهذه الطريقة وهذه الهدايا البلهاء. بقي تاهاما ومحاربوه واقفين، يقظين، دون أن يلقوا أسلحتهم؛ وأخطرها هراواتهم الغليظة التي يستطيعون أن يهاجموا بها خلال ثانية، بينما تسديد الأسهم يحتاج إلى أكثر من ذلك، مما يسمح للجنود بإطلاق النار.

ـ اشرحي لهم أمر اللقاحات يا حلوة ـ أمر ماؤرو كاريّاس الفتاة.

ـ ناديا، اسمي ناديا سانتوس ـ ردّت.

ـ إنّه لصالحهم يا ناديا، لحمايتهم ـ أضافت الدكتورة أُمَيْرَة تورّسْ ـ سيخافون من وخزات الإبر، ولكنّها لا تؤلم أكثر من لسعة بعوضة. ربّما أراد الرجال أن يكونوا الأوائل، كي تحتذي بهم النسوة والأطفال...

ـ ولِماذا لا تُقدِّمُ أنتَ المثل؟ ـ سألت ناديا ماؤرو كاريّاس.

الابتسامة التامة الحاضرة دائماً على وجه رجل الأعمال امّحت أمام تحدّي الصغيرة وعبرت بسرعةٍ في عينيه علاماتُ رعبٍ مطلق. أَلِكس الذي كان يُراقِب المشهد، فكّر أنّها ردّت فعل مبالغ بها. كان يعرف من الناس أنّ كاريّاس يَخاف الحقنَ، لكنّ وجهه بدا كما ولو أنّه رأى دراكولا.

ترجمت ناديا ماقيل، وبعدَ نقاشات طويلة، ظهر فيها اسم راهاكاناريوَا مرّات عديدة، قبلت إيومي أن تفكّر بالأمر وتستشير القبيلة. في هذه الأثناء، وبينما هم في غمرة النقاشات حول

اللقاحات، تمتمت إيومي بأمر لم يشعر به الغرباء فتبخّر أهل الضباب فوراً وبالسرعة التي ظهروا بها. انسحبوا إلى الغابة، دون أن تُسْمَعَ لهم خطوةٌ واحدة، أو كلمةٌ أو بكاءُ طفل. قضى جنود أريوستو بقية الليل في الحراسة وانتظار هجوم في أيّة لحظة.

استيقظت ناديا في منتصف الليل حين أحست أنّ الدكتورة أُمَيرة تورِّس تُغادِرُ الخيمة. افترضت أنّها قامت لتقضي حاجاتها بين الشجيرات، لكنّ قلبها حدَّثها بشيء ما فقرَّرت اللحاق بها. كات كولْدْ كانت تشخر وهي تغطّ في نوم عميق تميّزت به، ولم تعلم بتحركات رفيقتيها. صامتة كقط، تقدّمت مستخدمةً قدرتها على التخفّي المكتسبة حديثاً. ومتخفية خلف بعض السراخس رأت طيفَ الدكتورة تحت ضوء القمر الباهت. بعد دقيقة تقدّم طيف آخر، وأمام دهشة ناديا أمسك الدكتورةَ من خصرها وقبّلها.

ـ أنا خائفة ـ قالت.

ـ لا تخافي يا حبيبتي. فكلّ شيء سيخرج كما نريد، خلال يومين سنكون قد انتهينا من هنا ويمكننا أن نعود إلى الحضارة. أنت تعلمين أنّني بحاجة إليك...

ـ هل صحيح أنّك تُحبُّني؟

ـ طبعاً أُحبّك. أعبدُك، وسأجعلك سعيدة جدّاً، سيكون لكِ كلّ ما تريدين.

عادت ناديا خفيةً إلى الخيمة واستلقت على حصيرها الصغيرة وتظاهرت بالنوم.

الرجل الذي كان مع أُمَيْرَةْ تورِّس هو ماوْرو كاريّاس.

عاد أهل الضباب في صباح اليوم التالي. جاءت النسوة بسلال الثمار وتابير ضخم ميت، كي يردّوا على هدايا اليوم الفائت التي

تلقينها. بدا موقف المحاربين أقل توتّراً، وإن لم يتركوا الهراوات، مبدين فضول النساء والأطفال ذاته. كانوا ينظرون من بعيد، دون أن يقتربوا من طيرَيٍّ صخبٍ وريحِ الناهاب العجيبَيْنْ، وراحوا يلمسون ملابسَ وأسلحةَ الناهاب ويُقلِّبون ممتلكاتهم، يدخلون خيامهم ويقفون أمام آلات تصويرهم، يعلّقون أطواقهم البلاستيكية ويجرّبون حرابهم وسكاكينهم مذهولين.

اعتبرت الدكتورة أُمَيْرَة تورِّس الجوَّ مناسباً كي تبدأ بعملها. طلبت من ناديا أن تُوَضِّحَ للهنود مرّة أخرى الحاجةَ الماسّة لحمايتهم من الأوبئة، لكنّهم لم يقتنعوا. السبب الوحيد الذي جعل النقيب أريوستو لا يُجبرهم على ذلك بالرصاص هو وجود كات كولدْ وتيموثي بروس، لم يكن باستطاعته أن يلجأ إلى العنف الخالص أمام الصحافة، وعليه أن يحافِظ على المظاهر. لم يكن أمامه غير أن ينتظر بصبر النقاشات الأبدية بين ناديا سانتوس والقبيلة. لم يخطر ببال العسكريّ أنه من غير المعقول أن يقتلهم رمياً بالرصاص كي يمنعهم من الموت بالحصبة.

نكّرت ناديا الهنودَ بأنّ إيومي عيّنتها زعيمةً لتهدئة الراهاكاناريوَا، الذي عادة ما يُعاقب البشر بالأوبئة المريعة، ولذلك عليهم أن يُطيعوها. وعرضت أن تكون أوّل من يخضع لوخز اللقاح، لكنَّ هذا بدا مهيناً لتاهاما ومحاربيه. هم أوّلاً، قالوا أخيراً. فترجمت ناديا قرارَ أهل الضباب متنهِّدة الصعداء.

أمرت الدكتورة أُمَيْرَةْ تورِّسْ أن يضعوا طاولة في الظلِّ ونشرت حقنها وعبواتها، بينما راح ماوْرو كاريّاس يُحاول أن ينظِّم القبيلةَ في صفّ، وهكذا ضمن أن لا يبقى أحد من دون تلقيح.

في هذه الأثناء حملت ناديا أَلِكس جانباً لتخبره بما شهدته في الليلة الفائتة. ما من أحد منهما استطاع أن يُفسِّر ذلك المشهد، لكنّهما شعرا بشكل غامضٍ أنّه قد غُدِر بهما. كيف يمكن لأُمَيْرَةْ تورِّسْ العذبة أن تُقيمَ علاقةً مع ماوْرو كاريّاس، الرجل الذي يحمل قلبه في حقيبة؟ واستخلصا أنه ما من شكّ أنّ ماورو كاريّاس قد أغوى الدكتورة الطيّبة، ألم يقولوا إنّه كان ناجحاً جدّاً مع النساء؟ لم

ترَ ناديا وألِكس أيّة جاذبية في ذلك الرجل، لكنّهما افترضا أنّ لياقته وأمواله يمكن أن تخدع آخرين. سيقع الخبر مثل قنبلة على المعجبين بالدكتورة: سيزَرْ سانتوس، وتيموثي بروس، بل وحتى على الأستاذ لودفيك ليلانك.

ـ لا يُعجبني هذا أبداً ـ قال ألِكس.

ـ وهل تغار أنت أيضاً؟ ـ سخرت ناديا.

ـ لا! ـ صاح ساخطاً ـ لكنّني أشعر بشيءٍ هنا في صدري، بشيءٍ يشبه ثقلاً هائلاً.

ـ إنّه بسبب الرؤيا التي تشاركنا بها في مدينة الذهب، هل تذكر؟ حين شربنا مشروبَ أحلامِ والبماي الجمعية حلمنا جميعاً حتى البهائم بالشيء ذاته.

ـ صحيح. يُشبه ذلك الحلم حلماً رأيته قبل الشروع بهذه الرحلة: نسر هائل يخطف أمّي ويحملها طائراً بها، وقد فسّرته عندئذٍ على أنّه المرض الذي يُهدّدُ حياتها، ففكّرت وقتذاك أنّ النسر يُمثّلُ الموتَ. وفي التِبّوي حلمنا أنّ الراهاكاناريوَا حطّم الصندوق الذي حُبِسَ فيه، وأنّ الهنودَ مربوطين إلى الأشجار، هل تذكرين؟

ـ نعم وكان الناهاب يضعون أقنعة. ماذا تعني الأقنعة؟ ياجغوار؟

ـ السر، الكذب، الغدر.

ـ لماذا تعتقد أنّ ماوْرو كاريّاس مهتمّ كلّ هذا الاهتمام بتلقيح الهنود؟

بقي السؤال معلّقاً في الهواء مثل سهم توقّفَ في أوج انطلاقه. نظر الفتيان الواحد إلى الآخر مذعورَيْن. وفي لحظة صفاءٍ أدركا الخديعةَ المريعة التي وقع فيها الجميع: الراهاكاناريوَا هو الوباء. والموت الذي يُهدّدُ القبيلة لم يكن طائراً أسطوريّاً، بل شيئاً أكثر تحديداً وفوريةً. جريا إلى وسط الضيعة، حيث كانت الدكتورة أُمَيْرَة تورُس توجّهُ إبرةَ حقنتِها إلى ذراع تاهاما. ورمى ألِكس نفسه مثل

نيزك، دون أن يُفكّر بالأمر، فوق المحارب، طارحاً إياه بظهره على الأرض. انتصب تاهاما على قدميه بقفزة واحدة، ورفع الهراوة ليسحق الفتى مثل خنفساء، لكنّ صيحةً من ناديا أوقفت السلاحَ في الهواء.

ـ لا! لا! هوذا الراهاكاناريوَا، هناك! ـ صاحت الفتاةُ مُشيرة إلى عبوات اللقاح.

ظن سيزَرْ سانتوس بأنّ ابنته جُنَّتْ فحاول أن يُمسك بها، لكنّها أُفْلِتَتْ من ذراعيه وركضت لتنضمّ إلى ألِكسْ وهي تزعق وتضرب بيديها ماوْرو كاريّاس الذي قطع طريقها. وحاولت بكلِّ سرعةٍ أن تُفهم الهنودَ بأنّها أخطأت، وأنّ اللقاح لن يُنقذَهم، بل على العكس سيقتلهم، لأنَّ الراهاكاناريوَا موجود في الحقنة.

18

بقع الدم

لم تفقد الدكتورة أُمَيْرَةْ تورِّس هدوءها. قالت إن كلّ ذلك كان من خيال الطفلين والحرّ الذي شوّش عقليهما، وأمرت النقيب أريوستو بأن يأخذهما. واستعدّت على الفور لمتابعة مهمّتها، على الرغم من أنّ مزاج القبيلة قد تبدّل تماماً. في تلك اللحظة وحين كان النقيب أريوستو جاهزاً لأن يفرض النظام بالرصاص والجنود يتعاركون مع ناديا وألِكس، تقدّم كاراكاوِ، الذي لم ينطق خلال الرحلة كلّها بستّ كلمات.

ـ لحظة! ـ صاح.

أمام البلبلة العامّة، أعلن هذا الرجل الذي لم ينطق خلال الرحلة كلّها بستّ كلمات، أنّه موظّف في قسم حماية السكان الأصليين، ووضّح بالتفصيل مهمّته في التحقّق من السبب في موت قبائل الأمازون جماعياً، وخاصّة تلك التي تعيش بجانب الذهب والماس. كان يشك منذ زمن بماؤرو كاريّاس، الرجل الذي كان أكثر المستفيدين من استغلال المنطقة.

ـ أيّها النقيب أريوستو صادِرْ اللقاح! ـ أمر كاراكاوِ ـ سأجعلهم يحلّلونها في المختبر. إذا كنت على حقٍّ فإنّ هذه العبوات لا تحتوي على لقاح، بل على جرعات قاتلة من فيروس الحصبة.

واختصاراً لأيّ ردّ سدَّد النقيب أريوستو سلاحه وأطلق النارَ

على صدر كاراكاو. سقط الموظّف ميتاً على الفور. دفع ماورو كاريّاس الدكتور أُمَيْرَة تورّس وأخرج مسدسه، وأفرغه على العبوات المصفوفة على الطاولة، فحوّلها إلى شظايا في اللحظة التي راح فيها سيزَرْ سانتوس يجري ليحمي المرأة بجسده. واندلق السائلُ على الأرض.

كان تتالي الأحداث من العنف بحيث أنّه ما من أحد استطاع أن يرويها فيما بعد بدقة، فكلّ واحد كانت له روايته المختلفة. سجّلت آلةُ تصوير تيموثي بروس السينمائية قسماً من الأحداث، وتكفّلت آلة التصوير التي تحملها كات كولْدْ بالباقي.

حين رأى الهنود العبوات مُكَسَّرةً اعتقدوا أنّ الراهاكاناريوَا قد أُفلِت عن عقاله وسيعود إلى شكله: طائراً آكلاً للحوم البشرية ليلتهمهم قبل أن يستطيع أيّ شخص من منعه، فأطلق تاهاما صرخة تقشعر لها الأبدان، ووجه ضربة من هراوته على رأس ماورو كاريّاس، فسقط مثل كيس على الأرض. أدار النقيب أريوستو سلاحه على تاهاما، لكنّ ألِكسْ انقض على ساقيه وهاجمه قردُ ناديا، بوروبا، وناديا في وجهه. ضاعت رصاصات النقيب في الهواء، وأفسحت المجال أمام تاهاما ليتراجع يحميه محاربوه، الذين كانوا قد أمسكوا بأقواسِهِم.

خلال الثواني القليلة التي تأخَّرَ فيها الجنود في تنظيم أنفسهم وسحب مسدّساتهم، كانت القبيلة قد تفرّقت. النساء والأطفال هربوا مثل السناجب، مختفين في الأدغال، والرجالُ تمكّنوا من إطلاق بعضِ السهام قبل أن يهربوا بدورهم. فأطلق الجنود النار على غير هدى، بينما كان ألِكسْ ما يزالُ يُعارك أريوستو على الأرض، تُساعده ناديا وبوروبا. ضربه النقيب بعقب مسدّسه على حنكه وتركه شبه فاقد للوعي، وهزَّ بعدها ناديا والقرد صفعاً. جرتْ كات كولْدْ لنجدة حفيدها، ساحبة إيّاه خارج مركز تبادل إطلاق النار. وفي الضجة والبلبلة لم يعد أحد يسمع أوامر أريوستو.

خلال دقائق كانت الضيعة ملطخة بالدم. فقد كان هناك ثلاثة جنود جرحى بالسهام، وعدد من الهنود قتلى، إضافة إلى جثّة

كاراكاوِ وجسد ماؤرو كاريّاس الخامد. وقد سقطت امرأة اخترقتها رصاصة وبقي طفلها الذي كانت تحمله بين ذراعيها مرميّاً على بعد خطوات منها. لودفيك لبلانك، الذي بقي على مسافة حذرة منذ ظهرت القبيلة، متمترساً خلف شجرة، قام بردّة فعل غير متوقّعة. كان قد تصرّف حتى تلك اللحظة ككتلةٍ من الأعصاب، لكنّه حين رأى الطفل مُعرَّضاً للعنف، استنبطَ شجاعةً من مكان ما، وعبر ميدانَ المعركةِ جارياً، ورفع الطفلَ المسكين بين ذراعيه. كان رضيعاً ابنَ أشهر قليلة، ملطخاً بدم أمِّهِ ويصرخ يائساً. بقي لبلانك هناك، وسط الفوضى، يحمله ويضمّه بقوة إلى صدره وهو يرتعد حَنقاً وبلبلةً. انقلبت أسوأ كوابيسه رأساً على عقب: ليس الهنود هم المتوحشون، بل هم. أخيراً اقترب من كات كولْدْ، التي كانت تُحاول أن تمضمض فمَ حفيدها المتضرّج بالدم بقليل من الماء وأعطاها الطفل.

ـ هيّا يا كولْدْ، أنتِ امرأة، وتعرفين ما تفعلينه بهذا ـ قال لها.

تلقّت الكاتبةُ، مندهشة، الطفل وأخذته بين ذراعيها الممدودتين، كما لو أنّه مزهرية. سنوات كثيرة مرّت لم تحمل بين يديها طفلاً، وهي لا تعرف ماذا ستفعل به.

كانت ناديا قد تمكّنت في تلك الأثناء من النهوض ومراقبة الميدان المزروع بالجثث. اقتربت من الهنود محاولة التعرّف عليهم، لكنّ أباها أجبرها على التراجع وهو يُعانقها، منادياً إيّاها باسمها، هامساً بكلمات مُطَمْئِنة. استطاعت ناديا أن تتأكّدَ أن إيومي وتاهاما لم يكونا بين الجثث، وفكّرت بأنّ أهل الضباب ما زالوا حتى الآن يملكون زعيمين من زعمائهم، لأنّ الزعيمين الآخرين، النسر والجغوار قد خيّبا ظنهم.

ـ قفوا جميعاً أمام هذه الشجرة! ـ أمر النقيب أريوستو أعضاءَ البعثة. كان العسكري شاحباً وسلاحه يرتجف في يده. فقد جرت الأمور بشكل سيّئ.

أطاعته كات كولْدْ، وتيموثي بروس، والأستاذ لبلانك والفتيان.

كان أحد أسنان ألِكس قد كُسر، وامتلأ فمُهُ بالدم، وما يزال مشوّشاً من الضربة بعقب المسدس على فكّه. بدت ناديا في حالة الصدمة، وفي صدرها صرخة محاصَرَة، وعيناها مثبتة على الهنود القتلى والجنود الذين يئنون ملقيين على الأرض. الدكتورة أُمَيْرَة تورِّسْ، الغريبة عن كلّ ما كان يحيط بها والمبللة بالدمع، تسند رأس ماورو كاريّاس على ساقيها. تُقبِّلُ وجهَهُ طالبةٍ منه ألا يموت، وألاّ يتركها، بينما ثيابها تتبلَّل بالدم.

ـ كنّا سنتزوّج... ـ ردَّدت كأنّها تبتهل.

ـ الدكتورة هي شريكة ماورو كاريّاس. كان يقصدها حين قال إنّ شخصاً موثوقاً سيسافر مع البعثة. هل تتذكّرين؟ وكنّا نتهم كاراكاوا! ـ همس ألِكس إلى ناديا، لكنّها كانت غارقة في الرعب، ولم يكن باستطاعتها أن تسمع.

أدرك الفتى أنّ مخطّط رجل الأعمال بالقضاء على الهنود بوباء الحصبة كان يحتاج إلى تعاون الدكتورة تورِّس. فمنذ عدّة سنوات والهنود يموتون جماعياً، ضحايا هذا المرض وأمراض أخرى، على الرغم من جهود السلطات لحمايتهم. وحين ينتشر وباء لم يكن هناك ما يُمكن فعله، لأنّ الهنود ليس لديهم مناعة؛ فقد عاشوا آلافَ السنين معزولين ونظام مناعتهم لا يُقاوم فيروس البيض. إذا كان زكام عام يمكنه أن يقضي عليهم خلال أيّام قليلة، فكيف بأمراض أكثر خطراً. الأطباء الذين كانوا يدرسون المشكلة لم يفهموا لماذا لم يُعط أيّ من الإجراءات الوقائية نتيجة. وما كان باستطاعة ناديا أو أي شخص أن يتصوّر أنّ أُميْرَة تورِّسْ، الموفدة لتلقيح الهنود، هي من يحقنهم بالموت، كي يتمكّن عشيقها من الاستيلاء على أراضيهم.

كانت المرأة قد قضت على عدّة قبائل دون أن تُثير الشكّ حولها، تماماً كما كانت تريد أن تفعل بأهل الضباب. بماذا وعدها كاريّاس كي ترتكب جريمة بمثل ذلك الحجم؟ ربّما لم تفعل ذلك من أجل المال، بل حبّاً بذلك الرجل. على كلّ حال، سواء فعلت ذلك حبّاً أو طمعاً، فالنتيجة واحدة: مئات الرجال والنساء والأطفال مقتولون. لولا ناديا سانتوس، التي رأت أُمَيْرَةْ تورِّس وماوْرو كاريّاس

يتبادلان القبل، ما كانت لتُكتَشَف مقاصد هذا الثنائي. وقد فشل المخطّط بفضل تدخّل كاراكاوِ، الذي دفع حياته ثمناً لذلك في الوقت المناسب.

الآن أدرك ألِكساندر كولْدْ الدورَ الذي حدّده ماورو كاريّاس لبعثة الإنترناشيونال جيوغرافيك. فبعد أسبوعين من تلقيحهم بفيروس الحصبة، سيتفشّى الوباء في القبيلة، وتنتشر العدوى إلى القرى الأخرى بسرعة كبيرة. وعندئذٍ سيشهد الأستاذ الأرعنُ لودوفيك لبلانك أمام الصحافة العالمية أنّه كان حاضراً حين تمّ الاتصال الأوّل بأهل الضباب. ولا يمكن اتهام أحد. فقد تمّ اتخاذ الاحتياطات الضرورية لحماية الضيعة. الأنثروبولوجي، مدعوماً بتحقيق كات كولْدْ وصور تيموثي بروس، يستطيع أن يُبرهن على أنّ أعضاء القبيلة قد لُقّحوا. وستكون العدوى أمام أعين العالم فاجعة قدرية، ولن يفكر أحد بشيء آخر، وبهذه الطريقة يُؤَمّن بأنّ الحكومةَ لن تجري تحقيقاً. كانت طريقة للإبادة نظيفةً وفعّالة، لا تترك أيّ أثر من دم، كما هو الحال مع الرصاص والقنابل، التي استخدمت طوال سنوات ضدّ السكان الأصليين لـ «تطهير» أرض الأمازون، فاتحة المجال أمام رجال المناجم والتجّار والمستوطنين والمغامرين.

حين سمع النقيب أريوستو اتهام كاراكاوِ، فقد عقله وباندفاع قتله كي يحمي كاريّاس ويحمي نفسه. كان يتصرّف بالضمانة التي يمنحها له لباسه العسكري. ففي تلك المنطقة النائية وشبه المقفرة، حيث لا تصل ذراع العدالة، لا أحد يشكّ بكلمته. كان هذا يمنحه قوّةً وصلاحيات خطيرة. كان رجلاً خشناً، لا يعرف التردّد، أمضى سنوات في مواقع حدودية، معتاداً على العنف. وكأنّ سلاحه على خصره ووضعه كضابط لم يكونا كافيين، كي يلقى حماية ماورو كاريّاس. كانت لرجل الأعمال اتصالاته بأعلى الدوائر الحكومية، وينتمي إلى الطبقة المُهيمِنة، وعنده مال كثير ومكانة، ولا أحد يُحاسبه. كان التحالف بين أريوستو وكاريّاس مفيداً للإثنين. فالنقيب كان يُقدِّر بأنّه سيستطيع خلال سنتين أن يُعلّق لباسَهُ العسكري ويذهب ليعيشَ مليونيراً في ميامي، لكنّ ماورو كاريّاس

كان يرقد على الأرض محطَّمَ الرأس وما عاد باستطاعته أن يحميه. وهذا يعني نهاية حصانته. سيكون عليه أن يُبرِّر أمام الحكومة مقتل كاراكاوِ وهؤلاء الهنود المرميين وسط المعسكر.

استنتجت كات كولْدْ والطفل ما يزال بين ذراعيها أنّ حياتها وحياة بقيّة أعضاء البعثة، بمن فيهما الصغيران، في خطر كبير، لأنّ أريوستو سيحاول أن يتفادى بأيّ ثمن أن ينتشر خبرُ أحداث تابّيراوَا ـ تيري. لم تعد المسألة الآن تتعلّق برشّ ضحاياه بالبنزين، وإشعال النار فيهم واعتبارهم مفقودين. فالنقيب قد خرجت رصاصته من فوّهة سلاحه، ووجود بعثة الإنترناشيونال جيوغرافيك ما عاد ميّزة فقد تحوّلت إلى مشكلة خطيرة. كان عليه أن يتخلّص من الشهود، لكن عليه أن يفعل ذلك بكثير من الحكمة، فهو لا يستطيع أن يقتلهم رمياً بالرصاص دون أن يتورّط. ومن سوء حظّ الأجانب أنّهم كانوا بعيدين جدّاً عن الحضارة، ومن السهل على النقيب أن يمحو أثرهم.

كانت كات كولْدْ على ثقة من أنّه في حال أنّ العسكريَّ قرّر أن يقتلهم، فلن يُحرِّكَ الجنودُ ساكناً لمنعه، كما لن يجرؤوا على الوشاية به لقادتهم الأعلى. والأدغال سوف تبتلع معالِمَ الجريمة. لايمكنهم البقاء مكتوفي الأيدي بانتظار رصاصة الرحمة، وكان عليهم أن يفعلوا شيئاً. لم يكن لديها ما تخسره، فالحالة لا يمكن أن تكون أسوأ مما هي عليه. فأريوستو كان قاسياً، عديم الرحمة إضافة إلى أنّه مضطرب، ويمكن أن يجعلهم يلقون مصير كاراكاوِ. لم يكن عند كات مخطّط، لكنّها فكّرت أن أوّل ما يجب فعله هو خلق حالة من الإلهاء بين صفوف العدو.

ـ أيّها النقيب، أعتقد أن أكثر ما هو ملح الآن هو إرسال هؤلاء الرجال إلى المستشفى ـ اقترحت، مُشيرة إلى كاريّاس والجنود الجرحى.

ـ اخرسي أيتها العجوز! ـ نبحَ العسكري ملتفتاً.

ومع ذلك، فقد أمر أريوستو بعد دقائق قليلة أن يصعدوا

بماورو كاريّاس والجنود الثلاثة إلى إحدى الحوّامتين. وأمر أُمَيْرَة تورِّس أن تُحاول انتزاع السهام من الجرحى قبل ترحيلهم، لكنّ الدكتورة تجاهلته تماماً: عيناها كانتا فقط لرؤية حبيبها المحتَضَر.

وانهمكت كات كولْد وسيزَرْ سانتوس في مهمّة ارتجال ضمادات من الخرق لتفادي أن يستمر الجنود المنحوسون بالنزيف.

بينما كان العسكر يقومون بعملهم لنقل الجرحى إلى الحوّامة، ويحاولون عبثاً الاتصال عبر الراديو بسانتا ماريّا دِ لا ليوبيا، وضّحت كات للأستاذ لبلانك مخاوفها من الوضع الذي هم فيه. كان الأنثروبولوجي قد وصل إلى الاستنتاجات ذاتها. هم في خطر على يد أريوستو أكثر مما على يد الهنود أو البهيمة.

ـ لو نستطيع أن نهرب إلى الأدغال... ـ همست كات.

فاجأها الرجل مرّة أخرى بردّة فعل عقلانية. فكات كانت معتادة على إرهاصات وإغماءات وفظاظات الأستاذ، بحيث أنّها حين رأته رزيناً تنازلت له عن السلطة بطريقة شبه آلية.

ـ سيكون هذا جنون ـ ردّ لبلانك بثبات ـ فالطريقة الوحيدة للخروج من هنا هي الحوّامة. والأساس هو أريوستو. من حسن الحظّ أنّه جاهل ومغرور، وهذا لصالحنا. علينا أن نتظاهر بأنّنا لا نشكّ به وننتصر عليه بالحيلة.

ـ كيف؟ ـ سألت الكاتبة غير مصدّقة.

ـ بالمناورة، هو خائف، ولذلك سنعرض عليه فرصة النجاة بجلده والخروج من هنا أيضاً وقد أصبح بطلاً ـ قال لبلانك.

ـ ولا بأي شكلٍ من الأشكال! ـ صاحت كات.

ـ لا تكوني بلهاء يا كات. سنعرض عليه هذا، لكنه لا يعني أنّنا سننفّذ ذلك. ما إن نخرج من هذا البلد، حتى يكون لبلانك أوّل من سيبلغ عن الفظاعات التي تُرتكب ضدّ هؤلاء الهنود المساكين.

ـ أرى أنّ رأيك بالهنود قد تغيّر قليلاً ـ دمدمت كات كولْدْ.

لم يتكرّم الأستاذ بالردّ. انتصب بكلّ قامته الصغيرة، وسوّى قميصه الملطخ بالطين والدم، وتوجّه نحو النقيب أريوستو.

ـ كيف سنعود إلى سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا يا عزيزي النقيب؟ الحوّامة الثانية لا تتسع لنا جميعاً ـ قال مُشيراً إلى الجنود والمجموعة التي تنتظر بجانب الشجرة.

ـ لا تحشر أنفك في هذا! الأوامر أنا من يُصدرها هنا! ـ زمجر أريوستو.

ـ طبعاً! من المريح أنّك المسؤول عن هذا أيها النقيب، ولولا ذلك لكنّا في وضع أصعب ـ علّق لبلانك بنعومة. أريوستو، المشوّش، أعاره أذناً صاغية ـ لو لا بطولتك لأُبدنا جميعاً على أيدي الهنود ـ أضاف الأستاذ.

أريوستو، الذي هدأ قليلاً، عدَّ الناس ووجد أنّ لبلانك على حقّ، فقرّر أن يُرسل نصفَ مجموعة الجنود في الرحلة الأولى. وبهذا بقي مع خمسة جنود ورجال البعثة فقط، وبما أنّ هؤلاء لم يكونوا مُسلّحين، فإنّهم لا يُشكّلون خطراً. شرعت الحوامة بالطيران، مُثيرةً عند ارتفاعها عن الأرض سحابةً من الغبار الأحمر. ثم ابتعدت فوق قبّة الأدغال الخضراء، ضائعة في السماء.

تابعت ناديا الأحداث متشبّثة بأبيها وبوروبا. ندمت لأنّها تركت طلسم واليماي في عش البيوض البلورية. وفجأة بدأت تصيح مثل بومة. سيزَرْ سانتوس المشوَّش، اعتبر أنّ ابنته المسكينة قد تحمّلت من الانفعالات أكثر مما تستطيع وأصيبت بنوبة عصبية. فالمعركة التي دارت في الضيعة كانت عنيفةً جداً، وكان أنين الجنود الجرحى ودم ماورو كاريّاس مشهد يقشعِر له البدن؛ وجثث الهنود ما تزال ملقاة حيث سقطوا دون أن يقوم أحد بجمعها. وخلص الدليلُ إلى أنّ وحشية الأحداث الأخيرة قد ذهبت بعقل ناديا، وليس هناك من تفسير آخر لهذا النعيق الذي تصدره الطفلة. بالمقابل كان على

أَلِكساندر كولْدْ أن يتظاهر بابتسامة اعتزاز حين سمع صديقته: كانت ناديا تلجأ إلى آخر عامل خلاص ممكن.

ـ سلمني بكرات الأفلام ـ طلب أريوستو من تيموثي بروس.

كان ذلك بالنسبة إلى المُصوِّر كمن يسلم حياته. فهو شديد الحرصِ على مسوداته، ولم يتنازل عنها قط، فجميعها مصنَّفة بشكل جيّدٍ في مختبره في لندن.

ـ يبدو لي شيئاً رائعاً أن تتخذ الاحتياطات كيلا تضيع هذه المسودات القيّمة أيّها النقيب أريوستو ـ تدخّل لبلانك ـ إنّها البرهان على ما جرى، وعلى الكيفية التي هجم فيها الهنديُّ على السيِّد كاريّاس، وكيف سقط جنودك البواسل تحت السهام، واضطُرِرتَ أنتَ نفسك أن تُطلق النار على كاراكاوِ.

ـ لقد حشر الرجلُ نفسه فيما لا يعنيه ـ هتف النقيب.

ـ طبعاً! كان مجنوناً. أراد أن يمنع الدكتورة من القيام بواجِبها. كانت اتهاماته معتوهة! يؤسفني أن عبوات اللقاح قد تكسّرت في زحمة العراك. لم يعد باستطاعتنا أن نعرف ماذا كانت تحتوي، ولا يمكن أن نبرهن على أنّ كاراكاوِ كان يكذب ـ قال لبلانك بمكر.

قام أريوستو بحركة كان من الممكن أن تكون في ظروف أخرى ابتسامة. فقد وضع سلاحه في خصره، وأجّل موضوع المسودات وتخلّى لأوّل مرّة عن الإجابة صارخاً. ربّما لم يكن هؤلاء الأجانب يشكّون بشيء، إنّهم أغبى مما كان يظنُّ، دمدم بين أسنانه.

كانت كات كولْدْ تتابع حوار الأنثروبولوجي والعسكري فاغرةَ الفم. لم تتصوّر قط أن يكون لبلانك الفضولي، قليل الفائدة، قادراً على أن يكون بارد الدم بتلك الطريقة.

ـ اخرسي يا ناديا من فضلك ـ توسّل سيزَرْ سانتوس إلى ناديا حين كرّرت نعيق البومة للمرّة العاشرة.

ـ أعتقد أنّنا سنقضي الليل هنا. هل تريد أن نُحضِّر شيئاً للعشاء أيّها النقيب؟ ـ عرض لبلانك بلطف.

أَذِنَ لهم العسكري بتحضير الطعام والتجوّل في المعسكر، لكنّه أمرهم أن يكونوا في دائرة قطرها ثلاثين متراً، حيث يستطيع أن يراهم. وأمر الجنود بأن يجمعوا الهنود القتلى ويضعوهم جميعاً معاً في مكان واحد؛ يستطيعون في اليوم التالي أن يواروهم التراب أو يحرقوهم. وساعات الليل تلك ستمنحه الوقت كي يتخذ قراره تجاه الأجانب. يمكن لسانتوس وابنته أن يختفوا دون أن يسأل أحد عنهم، لكن عليه أن يكون حذراً بالنسبة إلى الآخرين. فلودفيك لبلانك شخصية مشهورة والعجوز والصبي أمريكيان. وكان يعرف من تجربته أنّه حين يحدث شيء لأمريكي، دائماً يكون هناك تحقيق، فهؤلاء الأمريكيون الشماليون المتعجرفون يعتقدون أنّهم سادة العالم.

على الرغم من أنَّ الأستاذ لبلانك كان صاحب الفكرة، إلاّ أنَّ اللذين حضَّرا الطعام هما سيزَرْ سانتوس وتيموثي بروس، لأنَّ الأنثروبولوجي لم يكن قادراً حتى على سلق بيضة. اعتذرت كات كولْدْ موضِّحة أنّها لا تتقن عمل شيء آخر غير كرات اللحم، ولا توجد هناك مكوِّناتها؛ ثمّ أنّها كانت مشغولة جدّاً في محاولة إعطاء الرضيع ملاعق من الماء والحليب المكثّف. وفي هذه الأثناء جلست ناديا تراقب الأدغال، مُكرِّرة بين حين وآخر نعيقَ البومة. وبأمر متعقّل منها أفلت بوروبا من ذراعيها وجرى ليضيع في الغابة. بعد نصف ساعة تذكّر النقيب أريوستو بكرات الأفلام، وأجبر تيموثي بروث على تسليمها له بالذريعة التي قدَّمها له لبلانك: فمعه كانت في أمان أكبر. لم يُجْدِ المصوِّر الإنكليزي نفعاً أنّه قدّم الحجج، بل ولا محاولته أن يرشوه، فالعسكريّ بقي ثابتاً.

أكلوا بالدور، بينما الجنود يراقبون، بعد ذلك أمر أريوستو أعضاء البعثة أن يناموا في الخيام، حيث سيكونون محميّين إلى حدّ

ما في حال حدوث هجوم، كما قال، على الرغم من أنّ السبب الحقيقيّ هو أنّه يستطيع بتلك الطريقة أن يراقبهم بشكلٍ أفضل. شغلت ناديا وكات كولْدْ مع الرضيع خيمةً، وشغل لودوفيك لبلانك وسيزَرْ سانتوس وتيموثي بروس أخرى. لم ينسَ النقيبُ أنّ ألِكس هاجمه فحمل تجاهه كراهية عمياء. فبسبب هذين الصبيين، وخاصّة الفتى الأمريكي اللعين، هو في ورطة رهيبة، ودماغ ماؤرو كاريّاس صار عصيدةً، والهنود هربوا، ومخطّط العيش في ميامي وخطط الثراء أصبحت في خطر جدّي. لقد كان ألِكساندر يمثّل خطراً بالنسبة إليه، ويجب أن يلقى جزاءه. فقرّر أن يعزله عن الآخرين وأمر بربطه إلى شجرة في طرف المعسكر، بعيداً عن خيمتي أعضاء مجموعته الآخرين وبعيداً عن مصابيح النفط. احتجّت كات كولْدْ غاضبةً على المعاملة التي يلقاها حفيدها، لكنّ النقيب أسكتها.

ـ ربّما هذا أفضل يا كات، جغوار ذكيّ جدّاً، وبالتأكيد ستخطر له الطريقة التي يهرب بها ـ همست ناديا.

ـ أريوستو يُفكِّر بقتله في أثناء الليل، أنا واثقة ـ ردّت الكاتبة، وهي ترتجف غيظاً.

ـ بوروبا راح يبحث عن مساعدة ـ قالت ناديا.

ـ هل تعتقدين أنّ هذا القرد الصغير سينقذنا؟ ـ نفخت كات.

ـ بوروبا ذكيّ جدّاً.

ـ أيتها الصغيرة، إن في عقلك خللاً ـ صاحت الجدّة.

انقضت عدّة ساعات دون أن ينام أحد، باستثناء الرضيع، المنهك من البكاء. فقد وضعته كات كولْدْ على صرّة من الثياب، متسائلة ماذا سيحلّ بذلك المخلوق: فآخر ما كانت ترغب به في حياتها هو أن تأخذ على عاتقها يتيماً. بقيت الكاتبة يقظة، مقتنعة أنّ باستطاعة أريوستو أن يغتال حفيدها أوّلاً ومن ثمّ البقية أو ربّما على العكس، هم أوّلاً وبعدها ينتقم من ألِكس بميتةٍ بطيئة رهيبة. فالرجل خطير جداً. وكان تيموثي بروس وسيزَرْ سانتوس يضعون أذنيهما على قماش الخيمة، مُحاولين أن يتكهّنوا بحركة الجنود في

الخارج. بالمقابل خرج لودفيك لبلانك من خيمته بحجّة قضاء حاجاته وبقي يتحدّث مع النقيب أريوستو. كان الأنثروبولوجي، يعي أنّ الخطر يزداد مع كلّ ساعةٍ تمرّ، وأنّ من المناسب أن يحاول إلهاء النقيب، فدعاه للعب الورق والمشاركة في تناول زجاجة فودكا أمدّته بها كات كولنْ.

ـ لا تحاول أن تُسكِرني يا أستاذ ـ حذّره أريوستو، ومع ذلك ملأ كأسه.

ـ كيف يخطر لك هذا أيّها النقيب! إنّ جرعة من الفودكا لا تؤثّر قيد أنملة على رجل مثلك. الليل طويل، ونستطيع أن نتسلّى قليلاً ـ ردّ لبلانك.

19

الحماية

انخفضت الحرارةُ فجأةً عند مغيب الشمس، كما يحدث عادةً في الهضبة. الجنود، المعتادون على حرارة الأراضي المنخفضة، راحوا يرتعدون في ملابسهم التي ما تزال مبلّلة بمطر المساء. لم ينم أحد منهم، وكان عليهم بأمرٍ من النقيب أن يقيموا جميعاً حراسةً حول المعسكر. بقوا مستنفرين، والسلاح في أيديهم. الآن لم يعودوا يخافون شياطين الأدغال وظهور البهيمة وحسب، بل والهنود أيضاً، الذين يمكن أن يعودوا في أيّة لحظة لينتقموا لقتلاهم. صحيح أنهم ينعمون بميّزة امتلاك الأسلحة النارية، لكنّ الآخرين يعرفون الأرضَ جيّداً ويملكون تلك القدرة المدهشة على الانبثاق من العدم، مثل أرواح تائهة. ولولا الجثث المكوّمة بجانب إحدى الأشجار لفكّروا بأنّهم ليسوا بشراً، وبأنّ رصاصهم لا يستطيع أن يؤذيهم. كان الجنود ينتظرون الصباح بفارغ الصبر كي يخرجوا مثل الريح من هناك بأسرع ما يمكن؛ فالوقت كان يمرُّ في الظلمة ببطء شديد وصخب الغابة المحيطة يُصبح مرعباً.

كانت كات كولْدْ، المتربّعة بجانب الطفل النائم في خيمة النساء تفكّر بالكيفية التي ستساعد بها حفيدها وتخرج من «عين العالم» حيّة. كان يتسرب عبر قماش الخيمة بعضُ نور الصلاء، وتستطيع الكاتبة أن ترى طيف ناديا ملفوفة بصدرة أبيها.

ـ سوف أخرج الآن ـ همست الفتاة.

ـ لا تستطيعين الخروج! ـ سدّت عليها الكاتبةُ الطريق.

ـ لن يراني أحد، يمكنني أن أصبح لا مرئية.

أمسكت كات كولْدْ الصغيرة من ذراعيها، واثقة من أنّها تهذي.

ـ اسمعيني يا ناديا... أنت لست غير مرئية. لا أحد خفيّ، هذه أوهام. لا تستطيعين أن تخرجي من هنا.

ـ نعم أستطيع. لا تُثيري ضجّةً يا سيّدة كولْدْ. اعتني بالطفل ريثما أعود، وبعدها سنسلمه إلى القبيلة ـ همست ناديا. كان في صوتها من اليقين والهدوء ما جعل كات لا تجرؤ على إيقافها.

وضعت ناديا سانتوس نفسها أوّلاً في حالة الخفاء العقلية، كما تعلّمت من الهنود، وتحوّلت إلى عدم، إلى روحٍ شفافة خالصة. ثمّ فتحت غلق الخيمة بحذر وانسلّت إلى الخارجِ تحميها الظلال. عبرت مثل ابن عرس على بعد أمتار قليلة من الطاولة التي يلعب عليها الأستاذ لبلانك والنقيب أريوستو بالورق، ومرّت أمام الحرّاس المسلحين الذين يجولون حول المعسكر ولم يرها أحد منهم. ابتعدت الفتاة عن دائرة نور المصابيح والصلاء المرتعش، ثم اختفت بين الأشجار. وسرعان ما قطع نعيق بومة نقيق الضفادع.

كان ألِكس، مثله مثل الجنود، يرتعدُ من البرد. فقد نملت ساقاه وانتفخت يداه بسبب الأربطة المشدودة على رسغيه. وكان حنكه يؤلمه، وباستطاعته أن يشعر بجلده ينشدّ. لا بدّ أنّه يعاني من رضّ رهيب. كان يتحسس بلسانه سنّه المكسورة، ويشعر بلثته المتورّمة حيث تركت ضربة النقيب بكعب مسدسه أثرها. حاول ألا يُفكّر بساعات الظلمة الطويلة التي تمتدّ أمامه أو باحتمال أن يُقتَل. لماذا عزله أريوستو عن البقية؟ ماذا كان يخطّط أن يفعل به؟ أراد أن يُصبِح الجغوار الأسود، أن يملك قوّة وشراسة وخفّة السنّور الكبير، أن يتحوّل إلى عضلات خالصة، إلى مخالب وأنياب كي يُواجه أريوستو. فكّر بزجاجة ماء الصحّة التي تنتظر في كيسه، وأنّ عليه أن يخرج حيّاً من «عين العالم» كي يأخذها إلى أمّه. كانت ذكرى

أسرته ضبابية، مثل صورة مهزوزة، وجه أمّه فيها لا يكاد يظهر أكثر من بقعة شاحبة.

كان قد بدأ يترنح من النعاس، بعد أن هزمه الإنهاك حين شعر بأيدٍ تلمسه، فانتفض مذعوراً. استطاع أن يميّز في الظلمة بوروبا يشم عنقه ويعانقه، آنّاً ببطء في أذنه. بوروبا، بوروبا، همس الشابّ متأثراً إلى حدّ أن الدموع طفرت من عينيه. كان مُجرَّد قرد بحجم السنجاب، لكنّ حضوره أيقظ عنده موجة من الأمل. ترك الحيوانَ يُداعِبه وقد انتعش من أعماقه. وعندئذٍ أحسّ إلى جانبه بحضور آخر، حضور غير مرئيّ وصامت متموه في ظلال الشجرة. ظنّه في البداية ناديا، لكنّه سرعان ما انتبه إلى أنّه واليماي. كان العجوز الصغير مقرفصاً بجانبه بحيث يستطيع أن يشمّ رائحة الدخان عنده، لكنّه وعلى الرغم من كلّ تحديقه لم يره. وضع التشامان إحدى يديه على صدره، كما لو أنّه يبحث عن خفق قلبه. ثقل اليد الصديقةِ وحرارتها حملت شجاعةً إلى الفتى، فشعر بهدوء أكبر، لم يعد يرتعد واستطاع أن يُفكّر بجلاء. السكين، السكين، همس. سمع صوت السكين عند فتحها، وعلى الفور شعر بحدّ المطواة ينزلق على الأربطة. لم يتحرّك. كانت الدنيا مظلمة وواليماي لم يستخدم سكيناً قط، ويمكن أن يقطع مرفقيه، لكنّ العجوز قطع الأربطة على الفور، وأخذه بين ذراعيه ليقوده عبر الأدغال.

كان النقيب أريوستو قد اعتبر لعبةَ الورق منتهية، ولم يبق من زجاجة الفودكا شيء. لم يدرِ لودفيك لبلانك كيف يلهيه، بينما ما يزال هناك ساعات كثيرة حتى يطلع الفجر. لم يصعق العسكري من الفودكا، كما كان يأمل، فهو في الحقيقة يمتلك أحشاء فولاذية. اقترح عليه أن يستخدم راديو البث ليرى ما إذا كان باستطاعته أن يتصل بثكنة سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا. عالج برهة طويلة الجهازَ وسط ضجيج مشوش يصمُّ الآذان، لكنّه كان من المحال الاتصال مع مركز العمليات. أريوستو، كان مشغولاً، ولم يكن يناسبه أن يغيب عن الثكنة، إذ أن عليه أن يعود بأسرع وقت ممكن، كان بحاجةٍ إلى أن يراقب روايات الجنود حول ما حدث في تابّيراوَا ـ تيري. ماذا

سيحكي أولئك الرجال؟ عليه أن يُرسِل تقريراً إلى رؤسائه في الجيش ويواجه الصحافة قبل أن تنتشر الشائعات. فقد غادرت الدكتورة أُمَيْرَةُ تورّس وهي تهمهمُ حول فيروس الحصبة. إذا بدأت تتكلّم، فوضعي سيكون صعباً جدّاً. يا لها من امرأة غبية! دمدم النقيب.

أمر أريوستو الأنثروبولوجيَّ بالعودةِ إلى خيمته، وطاف في المعسكر ليتأكّد من أنّ رجاله يقومون بالحراسة كما يجب، ثمّ توجّه إلى الشجرة التي ربط إليها الفتى الأمريكيّ، مستعداً للتسلية به برهة. وهنا صفعته الرائحة مثل ضربة هراوة. رمته الصدمة أرضاً على ظهره. أراد أن يمدّ يدَه إلى خصره ليسحب سلاحه، لكنّه لم يستطع أن يتحرّك. شعر بموجة من الغثيان، وبقلبه ينفجر في صدره ثم لا شيء. غرق في اللاوعي. لم يتمكّن من رؤية البهيمة منتصبة على بعد ثلاث خطوات منه، ترشّه مباشرة بنتن غددها القاتل.

نتن البهيمة الخانق عمّ بقية المعسكر، فطرح الجنود أوّلاً ثمّ من كانوا محميين بقماش الخيم. وخلال أقلّ من دقيقتين لم يبق أحدٌ منتصباً على قدميه. وساد سكون مرعب لمدّة ساعتين في تابّيراوَا ـ تيري والأدغال القريبة، حتى الطيور والحيوانات هربت مذعورة من النتن. البهيمتان اللتان هاجمتا في وقتٍ واحدٍ انسحبتا ببطئهما المعتاد، لكنّ رائحتهما استمرّت برهة طويلة من الليل. ما من أحد في المعسكر علم بما جرى خلال تلك الساعات، لأنّهم لم يستعيدوا وعيهم حتى صباح اليوم التالي. فيما بعد رأوا الآثار واستطاعوا أن يصلوا إلى بعض الاستنتاجات.

سار ألِكس وبوروبا على كتفيه، يتبع واليماي في العتمة وهو يتفادى النباتات، حتى اختفت أنوار المعسكر المرتعشة تماماً. كان التشامان يتقدّم كما لو أنّه في وضح النهار، ربّما متبعاً زوجته الملاك، التي لم يكن باستطاعة ألِكس أن يراها. انسلاّ بين الأشجار برهة طويلة إلى أن عثر العجوز أخيراً على المكان الذي ترك فيه نادياً بانتظاره. كانت ناديا والتشامان قد تواصلا بواسطة نعيق البومة خلال فترة طويلة من المساء، إلى أن استطاعت أن تخرج من

المعسكر وتجتمع به. حين رأى الشابان الصديقان بعضهما تعانقا، بينما بوروبا يتعلّق بصاحبته ويزعق من السعادة.

أكّد لها واليماي ما كانا يعرفانه: القبيلة تراقبُ المعسكرَ، لكنّهم كانوا قد تعلّموا أن يخافوا من سحر الناهاب ولم يجرؤوا على مواجهتهم. كان المحاربون من القرب منهم بحيث أنّهم سمعوا بكاء الطفل، تماماً كما سمعوا نداء موتاهم الذين لم يتلقوا الجنازة اللائقة بعد. أرواح الرجال والنساء المقتولين كانت ما تزال ملتصقة بأجسادها، قال واليماي؛ وهي لا تستطيع أن تنفصل ما لم تتلقَّ الطقوس اللائقة وما لم ينتقموا لها. فوضح له ألِكس بأنّ الأمل الوحيد للسكان الأصليين هو الهجوم ليلاً، لأنّ الناهاب سيستخدمون طائر الصخب والريح نهاراً ليجوبوا «عين العالم» ويعثروا عليهم.

ـ إذا هجموا الآن، سيموت بعضهم، أما بطريقة أخرى فستباد القبيلة بكاملها ـ قال ألِكس، وأضاف أنّه على استعداد لأن يقودهم ويقاتل معهم، لذلك كان ابتداؤه: فهو محاربٌ أيضاً.

ـ زعيم للحرب: تاهاما. زعيم للمفاوضات مع الناهاب: أنتَ ـ ردّ واليماي.

ـ تأخّر الوقتُ على المفاوضات. أريوستو قاتل.

ـ أنت قلت أنّ بعض الناهاب شرّيرون وبعض الناهاب أصدقاء. أين الأصدقاء؟ ـ ألحّ الساحر.

ـ جدّتي، وبعض رجال المعسكر أصدقاء. النقيب أريوستو وجنوده أعداء. لا يمكن أن نتفاوض معهم.

ـ جدّتك وأصدقاؤها يجب أن يتفاوضوا مع الناهاب الأعداء.

ـ ليس لدى الأصدقاء أسلحة.

ـ أليس عندهم سحر؟

ـ في «عين العالم» ليس لديهم كثير من السحر. لكن يوجد أصدقاء عندهم كثير من السحر بعيداً عن هذا المكان، في المدن، وفي مناطق أخرى من العالم ـ استخلص ألِكس كولْدْ، متضايقاً من لغته المحدودة.

ـ إذن يجب أن تذهب إلى حيث هؤلاء الأصدقاء ـ خلص العجوز.

ـ كيف؟ نحن محاصرون هنا؟

لم يرد والبماي على أسئلة أخرى. وبقي جالساً القرفصاء، ينظر إلى الليل، ترافقه زوجته، التي اتخذت أكثر أشكالها شفافية، حتى أنّ أحداً من الفتيين لم يستطع أن يراها. أمضى ألِكس ناديا الساعات متلاصقين دون نوم، يُحاول أن يدفّئ الواحد منهما الآخر، لأنّه لم يكن عندهما الكثير مما يقولانه. فكّرا بالمصير الذي ينتظر كات كولْدْ وسيزَرْ سانتوس وأعضاء المجموعة الآخرين، وفكّرا بأهل الضباب، المحكومين بالموت، وفكّرا بالمتراخيات المئوية وبمدينة الذهب؛ فكّرا بماء الصحة وببيوض البلور. ماذا سيحلّ بهما محاصرين في الأدغال؟

دفقة من رائحة مريعة وصلتهما فجأة، لكنها مخفّفة بسبب بعد المسافة، لكنّها معروفة تماماً. نهضا بقفزة واحدة، لكنّ والبماي لم يتحرّك، كما لو أنّه كان يتوقّع ذلك.

ـ إنّها البهائم! ـ صاحت ناديا.

ـ يمكن ولا يمكن ـ علّق التشامان غير متأثرٍ.

كانت بقيةُ الليلِ طويلة جداً، والبردُ قبل الفجر بقليل ازدادت حدته والفَتيان المتكوّران مع بوروبا راحت أسنانهما تصطكّ، بينما الساحر العجوز ينتظر جامداً ونظره تائه في الظلال. استيقظت القرودُ والطيور مع علامات الصباح الأولى، وعندئذٍ أعلن والبماي بأنّه سيرحل. تبعاه بين الأشجار برهة طويلة حتى وصلوا، حين راح نور الشمس يخترق الأغصان، أمام المعسكر. كانت النار والأضواء مطفأة وما من علامة تدلّ على الحياة، والرائحة ما تزال تملأ الجوّ كما لو أنّ مئة ظِربان قد بخّت المكانَ في اللحظة ذاتها. دخلا المحيط الذي كان حتى وقت قصير ضيعة تابّيراوًا ـ تيري الوداعة وقد غطيا وجهيهما بأيديهما. الخيام والطاولة والموقد، كلّ شيء

كان مبعثراً على الأرض، وكان هناك بقايا طعام في كلّ مكان، لكن ما من قرد أو طائر ينكش بين الأنقاض والقمامة، لأنّها لا تتجرأ على تحدّي نتانة البهائم المرعبة. حتى بوروبا نفسه بقي يقفز على بعد أمتار. أظهر واليماي أمام الرائحة الكريهة اللامبالاة ذاتها التي أظهرها في الليلة الفائتة أمام البرد. ولم يكن أمام الشابين من مناص غير اللحاق به.

لم يكن هناك أحد، وما من أثر لأعضاء البعثة أو الجنود أو أريوستو أو جثث الهنود القتلى. الأسلحة والمعدات وحتى آلتي تصوير تيموثي بروس كانت هناك. كما رأيا بقعة دم كبيرة أكمدت الأرض قرب الشجرة التي كان ألِكس قد رُبِطَ إليها، ثمّ وبعد عملية تفتيش قصيرة بدا أنّها أدخلت الرضا إلى نفس واليماي شرع بالانسحاب. فانطلق الفتيان خلفه دون أن يسألاه شيئاً، دائخين من الرائحة، لا تكاد أقدامهما تحملهما. وكلّما ابتعدا وملآ رئتيهما بهواء الصباح المنعش كلّما استعادا معنوياتهما، وروحَيْهما، لكنّ أصداغهما تنبض ويشعران بالغثيان. انضم إليهما بعد برهة من السير بوروبا، وتوغلت المجموعة الصغيرة في الأدغال.

قبل عدّة أيّام وحين رأى سكّان تابّيراوَا - تيري طيري الصخب والريح يطوفان في السماء، هربوا من الضيعة تاركين ممتلكاتهم القليلة وحيواناتهم المنزلية، التي تعيق قدرتهم على التخفّي. تحرّكوا تغطيهم النباتات إلى مكان آمن وأقاموا هناك مساكنهم المؤقتة على رؤوس الأشجار. مجموعات الجنود التي أرسلها أريوستو مرّت على مقربة كبيرة منهم دون أن تراهم، بينما كان محاربو تاهاما، الذين تخفيهم الطبيعة، يراقبون جميع حركات الغرباء.

تناقشت إيومي وتاهاما طويلاً حول الناهاب ومناسبة أن يقتربوا منهم، كما نصح جغوار والنسر. وكانت إيومي ترى أنّه لا يمكّن لشعبها أن يختبئ للأبد على الأشجار مثل القردة: فقد حان الوقت لزيارة الناهاب، وتلقّي هداياهم ولقاحاتهم أمر لا مناص

منه. كان تاهاما يعتبر أنّ من الأفضل لهم أن يموتوا وهم يُقاتلون، لكن إيومي كانت زعيمة الزعماء وغلب رأيها أخيراً. وقرَّرت أن تكون أوّل من يتقدّم، ولذلك وصلت إلى المعسكر وحيدة تزيّنها قبّعة الريش الأصفر الفاخرة كي تبرهن للغرباء من هو صاحب السلطة. كان وجود جغوار والنسر بين الغرباء، اللذين عادا من الجبل المقدّس، قد طمأنها. كانا صديقين ويمكن أن يترجما، وهكذا لن تشعر تلك الكائنات المسكينة، التي ترتدي الخرق النتنة بالضياع أمامها. أحسن الناهاب استقبالها، ولا شكّ أنّهم كانوا مندهشين من هيئتها الجليلة وعدد التجاعيد، الذي يدل على الحياة الطويلة التي عاشتها والخبرات التي اكتسبتها. وعلى الرغم من الطعام الذي قدّموه إليها وجدت العجوز نفسها مجبرة على أن تطلب منهم مغادرة «عين العالم»، لأنّهم يسبّبون الإزعاج، تلك كانت كلمتها الأخيرة وليست مستعدة للتفاوض. انسحبت بجلالة ومعها قصعة لحمها مع الذرة، واثقة من أنّها أرهبت الناهاب بوزن عظتها الهائلة.

ونظراً لنجاح زيارة إيومي، تجرّأت بقية القبيلة وحذت حذوها. وهكذا عادوا إلى المكان الذي كانت فيه ضيعتهم، التي يطأها الآن الغرباء، الذين من الواضح أنّهم لا يعرفون أدنى قواعد الحكمة واللباقة. إذ لا يمكن زيارة شابونو دون دعوة. وهناك شاهدَ الهنودُ الطائرين الضخمين البراقين والخيام والناهاب غريبي الأطوار، الذين سمعوا عنهم قصصاً مرعبة جدّاً. هؤلاء الغرباء أصحاب الآداب الدهمائية يستحقّون ضربات هراوت كبيرة على رؤوسهم، لكن كان على الهنود، وبأمر من إيومي، أن يتسلّحوا بالصبر تجاههم. قبلوا طعامهم وهداياهم كيلا يسيئوا إليهم، ثمّ ذهبوا ليصطادوا ويجمعوا عسلاً وثماراً ليستطيعوا بذلك أن يردّوا لهم الهدايا التي تلقوها كما يتطلّب التصرف السليم.

في اليوم التالي وحين تأكّدت إيومي من أنّ جغوار والنسر ما يزالان هناك أذِنت للقبيلة بأن تمثل من جديد أمام الناهاب وتتلقى اللقاح. لا هي ولا أحد غيرها استطاع أن يُفسّر ما جرى وقتذاك. لم يعرفوا لماذا اندفع الصغيران الغريبان، اللذان كثيراً ما أصرّا على

اللقاح ليمنعاهم منه. سمعوا دويّاً مجهولاً كأنّه رعد قصير. ورأوا أنّه حين تحطّمت الأوعية أفلت الراهاكاناوَا وهاجم الهنودَ بهيئته غير المرئية فسقطوا قتلى دون أن تمسهم سهام أو هراوات. في عنف المعركة هرب البقية كيفما استطاعوا، محتارين ومرتبكين. وما عادوا يعرفون أصدقاءهم من أعدائهم.

أخيراً جاء وليماي ليقدّم لهم بعض التوضيحات. قال إنّ النسر والجغوار صديقان ويجب مساعدتهما، لكن كلّ ما عداهما يمكن أن يكونوا أعداءً. قال إنّ الراهاكاناريوَا أفلت من عقاله ويمكن أن يتخذ أيّة هيئة: كانوا بحاجة إلى تعاويذ جبّارة كي يعيدوه إلى مملكة الأرواح. وقال إنّهم بحاجة إلى أن يلجؤوا إلى الآلهة، وعندئذٍ استدعيت البهيمتان العملاقتان اللتان لم تكونا قد عادتا بعد إلى التِبّوي المقدّس، وما زالتا هائمتين في «عين العالم»، وسيقتا ليلاً إلى القرية المدمّرة. ما كانتا لتقتربا أبداً من تلقاء ذاتهما من منازل الهنود، فهما لم تفعلا ذلك وعلى امتداد آلاف وآلاف السنين. وكان من الضروري أن يُفهِمهما واليماي أنّها لم تعد ضيعة أهل الضباب بعد أن دنّسها الناهاب بحضورهم، وبالقتل المرتكب على أرضهم. تابّيراوَا - تيري يجب أن يُعاد بناؤها في مكان آخر من «عين العالم»، بعيداً عن هناك، في مكان تشعر فيه أرواح البشر وأرواح الأسلاف بالراحة، وحيث لا يلوّثُ الشرُّ الأرض النبيلة. أخذت البهيمتان على عاتقهما أن ترشّا معسكر الناهاب وتقضيا على الأصدقاء والأعداء على حدٍّ سواء.

كان على مُحاربي تاهاما أن ينتظروا ساعات طويلة قبل أن تتلاشى الرائحة بشكلٍ كافٍ كي يستطيعوا الاقتراب. جمعوا في البداية جثثَ الهنود وحملوها كي يُحضّروها للجنازة اللائقة. وعادوا بعدها في طلب البقية وحملوهم جرّاً بمن في ذلك جثّة النقيب أريوستو المهشّم ببراثِن أحد الإلهين الرهيبة.

راح الناهاب يستيقظون واحداً بعد الآخر. كانوا في منطقة جرداء من الغابة، مرميين على الأرض ومخبولين لا يتذكّرون حتى

أسماءهم. فكيف سيتذكرون كيف وصلوا إلى هناك. وكانت كات كولْدْ أوّلَ من استجاب لردّة الفعل. لم يكن عندها فكرة عن المكان الذي هي فيه أو ما جرى للحوّامة والنقيب وخاصّة لحفيدها. تذكّرت الرضيعَ وبحثت عنه في المحيط، لكنّها لم تستطع العثور عليه. هزّت الآخرين الذين راحوا يستيقظون قليلاً. جميعهم كانت تؤلمهم رؤوسهم ومفاصلهم بشكلٍ رهيب، ويتقيّئون ويسعلون ويبكون، يشعرون كأنهم ضربوا بعصيٍّ، لكنّ أحداً منهم لا تبدو عليه آثار عنف.

آخر من فتح عينيه هو الأستاذ لبلانك، الذي أثّرت به التجربة كثيراً، حتى أنّه لم يستطع أن ينهض على قدميه. فكّرت كات كولْدْ أنّ فنجاناً من القهوة وجرعة من الفودكا مناسبين للجميع، إنما لم يكن هناك ما يحملونه إلى أفواههم. كانت نتانة البهائم ما تزال متشربة في ثيابهم وشعرهم وجلدهم، واضطرّوا أن يجرّوا أنفسهم إلى جدول قريب ويغطسوا برهة طويلة في الماء. كان الجنود الخمسة ضائعين دون أسلحتهم ونقيبهم، حتى أنّه عندما تولّى سيزَرْ سانتوس القيادةَ أطاعوه، دون أن ينبسوا بكلمة. تيموثي بروس، المنزعج لأنّه كان على تلك المقربة من البهيمة ولم يصوّرها، أراد أن يعود إلى المعسكر ليبحث عن آلتي تصويره، لكنّه لم يكن يعرف في أيّ اتجاه يبدأ السير، وما من أحدٍ بدا مستعدّاً لمرافقته. الإنكليزي البارد، الذي رافق كات كولْدْ في حروبٍ وكوارثَ ومغامراتٍ كثيرة، نادراً ما كان يفقد طبيعته الثقيلة، لكن الأحداث الأخيرة استطاعت أن تُعكِر مزاجه. أما كات كولْدْ وسيزَرْ سانتوس فلم يفكّرا إلاّ بالحفيد والابنة. أين كان الصغيران؟

فتّش الدليلُ المنطقةَ باهتمام كبير، فوجد أغصاناً مُكسّرة، وريشاً وبذوراً وعلامات أخرى من أهل الضباب. وخلُصَ إلى أنّ الهنودَ أخذوهم إلى ذلك المكان، منقذين بذلك حياتهم، لأنّه لو حدث غير ذلك لماتوا مخنوقين أو ممزقين من قبل البهيمة. وإذا كان الأمر كذلك فهو لا يستطيع أن يفسِّر لماذا لم يستغل الهنودُ المناسبة لقتلهم والانتقام بتلك الطريقة لقتلاهم. لو كان الأستاذ لبلانك في ظرف

يسمح له بالتفكير لوجد نفسه مجبراً على مراجعة نظريّته حول وحشية هذه القبائل، لكنّ الأنثروبولوجيّ المسكين كان يئنّ وهو مُلقىً بوجهه على الأرض، شبه ميت من الغثيان والشقيقة.

كان الجميع على ثقة بأنّ أهلَ الضباب سيعودون، وهذا ما حدث بالضبط؛ فجأة انبثقت القبيلة بكاملها من الأدغال. وقد أفادتهم قدرتهم المذهلة على التحرّك بصمت مطلق خلال ثوانٍ في الإحاطة بالغرباء قبل أن يستطيع هؤلاء الانتباه. الجنود المسؤولون عن مقتل الهنود راحوا يرتعدون مثل أطفال صغار. اقترب تاهاما وصوب نظره إليهم، لكنّه لم يلمسهم؛ ربّما فكّر بأن تلك الديدان لم تكن جديرة بضربات هراوة محارب بمثل نبله.

تقدّمت إيومي خطوة وأطلقت بلغتها خطاباً مسهباً، لم يفهمه أحد، ثمّ أمسكت كات كولدْ من قميصها وبدأت تصرخ بشيء على بعد سنتيمترات من وجهها. الشيء الوحيد الذي خطر للكاتبة أن تفعله هو أن تأخذ هندية قبّعة الريش الأصفر من كتفيها وتصرخ بها بالإنكليزية. وهكذا بقيت العجوزان برهة طويلة، تتقاذفان الشتائم غير المفهومة إلى أن تعبت إيومي، فدارت نصف دورة وراحت لتجلس تحت شجرة. جلس بقية الهنود بدورهم وهم يتحدّثون فيما بينهم ويأكلون الثمار والجوز والفطورَ التي يعثرون عليها بين الجذور ويمرّرونها من يدٍ إلى يدٍ، بينما تاهاما وعدد من المحاربين بقوا يقظين، لكن دون أن يعتدوا على أحد. ميّزت كات كولدْ الرضيعَ الذي اعتنت به بين ذراعي فتاة شابّة، وسعدت لأنّ المخلوق عاش متخطياً نتانة البهيمة القاتلة وعاد إلى حضن أهله.

عند منتصف المساء ظهر واليماي والفتيان. هرعت كات كولدْ وسيزَرْ سانتوس للقائهما، معانقين بارتياح، لأنّهما كان يخافان ألا يريانهما أبداً. صار التواصل بوجود ناديا أسهل؛ استطاعت أن تترجم وتوضّح بذلك بعضَ النقاط. علم الغرباء أنّ الهنود لم يفهموا بعد كيف مات زملاؤهم بأسلحة الجنود النارية، لأنّهم لم يروها قط. والشيء الوحيد الذي يرغبون فيه هو أن يبنوا قريتهم في مكان آخر، ويأكلوا رمادَ موتاهم، ويستعيدوا السلام الذي تمتّعوا به دائماً.

يريدون أن يُعيدوا الراهاكاناريوَا إلى مكانه بين الشياطين وأن يطردوا الناهاب من «عين العالم».

أخذ الأستاذ لبلانك، الذي استعاد نفسه قليلاً، ولكنّه كان ما يزال مخبولاً من الوعكة، الكلمة: كان قد أضاع القبعة النمساوية بريشها وكان مثلهم جميعاً متسخاً، نَتِنَ الرائحة، وثيابه مشبعة برائحة البهيمة. ترجمت ناديا مُكيِّفة الجملَ، كيلا يظنّ الهنود أنّ جميع الناهاب متعجرفين مثل ذلك الرجل الصغير.

ـ يستطيعون أن يطمئنوا. أعدكم بأن آخذ على عاتقي شخصياً حماية أهل الضباب. فالعالم يُصغي حين يتكلّم لودفيك لبلانك ـ أكّد الأستاذ.

أضاف أنّه سينشر انطباعاته حول ما رآه، ليس في مقال الإنترناشيونال جيوغرافيك وحسب، بل سيكتب كتاباً آخر. وبفضله، قال، ستُعلَن «عين العالم» منطقة احتياطية للسكّان الأصليين محمية من كلِّ أشكال الاستغلال. سترون من هو لودفيك لبلانك!

لم يفهم أهل الضباب كلمةً واحدة من هذا الثرثار، لكنّ ناديا لخّصت قائلة إنّ ذلك كان ناهاب صديق. وأضافت كات كولْدْ أنّها وتيموثي بروس سيساعدان لبلانك في أهدافه، وبذلك انضمّا إلى درجة الناهاب الأصدقاء. أخيراً وبعد نقاشات لا نهاية لها لمعرفة من هم الأصدقاء ومن هم الأعداء، قبل السكان الأصليون أن يقودوا الجميع في طريق العودة إلى الحوّامة. وكانوا يأملون أن تكون نتانة البهائم في تابّيراوَا ـ تيري قد خفّت.

أمرت إيومي، العملية دائماً، المحاربين بأن يذهبوا للصيد، بينما تُعدّ النسوة النارَ وبعضَ أراجيح النوم لقضاء الليلة.

•

ـ سأكرّر عليك السؤال الذي سألته لك من قبل يا ألِكساندر، ماذا تعرف عن البهيمة؟ ـ سألت كات كولْدْ حفيدَها.

ـ ليست بهيمة واحدة يا كات، إنّها عدّة. تبدو متراخيات

ضخمة، حيوانات قديمة جدّاً، ربّما من العصر الحجري أو سابقة عليه.

ـ هل رأيتها؟

ـ لو لم أرها ما كنتُ لأستطيع وصفها، ألا ترين ذلك؟ رأيت إحدى عشرة، لكنّني أظن أنّ هناك واحدة أو اثنتين تطوفان في هذه الأنحاء. تبدو بطيئة الأيض جدّاً، تعيش سنوات طويلة، وربّما قروناً. تتعلّم، وعندها ذاكرة جيّدة، ولن تصدّقي إذا قلت لك إنّها تتكلّم ـ وضّحَ ألِكس.

ـ أنت تسخر منّي! ـ هتفت الجدَّة.

ـ ما أقوله صحيح. لنقل إنّها ليست فصيحة تماماً، لكنّها تتكلّم لغة أهل الضباب ذاتها.

شرع ألِكس كولْدْ إلى إخبارها بأنّه مقابل حماية الهنود لها فإنّ هذه الكائنات تحفظ تاريخهم.

ـ قلت لي ذات مرّة إنّ الهنود لا يحتاجون للكتابة، لأنّهم يملكون ذاكرة جيّدة. والمتراخيات هي ذاكرة القبيلة الحيّةُ ـ أضاف الفتى.

ـ أين رأيتها يا ألِكساندر؟

ـ لا أستطيع أن أقول لك، إنّه سرّ.

ـ أفترض أنّها تعيش في المكان ذاته الذي عثرت فيه على ماء الصحّة... ـ غامرت الجدّة بالقول.

ـ يمكن ولا يمكن ـ ردّ حفيدُها ساخراً.

ـ إنّني بحاجة لأن أرى هذه البهائم وأُصوِّرَها يا ألِكساندر.

ـ لماذا؟ لأجل مقال في مجلّة؟ سيكون في ذلك نهاية هذه المخلوقات المسكينة يا كات، سيأتون ليصطادوها ويحبسوها في حدائق حيوانات أو ليدرسوها في المختبرات

ـ يجب أن أكتب شيئاً، لهذا تعاقدوا معي...

ـ اكتبي أنّ البهائم خرافة، محض اعتقاد باطل. أؤكّد لك أنّه لن

يعود أحد ليراها خلال زمن طويل، طويل جدّاً. سوف ينسونها. والأكثر أهمية أن تكتبي عن أهل الضباب، هذا الشعب الذي بقي دون تبدّل منذ آلاف السنين، ويمكن أن يختفي في أيّة لحظة. واذكري أنّهم كانوا سيحقنونهم بفيروس الحصبة، كما فعلوا بقبائل أخرى. تستطيعين أن تشهريهم وبذلك تحمينهم من الإبادة يا كات. يمكنك أن تُصبحي حاميةً لأهل الضباب، وبقليل من المكر تستطيعين أن تجعلي لبلانك حليفاً لك. يمكن لقلمك أن يأتي بشيء من العدالة لهذه الناحية، تستطيعين أن تفضحي الأشرار من أمثال كاريّاس وأريوستو، وأن تضعي على بساط النقاش دورَ العسكر، وتقودي أُمَيْرَة تورُس إلى المحاكم. عليك أن تفعلي شيئاً، وإلاّ لظهر على الفور أوغاد آخرون يرتكبون جرائم في هذه النواحي متمتعين بالحصانة ذاتها.

ـ أرى أنّك كبرت كثيراً في هذه الأسابيع يا أَلِكساندر ـ اعترفت كات كولْدْ، مندهشة.

ـ تستطيعين أن تُناديني جغوار يا جدّتي؟

ـ مثل ماركة السيارات؟

ـ نعم.

ـ لكلّ ذوقه. أستطيع أن أناديك كما تشاء، ما دمت لا تُناديني جدّة ـ ردّت.

ـ حسن يا كات.

ـ حسن يا جغوار.

تناول الناهاب في تلك الليلة مع الهنود عشاءً معتدلاً من لحم القرد المشوي. فمنذ أن وصل طيرا الصخبِ والريح إلى تابّيراوِا ـ تيري، فقدت القبيلة بستانها، وموزها ومنيهوتها، كما لم يعد باستطاعتهم أن يُشعلوا النار كيلا يجذبوا إليهم الأعداء. ومضى عليهم عدّة أيام دون طعام. وبينما كانت كات كولْدْ تُحاول أن تتبادل المعلومات مع إيومي والنسوة الأخريات، كان الأستاذ لبلانك المندهش يستجوب تاهاما حول عاداتهم وفنون الحرب عندهم.

ناديا، المُكلّفة بالترجمة انتبهت إلى أنّ تاهاما كان صاحب دعابة خبيثة ويحكي للأستاذ سلسلةً من الأوهام، فمن بين ما قاله له أنّه كان الزوج الثالث لإيومي وأنّه لم ينجب قط أولاداً، وهو ما قوّضَ نظرية لبلانك حول التفوّق الجيني لـ«الفحل الألفا». وفي المستقبل القريب ستصبح حكايات تاهاما هذه أساساً لكتابٍ آخر للأستاذ الشهير لودفيك لبلانك.

في اليوم التالي قاد أهل الضباب وعلى رأسهم إيومي واليماي وتاهاما مع مُحاربيه في الخلف، الناهاب عائدين بهم إلى تابّيراوَا ـ تيري. وعلى بعد مئة متر من الضيعة رأوا جسد النقيب أريوستو، الذي وضعه الهنود بين غصني شجرة غليظين طعاماً للطيور والحيوانات، كما كانوا يفعلون بأولئك الأشخاص الذين لا يستحقون حفلاً جنائزياً. كانت قد مزّقته مخالب البهيمةِ تماماً، حتى أنّ مَعِدَات الجنود لم تتحملّ أن ينزلوه ويحملوه عائدين به إلى سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا؛ فقرّروا أن يعودوا فيما بعد ليأخذوا عظامَه ويواروها التراب حسب الطقوس المسيحية.

ـ لقد نفّذت البهيمة حكمَ العدالة به ـ همست كات.

أمر سيزَرْ سانتوس تيموثي بروس والِكساندر أن يجمعا جميع أسلحة الجنود المبعثرة في المعسكر، منعاً لانفجار عنف آخر في حال أصابتهم نوبة عصبية. ومع ذلك لم يكن محتملا أن يحدث ذلك، لأنّ نتانة البهائم كانت ما تزال متغلغلة فيهم، وتركتهم مشوَّشين، وديعين. جعلهم سانتوس يصعدون بالمعدات إلى الحوّامة، باستثناء الخيام، التي طُمِرت، لأنّه قدّر أنه سيكون من المستحيل إزالة الرائحة الكريهة عنها. استردّ تيموثي بروس من بين الخيام المفكوكة آلتي تصويره وعدداً من الأفلام، على الرغم من أنّ تلك التي طلبها النقيب أريوستو كانت مخرّبة لأنّه عرّضها للنور. من ناحيته عثر ألِكس على كيسه وزجاجة ماء الصحة بداخلها دون مساس.

سارع أعضاء البعثة بالعودة إلى سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا. لم يكن عندهم طيّار، لأنّ تلك الحوامة جاءت يقودها النقيب أريوستو

والطيار الآخر ذهب في الأولى. ولم يكن سانتوس قد قاد من قبل هذا النوع من الطائرات، لكنّه بدا واثقاً من أنّه إذا كان قادراً على أن يطير بطائرته المتداعية، فإنّه سيستطيع ذلك بهذه.

حانت لحظة وداع أهل الضباب. وقد فعلوا ذلك متبادلين الهدايا، كما هي العادة بين الهنود. بعضهم تخلّى عن زنانيره، وحرابه، وسكاكينه، وأوعية مطبخه، وآخرون نزعوا ريشهم وبذورهم وسحلياتهم وأطواق أسنانهم. أعطى ألِكس تاهاما بوصلتَهُ، فعلّقها زينةً في عنقه، وأهدى هذا الفتى الأمريكيَّ حزمةً من النبال المسمومة بالكورارِ وأسطوانة (سرباتانا) بطول ثلاثة أمتار، لم يستطيعوا نقلها في الحوّامةَ الصغيرة إلاّ بصعوبة. وعادت إيومي لتمسك كات من قميصها وتلقي عليها خطاباً بأعلى صوتها، وردّت عليها الكاتبةُ بالإنكليزية بالحميّة ذاتها. في اللحظة الأخيرة، وبينما كان الناهاب يُسارِعون للصعودِ إلى طائر الصخب والريح أعطى واليماي لناديا سلّةً صغيرة.

20

طرق منفصلة

كانت رحلةُ العودة إلى سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا كابوساً. لأنّ سيزَرْ سانتوس تأخّر أكثر من ساعة في السيطرة على أجهزة التحكّم وموازنة الحوامة. لم يظنّ أحد خلال تلك الساعة بأنه سيصل حيّاً إلى الحضارة، حتى كات كولْدْ، التي لدمها برودة سَمَكَةٍ بحرٍ عميق، ودّعت حفيدها بربتة قويّة من يدها.

ـ وداعاً يا جغوار. أخشى ألاّ نصل إلى أبعد من هنا. يُحزنني أن تكون حياتُك قصيرة إلى هذا الحدّ ـ قالت له.

كان الجنود يُصَلّون بصوت عالٍ ويشربون كحولاً كي يهدّئوا أعصابهم، بينما راح تيموثي بروس يُظهِر انزعاجه العميق رافعاً حاجبَهُ الأيسرَ، الشيء الذي يفعله حين يوشك على الانفجار. الوحيدان اللذان حافظا على هدوئهما هما ناديا، التي تخلّصت من الخوف من المرتفعات، وتثق بيدِ أبيها الثابتة، والأستاذُ لودفيك لبلانك، الدائخ إلى حدّ أنّه لم يعِ الخطر.

بعد ساعاتٍ من ذلك، وبعد هبوطٍ مرتجّ كالإقلاع، استطاع أعضاءُ البعثة أن ينزلوا أخيراً في فندق سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا البائس. ليعودوا في اليوم التالي إلى ماناوس، حيث سيستقلّون الطائرةَ إلى بلادهم. سيذهبون إليها بالسفينة عبر نهر نِغرو، مثلما جاؤوا، لأنّ طائرة سيزَرْ سانتوس الصغيرة أبت أن ترتفع عن

الأرض، على الرغم من المحرِّك الجديد. وسيذهب معهم جول غونثالِثْ، مساعد تيموثي بروس، الذي تعافى جيّداً. فقد ارتجلت الراهبات له مشدّاً من الجصّ، يثبته من عنقه وحتى وركيه، وتنبّأن له بشفاء أضلاعه دون عواقب وخيمة، وإن كان التعيسُ لن يُشفى أبداً من كوابيسه. ففي كلّ ليلة كان يحلم بحيّة أناكوندا تعانقه.

أكّدت الراهبات أيضاً بأنّ الجنود الثلاثة سيتعافون، لأنه من حسن حظّهم أنّ السهام لم تكن مسمومةً، بالمقابل كان مستقبل ماوْرو كاريّاس يبدو سيّئاً جدّاً، فقد آذت ضربة هراوة تاهاما دماغه، وفي أفضل الحالات سيبقى بقيّةَ حياته مقعداً في كرسيّ على عجلات، وعقله في الغيوم يتغذّى بالسيروم، وقد نُقِل بطائرته الخاصّة إلى كاراكاس مع أمَيْرَة تورِّس، التي لاتفارقه لحظة واحدة. لم تكن المرأة تعرف أنّ أريوستو قد مات ولم يعد باستطاعته أن يحميها، كما لم يخطر لها أنّه ما إن يروي الأجانبُ ما حدث مع اللقاح المزيف حتى تُواجِه العدالة. كانت تالفة الأعصاب وتكرّر مرّة بعد أخرى أنّ الخطيئة خطيئتها هي وأن الله قد عاقبها وماوْرو بسبب فيروس الحصبة. لا أحد فهم تصريحاتها الغريبة، لكنّ الأبَ بالدومِرو، الذي ذهب ليواسي روح المحتَضَر، أولاها انتباهاً وسجّل كلماتِها. كان الراهب مثله مثل كاراكاو يشكّ منذ زمن بأنّ ماوْرو كاريّاس كان يملك مخطّطاً لاستغلال أراضي الهنود، لكنّه لم يتمكّن من كشف ماهيته. هلوساتُ الدكتورة الظاهرية سلّمته المفتاح.

كان رجل الأعمال يفعل طوال وجود النقيب على رأس قيادة الثكنة ما يحلو له في تلك المنطقة. ولم يكن المُبشِّر يملك القوّة لكشف هذين الرجلين، على الرغم من أنّه بقي سنواتٍ وهو يُخبِر الكنيسة بشكوكه؛ إلاّ أنّه تمّ تجاهل تحذيراته لأنّها خالية من الأدلّة. ثمّ إنّهم كانوا يعتبرونه نصفَ مجنون، فقد أخذ ماوْرو كاريّاس على عاتقه أمر نشر الشائعة القائلة بأنّ الراهب صار يهذي منذ أن خطفه الهنود. بل إنّ الأب بالدومِرو سافر إلى الفاتيكان كي يُبلغ عن التماديات المرتكبة بحقّ السكان الأصليين، لكنّ رؤساءه ذكّروه بأنّ

مهمته هي حمل كلمة المسيح إلى الأمازون وعليه ألاّ يتدخّل في السياسة. عاد الرجل مهزوماً، متسائلاً كيف يريدون أن يُخلّصوا الأرواح في السماء قبل أن يخلّصوا حياة الناس على الأرض. ثم إنّه من ناحية أخرى لم يكن مقتنعاً بتنصير الهنود، الذين كانت لهم طريقتهم الروحانية الخاصّة بهم. فالأبُ بالدومِرو يفكّر بأنّهم عاشوا آلاف السنين بانسجام مع الطبيعة، مثل آدم وحوّاء في الجنّة، فما حاجتهم لأن يُلَقِنوهم فكرة الخطيئة؟

حين علم بأنّ مجموعة الإنترناشيونال جيوغرافيك قد عادت إلى سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا، وأنّ النقيب أريوستو قد مات بطريقة غامضة، حضر المبشّر إلى الفندق. كانت روايات الجنود حول ما حدث في الهضبة متناقضة، فبعضهم يلقي بالمسؤولية على الهنود وآخر على البهيمة، ولم يخلُ الأمر من آخر أشار بإصبع الاتهام إلى أعضاء البعثة. في جميع الأحوال، ونظراً لخروج أريوستو من الحلبة صار هناك في النهاية فرصة صغيرة لتحقيق العدالة. قريباً سيكون هناك عسكريّ آخر على رأس القوّات، ولا يوجد أي ضمانة بأن يكون أكثر نزاهة من أريوستو، الذي يمكن أن يستسلم للرشوة والجريمة أيضاً، كما يحدث عادة في الأمازون.

سلّم الأبُ فالدومِرو المعلومات التي جمعها إلى الأستاذ لودفيك لبلانك وكاتْ كولْدْ. ففكرة أنّ ماوْرو كاريّاس كان يوزّع الأوبئة بالتواطؤ مع الدكتورة أمَيرة تورّسْ وبحمايةٍ من ضابط في الجيش كان جريمة رهيبة لن يصدّقها أحد دون دليل.

ـ إنّ خبر أنّهم يرتكبون مذابح ضدّ الهنود بتلك الطريقة سيهزُّ العالم. من المؤسف أنّنا لا نستطيع أن نبرهن على ذلك ـ قالت الكاتبة.

ـ أعتقد أنّنا نستطيع ذلك ـ أجاب سيزَرْ سانتوسْ مُخرِجاً من جيب صدرته إحدى عبوات اللقاح المزعوم.

ووضّح أن كاراكاوِ تمكّن من انتزاعها من معدّات الدكتورة قبل أن يغتاله أريوستو بقليل.

ـ فاجأه ألِكساندر ونادِيا وهو يقلّبُ في صناديق اللقاح وعلى الرغم من أنّه هدَّدهما إذا ما وشيا به فقد حكيا لي ذلك. اعتقدنا أنّ كاراكاوِ هو مندوب كاريّاس، ولم يخطر ببالنا قط أنّه عميل الحكومة ـ قالت كات كولْدْ.

ـ كنتُ أعلمُ أنَّ كاراكاوِ يعملُ لصالح قسم حماية السكان الأصليين ولذلك اقترحت على الأستاذ لبلانك أن يتعاقد معه كمُساعد شخصيّ له. بتلك الطريقة كان باستطاعته أن يُرافق البعثة دون أن يُثير الشبهات ـ وضّح سيزَرْ سانتوس.

ـ يعني أنك استخدمتني ياسانتوس ـ أشار الأستاذ.

ـ أنتَ كنت تريد من يُهوّي لك بورقة موز، وكاراكاوِ يريد أن يذهب مع البعثة. فلا أحد منكما خرج خاسراً يا أستاذ ـ ابتسم الدليلُ وأضاف أنّ كاراكاوِ كان يُحقّق منذ زمن طويل حول ماوْرو كاريّاس، وكان عنده ملف ضخم حول الصفقات المشبوهة لذلك الرجل، وخاصّة طريقته في استغلال أراضي السكان الأصليين. وبالتأكيد كان يشكّ بعلاقة ماورو كاريّاس بالدكتورة أُمَيْرَةْ تورّس، لذلك قرَّر أن يتتبع أثر المرأة.

ـ كان كاراكاوِ صديقاً لي، لكنّه كان رجلاً كتوماً ولا يتكلّم إلا بما هو ضروري. لم يقل لي قط أنّه كان يشكّ بأُمَيْرَةْ ـ قال سانتوس ـ أعتقد أنّه كان يبحث عن مفتاح لجلاء الميتات الجماعية للهنود، لذلك سطا على إحدى عبوات اللقاح وسلّمها إلّي لأخبّئها في مكانٍ آمن.

ـ بهذه نستطيع أن نبرهن على الطريقة المشؤومة التي كانت تنشر بها الوباء ـ قالت كات كولْدْ وهي تنظر إلى الزجاجة الصغيرة من خلال الضوء.

ـ أنا أيضاً عندي شيء لكِ يا كات، ـ ابتسم تيموثي بروس، وهو يريها أحد الأفلام في راحة كفّه.

ـ ما هذا؟ ـ سألت الكاتبة بفضول.

ـ إنّها صور لأريوستو وهو يقتل كاراكاوِ بطلقةٍ عن قربٍ،

ولماوْرو كاريّاس يكسّر العبوات، ولإطلاق النار على الهنود. بفضل الأستاذ لبلانك، الذي ألهى النقيب لمدّة نصف ساعة، استطعتُ تبديلها قبل أن يُخرِّبها. سلّمته أفلام القسم الأوّل من الرحلة وأنقذتُ هذه ـ وضّح تيموثي بروس.

قامت كات كولْدْ بردّة فعل غير متوقَّعة منها: فقد قفزت على عنق سانتوس وبروس وطبعت قبلة على خدّ كلّ منهما.

ـ مباركان، أنتما، أيّها الفتيان! ـ هتفت سعيدةً.

ـ إذا كانت هذه تحتوي على الفيروس كما نعتقد، فهذا يعني أنّ ماوْرو كاريّاس وتلك المرأة قد قاما بعملية إبادة جماعية وعليهما أن يدفعا الثمن... ـ همس الأبُ بالدومِرو، وهو يُمسك بالعبوة بإصبعينِ وذراعٍ ممدودة كما لو أنّه يخاف أن ينبجسَ السمّ في وجهه.

كان هو من اقترح إحداث مؤسّسة مخصصة لحماية «عين العالم» وخاصّةً أهل الضباب. ووضّح متحمّساً أنّه على ثقة من تحقيق ذلك بفضل قلم كات كولْدْ البليغة، والمكانة الدولية للودفيك لبلانك. صحيح أنه بحاجة إلى التمويل، لكن بالتعاون بين الجميع سيرون كيف سيحصلون على المال: سيلجؤون إلى الكنائس، والأحزاب السياسية والمنظمات الدولية والحكومات؛ لن يتركوا باباً إلا وسيطرقونه حتى يحصلوا على الأرصدة الضرورية. يجب إنقاذ القبائل، قرّر المُبشِّرُ وكان البقيّةُ متفقين معه.

ـ أنت ستصبح رئيس المؤسّسة يا أُستاذ ـ عرضت كات كولْدْ.

ـ أنا؟ ـ سأل لبلانك مفاجَأً ومسروراً بسذاجة.

ـ ومن يستطيع أن يفعل هذا خير منك؟ فحين يتكلّم لودفيك لبلانك العالم يُصغي... قالت كات كولْدْ مُقلِّدةً نبرةَ الأنثروبولوجي المغرورة فراح الجميع يضحكون، باستثناء لبلانك طبعاً.

كان ألِكساندر كولْدْ ونادِيا سانتوس جالسين على رصيف

مرفأ سانتا ماريّا دِ لا ليوبيا، حيث جرى الحديث الأوّل بينهما قبل عدّة أسابيع وبدأا صداقتهما. كان الليل، كما في تلك المناسبة، قد حلّ بنقيق ضفادعه وصراخ قردته، لكنّ القمر هذه المرّة لم يكن ينيرهما. فالسماء مظلمة وألِكس لم يرَ من قبلُ سماء كهذه، ولم يكن يتصوّر أن توجد كلّ هذه النجوم. كان الفتيان يشعران بأنّ زمناً طويلاً مضى على تعارفهما، فكلاهما كبر وكلاهما تبدّل خلال هذه الأسابيع القليلة. كانا صامتين، بقيا ينظران إلى السماء برهة طويلة، يفكّران بأنّ عليهما أن يفترقا قريباً جدّاً، إلى أن تذكّرت ناديا السلّة الصغيرة التي تحملها لصديقها، وهي السلة ذاتها التي قدّمها إليها والِيماي عندما ودّعها. أخذها ألِكس باحترام، وفتحها، كانت تتلألأ في داخلها بيوضُ الجبل المقدّس الثلاث.

ـ احتفظ بها يا جغوار، إنّها ثمينة جدّاً، إنّها أكبر ماسات في العالم ـ قالت له ناديا هامسةً.

ـ أهذه ماسات؟ ـ سأل ألِكس مذعوراً، دون أن يجرؤ على لمسها.

ـ إنّها تعودُ إلى أهل الضباب. وحسب الرؤيا التي رأيتها، يمكن لهذه البيوض أن تُنقذ الهنودَ والغابة التي عاشوا فيها دائماً.

ـ ولماذا تعطينني إياها؟

ـ لأنّكَ سُمّيتَ زعيمَ التفاوض مع الناهاب. وستفيدك الماسات للمقايضة ـ وضّحت.

ـ آه يا ناديا! لست أكثر من مَخّاطٍ في الخامسة عشرة من عمره، ولا أملك أيّة قوّة في العالم، لا أستطيع أن أتفاوض مع أحد فما بالك أن آخذ على عاتقي هذه الثروة.

ـ حين تصل إلى بلدك أعطها لجدّتك، التي لا شكّ ستعرف ماذا تفعل بها. جدّتُك تبدو سيّدة قويّة جداً، وهي تستطيع أن تُساعِد الهنود ـ أكّدت الصبيةُ.

ـ تبدو قطعاً بلورية. كيف تعرفين أنّها ماس ـ سأل.

ـ أريتُها لوالدي، وقد عرفها منذ النظرة الأولى. لكن يجب ألا يعرف أحد بأمرها حتى تصبح في مكان آمن، وإلاّ فإنّهم سيسرقونها منك. هل تفهم يا جغوار؟

ـ أفهم. هل رآها الأستاذ لبلانك؟

ـ لا، فقط أنت وأبي وأنا. لو علم الأستاذ لخرج راكضاً يحكي لجميع الناس ـ أكّدت.

ـ أبوك رجل نزيه جداً، لو كان أيّ أب آخر لأبقى على الماسات لنفسه.

ـ هل كنت ستفعل هذا أنت؟

ـ لا!

ـ كذلك أبي لن يفعل. لم يبغ أن يلمسها، قال إنّ هذه الحجارة تأتي بالحظّ السيّئ، وإنّ الناس يقتتلون لأجلها ـ ردّت ناديا.

ـ وكيف سأمرّرها على جمارك الولايات المتحدة الأمريكية؟ ـ سأل الفتى وهو يُقدِّر وزن البيوض الرائعة.

ـ في أحدِ جيوبك. وإذا رآها أحد، سيظنّ أنها صناعة يدوية أمازونية للسياح. لا أحد يعتقد أنه توجد ماسات بهذا الحجم، خاصّة مع صبيّ نصف رأسه محلوق ـ ضحكت ناديا، مارّة بأصابعها على قمة رأسه الحليقة.

مكثا برهة طويلة صامتين ينظران إلى الماء تحت أقدامهما، حزينين لأنّ على كلّ منهما بعد ساعات قليلة أن يقول للآخر وداعاً. وفكّرا أنّه لن يحدث في حياتهما بعد الآن شيء له روعة تلك المغامرة التي تقاسماها. ما الذي يمكن أن يُقارن بالبهائم ومدينة الذهب ورحلة ألِكس إلى أعماق الأرض، وصعود ناديا إلى عشّ البيوض الرائعة؟

ـ لقد كلّفوا جدّتي بكتابة تحقيق آخر للإنترناشيونال جيوغرافيك. عليها أن تذهب إلى مملكة «التنين الذهبي» ـ علّق ألِكس

ـ لاسمها وقع مهم كوقع «عين العالم». أين تقع هذه؟ ـ سألت.

ـ في جبال هيمالايا. بودّي لو أذهب معها، ولكن...

كان الفتى يُدرك أنّ ذلك مُحال؛ لأنَّ عليه أن يعود إلى حياته الطبيعية، فقد تغيب عدّة أسابيع وحانت ساعة العودة إلى دروسه وإلاّ فإنّه سيضيع سنة دراسية. ثمَّ إنّه يريد أن يرى أسرته، ومعانقة كلبَه بونتشو. وكانٍ بحاجة، علىٍ الأخصّ، لأن يُسلّم ماءَ الصحّة ونبتة واليماي إلى أمِّهِ؛ كان واثقاً أنّها بهذا، إضافة إلى المعالجة الكيميائية سوف تشفى. ومع ذلك فإنّ أكثرٍ مايؤلمه هو أن يترك ناديا؛ إنه يتمنى لو أنّ الفجر لا يطلع أبداً ويبقى إلى الأبد برفقةِ صديقتهِ تحت النجوم. لا أحد كان يعرفه مثلها، ولا أحدَ كان أقرب إلى قلبه من تلك الصغيرة، عسليّةِ البشرة، والتي التقى بها بأعجوبة في أقصى العالم. ماذا سيكون من أمرها في المستقبل؟ ستكبر حكيمة ووحشية في الأدغال، بعيدة جدّاً عنه.

ـ هل سأعود وأراك؟ ـ تنهّد ألِكسْ.

ـ طبعاً ستعود! ـ قالت، وهي تعانق بوروبا، بفرحة مصطنعة، كيلا ينتبه إلى دموعها.

ـ سنتبادل الرسائل، أليس كذلك؟

ـ نستطيع أن نقول إنّ البريد في هذه المناطق ليس جيّداً.

ـ لا أهمية لذلك، حتى ولو تأخّرت الرسائل، فإنّني سأكتب إليكِ. أهمِ ما في هذه الرحلة بالنسبة إليّ هو أنّنا تعارفنا. لن أنساك أبداً، أبداً، وستبقين أفضل صديقة ـ وعد ألِكس كولْدْ بصوتٍ كسير.

ـ وأنت ستكون أفضل صديق لي، ما دمنا نستطيع أن نرى بعضنا بعضاً بالقلب ـ ردّت ناديا سانتوس.

ـ إلى اللقاء يا نسر...

ـ إلى اللقاء يا جغوار...

الفهرس

سيعيش ألكساندر كولد مغامرة لن ينساها أبداً، يرافق فيها جدته الغريبة الأطوار ، والتي ستكتب مقالاً لمجلة عن مخلوق غريب ومجهول، اسمه «البهيمة». فيتفتح أمامه عالم جديد : أنه عالم الأدغال المجهولة بسكانها وطبيعتها الغرائبية ، عالم الإنسان بجوانبه الأكثر غموضاً.

إيزابيل ألليندي «1942» العجوز الساحرة ، الشبيهة بكات كولد، كما تعرّف بنفسها، هي أيضاً أحد الأصوات الأكثر شهرة في أدب أميركا اللاتينية المعاصر من خلال رواياتها: بيت الأرواح ، الحب والظلال، باولا، الخطة اللانهائية، ابنة الحظ، أفروديت، وصورة عتيقة.

في هذه الرواية التي بين أيدينا، تتوجه لأول مرة إلى جمهور الشباب برواية يمتزج فيها السحر مع المغامرة والدعابة والطبيعة، حيث تغوص في أعماق الإنسان من خلال شخصيات مغامرة تنتمي إلى أجيال وأمزجة متباينة. وهي بذلك تقدم عملاً خلاباً سيسحر القارئ ويشده من بداية العمل حتى آخر صفحة فيه .

الناشر